

الكويت عاصمة الثقافة الإسلامية 2016
العربي
AL-ARABI
العدد 693 ■ ذو القعدة 1437 هـ ■ أغسطس 2016 م August
ووهان الصينية
مدينة رؤوس الطيور التسعة !
ISSN : 0258 - 3941

عاصمة
الثقافة
الإسلامية

Kuwait Capital of Islamic Culture 2016





مجلة شهرية ثقافية مصورة يكتبها عرب ليقرأها كل العرب
تأسست عام ١٩٥٨، تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت



رئيس التحرير
د. عادل سالم العبدالجادر

Editor in Chief
Dr. Adel S. Al-Abdul Jader

العنوان في الكويت

بنيد القار - قطعة 2 - شارع 76 - قسيمة 105 - هاتف البدالة 22512081/82/86 (00965)
■ هاتف التحرير: Editorial Tel: 22512017
■ الإعلان والتوزيع: 22512043 (00965) ■ الفاكس: 22512044 (00965)
العنوان البريدي: ص ب 748 - الصفاة - الرمز البريدي 13008- الكويت.
AL-ARABI - A Cultural Illustrated Monthly Arabic Magazine, Published by
Ministry of Information - State of Kuwait - P.O.Box: 748 - Safat, Kuwait
Tel: (00965) 22512081/82/86 Fax: (00965) 22512044
E.mail: arabimag@arabimag.net

عناوين البريد الإلكتروني

الاشتراك بمجلة العربي: subscribe@alarabi.info
المتابعة المالية: fin@alarabi.info
المشاركات والمقالات: alarabi@alarabi.info









شروط النشر في مجلة العربي

■ توجه المقالات إلى رئيس تحرير المجلة.

تكتب المقالات باللغة العربية وبخط واضح وترسل على البريد الإلكتروني، ومرفقة بما يلي:

١ - تعهد خطي من المؤلف أو المترجم بعدم نشر المقالة سابقًا في أي مجلة أخرى.

٢ - سيرة ذاتية مختصرة للمؤلف أو المترجم.

٣ - الأصل الأجنبي للترجمة، إذا كانت المقالة مترجمة.

٤ - يفضل أن تكون المقالات الثقافية مدعمة بصور أصلية عالية النقاء، مع ذكر مصادر هذه الصور، ومراعاة ترجمة تعليقات وشروح الصور والجداول إلى اللغة العربية.

■ الموضوعات التي لا تنشر لا تعاد إلى أصحابها.

■ يفضل ألا تقل المقالة عن ١٥٠ كلمة ولا تزيد على ١٠٠٠ كلمة.

■ يحق للمجلة حذف أو تعديل أو إضافة أي فقرة من المقالة تماشيًا مع سياسة المجلة في النشر.

■ الخرائط التي تنشر بالمجلة مجرد خرائط توضيحية ولا تعتبر مرجعا للحدود الدولية.

■ لا يجوز إعادة النشر بأي وسيلة لأي مادة نشرتها العربي منذ ١٩٥٨ وحتى تاريخه دون موافقة خطية من الجهات المختصة بالمجلة وإلا اعتبر خرقا لقانون الملكية الفكرية.

■ الاسم الكامل حسب الوثائق الرسمية، واسم الدولة، واسم البنك، ورقم الحساب الخاص بالمستفيد، وكذلك رقم الآيبان (IBAN)

■ المواد المنشورة تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة، ويتحمل كاتب المقال جميع الحقوق الفكرية المترتبة للغير.

طبعت بمطبعة حكومة الكويت



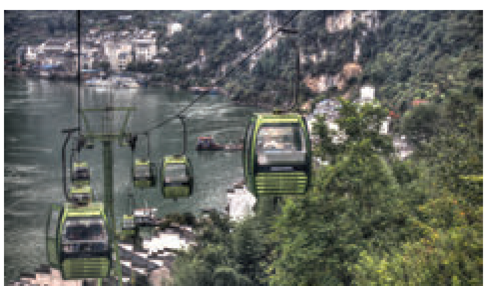
العدد 693 - ذو القعدة 1437 هـ
أغسطس (آب) 2016م

محتويات العدد

المفكرة الثقافية

طرائف

أبواب ثابتة



ص 36



ص 68



ص 146

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ■ داخل الكويت 8 د.ك ■ الوطن العربي 8 د.ك أو 30 دولارا.
■ باقي دول العالم 10د.ك أو مايعادلها بالدولار الأمريكي أو اليورو الأوربي:
■ ترسل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالعملات المذكورة باسم وزارة الإعلام على عنوان المجلة.

Subscription: All Countries $ 40 or The Equivalent

ثمن النسخة

الكويت 500 فلس، الأردن 500 فلس، البحرين 500 فلس، مصر 1.25 جنيه، السودان 500 جنيه، موريتانيا 120 أوقية، تونس دينار واحد، الجزائر 80 دينارا، السعودية 7 ريالات، اليمن 70 ريالا، قطر 7 ريالات، سلطنة عمان 500 بيسة، لبنان 2000 ليرة، سورية 30 ليرة، الإمارات 7 دراهم، المغرب 10 دراهم، ليبيا 500 درهم، العراق 50 سنتاً

Iran 4000 Riyal, Pakistan 75 Rupees, UK 2.5 Pound, Italy 2 € , France 2 € , Austria 2 € , Germany 2 € , USA 2$, Canada .4.25 CD


کاریکاتور
TV

عزيزي القارئ



تجديد الخطاب الديني وحدوده

يبدأ كثير من الناس في مختلف أصقاع الأرض صباحهم بسماع نشرة الأخبار، وتكاد لا تخلو من أنباء الاحتراب والقتل والتفجير والاعتداء على عرض أو مال، وكأن البشرية حقاً تعاني أزمة أخلاقية حادة، وأصبحت الضوابط الدينية والسياسية والقانونية تتهاوى تحت ضربات الإرهاب، والمصيبة هنا أن العالم العربي والإسلامي هو المتهم بالتحريض، ما يستدعي صحوة فكرية لإسقاط هذه التهمة.

يكتب رئيس التحرير عن غزو الكويت بعد ربع قرن على مرور هذه المحنة التي كانت فاتحة الآلام والعذابات، ومرارة قصص القهر الماثلة اليوم أمام أعيننا بنزيف الدم في أكثر من بقعة عربية، وأدى اختلاط الدين بالسياسة أو «الإسلاموية»، كما اصطلح الباحثون، إلى ارتفاع وتيرة المطالبة بتغيير وجهة تجديد الخطاب الديني، ليكون بيد المشرّع وولي الأمر وفي الحدود الإلهية «قطعية الدلالة والثبوت». وفي السياق نفسه، يكتب رئيس سلك القضاء الكويتي السابق فيصل المرشد، عن الاعتدال كمدماك راسخ في عقيدة الإسلام، ويصحح دلالات بعض المفاهيم كالجهاد والتكفير على ضوء النداء المتصاعد لتجديد الخطاب الديني، وفي الجوانب السياسية لهذا الموضوع الساخن، يستعيد عبدالله بشارة، الأمين العام لمجلس التعاون الأسبق، بعض الذكريات التي لها علاقة بهذه الأجواء. وهكذا ترى «العربي» نفسها في موقع الدفاع عن المحبة والتسامح والسلام، وتخوض معركتها الفكرية التنويرية لتحقيق ذلك.

ورصيد المجلة من الأقلام المشاركة في هذا العدد غني وثري، وبعد حفظ الألقاب نعد منهم: جابر عصفور، فاروق شوشة، عادل زيتون، نبيل سليمان،كريستين نصار، وجولة عريضة في دوحة الأدب والشعر، وفي مرابع الفلسفة والتاريخ، وفي مغاني الفنون والموسيقى، ووقفة سريعة في مخابر العلم التي قيل عنها إنها معابد المستقبل، وهذا غير الاهتمام بمواضيع «البيت العربي» التي ترعى الأسرة العربية وقضاياها، والعناية بتقديم شخصيات ودفعها من الظل إلى النور عبر محاورتها، والحرص على علو كعب الأبواب الثابتة الملونة بزخارف البهجة والطلاوة والطرائف والأقوال المأثورة، واستدراج الابتسامة إلى شفاهكم بوساطة الكاريكاتير.

يبقى أن نشير إلى أن «العربي» في هذا العدد تحتفي بـ «قصة مدينتين» عربيتين غير مدينتي تشارلز ديكنز في روايته الشهيرة، الأولى في استطلاع يدور حول مدينة نابلس العريقة المضمخة بالزعتر والغار والزيت والزيتون وتماهيها مع دمشق الفيحاء، وعناق مسجدها لكنيستها، وسجايا أهلها ورقة طباعهم التي تنتح من جماليات برقوق نيسان في تلالها وروابيها. والثانية مدينة عمّان في كتاب جديد يرصد أحياءها القديمة والجديدة، تاريخها وما مرّت به من تحولات عمرانية وديموغرافية، وبعض ملامح البيئة الاجتماعية لساكنيها، وبذلك يكون عدد «العربي» لهذا الشهر قد «كفّى ووفّى» ■



وتنهال ذكريات الأحزان...

د. عادل سالم العبدالجادر

في حديثنا لهذا الشهر، شهر أغسطس، نسترجع ذكريات الأحزان، وتفكك الصف العربي في أثناء الغزو الغاشم على الكويت، وتشتت الشعب الكويتي هنا وهناك... نسترجع الذكريات لتكون لنا مثلاً للصبر والصمود، والأمل والرجاء، والإيمان برحمة الله الذي أنزل السكينة على قلوب المظلومين... نسترجع الذكريات عبرة لذكرياتٍ من التفكك والشتات، وندعو الله أن يرزقنا الصبر والثبات.



الحروب لا تخلف سوى الآلام والذكريات الحزينة، فطوبى لمن استشهد وطوبى لمن شُرّد وطوبى لمن صبر



منذ أن ولّى ذاك الاحتلال المشؤوم وحُرقت آبار النفط، ظلت الغمامة السوداء في السماء تحجب ضوء النهار لتغدو أيامنا كلها ليلاً وظلاماً، ولكن:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي
ولا بدّ للقيد أن ينكسر

عاد الشعب الكويتي كما كان، يبني صروح المجد بأنفاس الأمل، وعادت الدولة وعاد الحبّ. تلك دعوة الأوطان، تطرد الأحزان وترسخ الإيمان والأمان، نُذّكر بها الأحباء في كل مكان، ونخصّ فيها سورية والعراق واليمن، ونقول لهم إنّ لكم إخوة لم ولن ينسوكم، وهم دائماً معكم، يشاركونكم آلامكم وأحزانكم، ﴿**فإنّ مع العسر يسرا، إنّ مع العسر يسرا**﴾ صدق الله العظيم.

إن الألم العظيم الذي يعانيه الجريح العربي ليس ألم الجرح، إنما هو ألم العذاب الذي تجرعه من أهله وناسه في الوطن والانتماء، ليصبح غريبا مشرداً...

وحيد من الخلان في كل بلدة
إذا عظم المطلوبُ قلّ المُساعدُ

وكم من ضحايا وثكالى وأيتام، تلك هي الحروب لا تخلف سوى الآلام والذكريات الحزينة، فطوبى لمن استشهد وطوبى لمن شُرّد وطوبى لمن صبر.

ربع قرن من الزمان مضى على غزو الكويت، واليوم، صيفنا لاهب وخريفنا عاصف وشتاؤنا حزين وربيعنا شؤم، أيُّ ربيع عربي هذا الذي تتقطع فيه أوصال الوطن العربي بسكاكين الإرهاب المذهبي والطائفي والديني؟! أيّ ربيع تذبل فيه الوجوه الناضرة وتنتشر فيه الوجوه الملثمة بأقنعة سواد الموت التي يروق لها أنين الجرحى وحشرجة القتلى وعويل الثكالى وصياح اليتامى وصراخ الآمنين؟! أيُّ ربيع هذا الذي يجوع فيه من كانت أرضه جنّة، ويظمأ فيه مَن جاور النهر؟! أيُّ ربيع هذا الملبد بسحب السواد من دخان البنادق والمدافع والحرائق... حرائق الموت التي أشعلت الأرض والعرض، ولوثت الماء والهواء، وغاب عن سمائها نور الحياة؟! أيُّ ربيع هذا الذي تنتشر فيه دبابير الرعب وتغيب عنه فراشات الرجاء، وتنثر على أرضه الأشواك بدلا من الزهور والورد؟!

في حديث طويل كنا قد أشرنا إليه من ضمن أحاديثنا الشهرية، أوردنا ضرورة تغيير الخطاب الديني، واليوم نؤكد وجوب اقتصاره على الوعظ والإرشاد الديني، بينما نحتاج في الخطاب السياسي للسياسيين، ونحتاج للاقتصاديين في الخطاب الاقتصادي، ولكل علماء الميادين العلمية الأخرى، كل حسب اختصاصه العلمي، بما لا يخالف ثوابت الدين، التي يأتي يقينها من كونها قطعية الدلالة وقطعية الرسوخ، دون شك أو ظنّ أو اختلاف بين الفقهاء، وحتى الاجتهادات الفقهية، التي نرى فيها رحمة واسعة على الناس، نراها مقصورة على العبادات فقط، أما المعاملات، فقوانين الدولة تكفل سَنَّها ووضعها بما يناسب أفراد المجتمع، بعيداً عن الإفراط والتفريط. ولابدّ أن يكون الخطاب الديني بعيداً عن اتهام الأفراد أو الجماعات بمعتقداتهم الدينية والفكرية والسياسية، فالمرء محاسب على اعتقاده من الله عز وجل فقط، فهو من آتاه عقلا ويعلم حدود تفكيره واستيعابه، وعلى مثل ذلك يحاسبه. أما حدود الله، التي هي قطعية الدلالة والثبوت، فلا يحكم فيها ولا ينفذها إلا ولي الأمر، أو من ينيبه لمثل هذا العمل، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبارة نراها ارتبطت شرطيا بحديث الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان». وما يجهله العامة، وسكت عنه رجال الدين، أنّ هذا الحديث إنما وُجِهَ لولي الأمر، وولي الأمر هو

المسؤول الأول عن الكيان الذي يجوز له الحكم فيه، ويأتي ذلك لمن يسمح له القانون بتطبيق العقوبة، فالأبُ هو ربُّ الأسرة، وهو المسؤول عنها، فإذا أنكر منكرا، حَقَّ له أن يغيره بفعل أو قول أو صمت بإنكار ذلك المنكر. ومثل ذلك ربُّ العمل، والوزير ضمن صلاحيات وزارته، وهكذا. أما سائر الناس، فلا يحق لهم إنكار المنكر بالفعل، وإنما بالقول، وهو إما التأنيب أو النصيحة، وإما إخبار ولي الأمر شفاهة أو كتابة بما أنكروه، ليتخذ ما يراه مناسباً بهذا الأمر. ولو عمل الناس على تغيير المنكر بأيديهم لما كانت الحاجة إلى القضاء أو الشرطة أو الحسبة (البلدية)، ولو أنيط مثل هذا الأمر إلى عامة الناس لحلت الفوضى في المجتمع والدولة.

إنّ تغيير الخطاب الديني لا بدّ أن يكون بيد المُشَرِّع، وليس على يد رجال الدين، من الذين صار لهم سلطة تشريعية، تزايدت عن طريق الفتاوى الشرعية، فالتشريع ليس فقهاً دينياً فقط، بل هو إلمام بالدساتير والقوانين الدولية والعالمية وحقوق الإنسان التي ما فتأت تتغير بتغير الزمان. ومعنى ذلك أننا لا نستطيع في ظلّ القوانين الدولية والعالمية أن نشتري أو نعتق اليوم عبيداً، حتى وإن كان مثل هذا العِتْقُ قد جاء بنص ديني، كحكم جزاء القتل الخطأ مثلا، فالقوانين الدولية تُجرّم بيع وشراء الرقيق، فصارت تلك سُنّة عالمية أولى بالاتباع. ولا نستطيع اليوم أن نرفع راية الجهاد من أجل الفتوحات الإسلامية، فالجهاد تغير هدفه ومفهومه إلى الدفاع عن الوطن والعرض والمال والشرف، وكل ذلك مقيد بقوانين اتفقت عليها الدول واتخذت بها عهداً، لتؤكد عدم الاعتداء وإقرار السلام العالمي. إن اللوائح والقوانين العالمية التي تبدّى صوغها على شكل معاهدات دولية تشرف عليها هيئة الأمم المتحدة قد غيَّرت العلل والمفاهيم التي بُني عليها مفهوم الجهاد فقهياً، ولا بدّ لنا أن نؤكد أنّ الفقه ليس سوى اجتهاد، والاجتهاد إما أن يكون إجماعاً أو قياساً أو استحساناً، ونستطيع تعريف الإجماع بأنّه: اتفاق مجتهدي الأمّة الإسلامية في زمن معيّن على حُكم شرعي في مسألة لم يرد بها نصّ في القرآن أو السنّة. قال ﷺ: «إنّ أمّتي لا تجتمع على ضلالة». ويشترط في الإجماع أن يأتي في ما لم يرد به نصّ شرعي، وأن يكون مبنياً على الشرع قياساً أو تفسيراً أو تعليلاً. أما معنى «القياس»، فهو قياس حادثة لم يرد فيها نصّ شرعي بحادثة أخرى مشابهة ورد فيها نصّ في القرآن أو السنة أو الإجماع، بشرط أن تشترك الحادثتان في علّة الحكم. وقد اتفق علماء الأمّة على أنّ القياس حجّة شرعية، وهو نوع من الاجتهاد الفردي. وفي رسالة القضاء لعمر بن الخطاب رضي الله عنه جملة تؤكد أنّ القياس كان متبعاً من قبل الصحابة رضي الله عنهم، وذلك من قوله:

«اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق في ما ترى».

أما الاستحسان فيأتي غالبا من القياس، وهو أن يقوم المجتهد بترجيح رأي بقياس خفيت علته عن قياس واضح العلة. كما تأتي «المصلحة المرسلة» ضمن إطار القياس أيضاً، والمصلحة المرسلة هي التي تقتضيها أمور الحياة ولم يرد فيها نصّ بالاعتبار أو الإلغاء. ويشترط في تلك المصلحة أن تجلب النفع أو تدفع الضرر، وأن تكون عامة وليست خاصة، وألا تعارض نصاً شرعياً.

بهذا نقول وقد تبين لنا أنّ الخطابات الدينية قد جعلت من أمتنا العربية ثيوقراطية الهوى في عصر تحقق فيه الإجماع وتضافرت فيه الدول على نصرة الديمقراطية، لقد ولى زمن الثيوقراطية، وهي حُكم رجال الدين، بانقضاء سيطرة الكنيسة في العصور الوسطى على الدولة والشعب، فهل نطلب تقدماً بممارسة الرجعية؟! ■



التشريع ليس فقهاً دينياً فقط، بل هو إلمام بالدساتير والقوانين الدولية والعالمية وحقوق الإنسان التي ما فتأت تتغير بتغير الزمان



خليل مطران
فاتحة الرومانسية وصوت التجديد

فاروق شوشة

هو ثالث ثلاثة من أبرز شعراء جيله، أولهم شوقي وثانيهم حافظ. لكن شهرتهما الطاغية جنت عليه، فلم يلْقَ مثل حظهما، ولم يتح لشعره من الذيوع بعض ما أتيح لهما، وانسكبت شخصيته الإنسانية - المتسمة بالحياء والخجل وعدم المزاحمة - على شعره، الذي علت فيه نبرة الهمس، في مقابل الجهارة عند رفيقيه. وهكذا، أصبح شاعر القطرين، خليل مطران، مكتفيًا بأن يُقرن مع الشاعرين الكبيرين، حتى لو جاء بعدهما في الترتيب، وذيوع الصيت، والدوران على الألسنة والأقلام.



أما الذين أتيح لهم أن يتأملوا شعر الثلاثة، فيدركون أن مطران كان أكثرهم نزوعًا إلى التجديد، واغترافًا من الآداب العالمية والشعر العالمي، ورغبة في أن تكون لغته بعيدة عن التقليد والخضوع للموروث القديم، منفردًا بعدد من التجارب والحالات الشعرية النزّاعة إلى التأمل، ومعانقة الفكر، واستقطار معنى الحياة والوجود، بالرغم من مجاراته لهم في شعر المراثي والمناسبات والإخوانيات والوطنيات والغزل والنسيب.

أما الإشارات والعلامات التي تكشف عن ميله إلى التجديد لغة وشعرًا وفكرًا، فتتمثل في اهتمامه بالمسرح والتمثيل وتكوين بعض الفرق التمثيلية، وترجمة عديد من المسرحيات عن الفرنسية - من أجلها - مثل «هرناني» لفيكتور هوجو، و«بوليو كيت» و«السيِّد» لكورني، و«مكبث» و«هاملت» و«عطيل» و«تاجر البندقية» و«الملك لير» و«العاصفة» لشكسبير، الأمر الذي طغى على وجوده الشعري بفضل ذيوع شهرته المسرحية، لكن غوصه في عالم الدراما المسرحية مترجمًا منح شعره سمات درامية تمثلت في المواقف والحوارات التي امتلأت بها قصائده.

كما تتمثل هذه النزعة التجديدية لديه في توليه رئاسة جماعة أبولّو بعد رحيل أحمد شوقي، وكان يرى في شعر هذه الجماعة، الرومانسية الطابع، نزعة تجديدية ثورية وخروجًا على المألوف، ورغبة في إبداع تيار شعري يغاير التقليدية السائدة، والمباشرة المتحكمة، وهو الموقف الذي جعله مؤيدًا لها ومناصرًا لإبداعها.

وعندما رحل مطران - اللبناني الأصل المصري الإقامة - عن سبعة وسبعين عامًا (1872 - 1949)، كان قد أصدر ديوانه في أجزائه الأربعة، التي تمثّل فيها اهتمامه التجديدي الواضح بالقصة الشعرية المستمدة من التاريخ القديم، وما أطلق على بعضه اسم الملاحم



مثل «بزرجمهر» و«شيخ أثينة» و«نيرون». كما يتجلى في ديوانه تطبيقه لآرائه في مفهوم الشعر وغاياته وأساليبه، وبخاصة في معنى الصورة الشعرية والوحدة الفنية للقصيدة، وهو ما أكده الناقد الراحل علي عشري زايد في كتابته عن مطران ضمن قاموس الأدب العربي الحديث.

يقول مطران، كاشفًا عن نزعته التحررية ومقاومته لتسلط المحتل الغاصب:

شرّدوا أخيارها بحرًا وَبرّا
واقتلوا أحرارها حُرًا فحُرّا
إنما الصالح يبقى صالحًا
آخر الدهر ويبقى الشرُ شرّا
كسِّروا الأقلام هل تكسيرُها
يمنع الأيديَ أن تنقش صخرا؟

قطِّعوا الأيـدي هـل تقطيعُها
يمنـعُ الأعـينَ أن تنظـر شـزْرا؟
أخمـدوا الأنـفـاس، هـذا جُهدكم
وبـه منـجاتُـنـا منـكـم فشـكـرا!
ويعتب مطران على اللغة العربية وأهلها، الذين آثروا عليها في الكلام والكتابة لغات أخرى، فشاعت العجمة على الألسنة والأقلام، وتراجعت اللغة المبينة المشرقة، التي تستجير بأمثال عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، فيقول:
سـمـعـتُ بـأذْن قلبي صوت عتْب
لـه رقـراقُ دمـعٍ مُسـتـهـلٍّ
تـقـول لأهلـها الفصحى: «أعـدلٌ
بـربِّكـمـو اغـترابي بـين أهـلي؟
ألـستُ أنـا الـتي بدمـي وروحي
غـذتْ منـهـم وأنْمـت كـلَّ طفـلِ؟
أنـا العـربيـة المشهـودُ فضلي
أأغـدو اليـوم، والمغـمـورُ فضْلي؟
إذا مـا القـوم باللغة استخفّوا
فضاعت، ما مصيرُ القوم؟ قل لي
ومـا دعـوى اتحـاد في بلاد
ومـا دعـوى ذمـارٍ مُستـقـلٍّ؟
فسـاد القـول فيـه دليـل عجـز
فهـل معـه يكـونُ صـلاحُ فِعْـلِ؟
ويـا فتـيانـه إن أخطـأتـني
مـبـرَّتـكـم، فـإنَّ الـثُّكْـلَ ثكلي
يحاربـني الألـى جحدوا جميلي
ولـم تـردعـهـم حُـرمـات أصلي
وفـي القـرآن إعـجـازٌ تجلَّـتْ
حـلايَ بـنـوره أسْـنـى تجَـلٍّ
ولـلـعـلـمـاء والأدبـاء فيـمـا
نـأتْ غـايـاتـهُ مَـهـدْتُ سُبْلي
إذا مـا كـان فـي كـلـمي صعابٌ
فـلا تـأخـذ كـثـيـري بـالأقـلِّ
وهـل لـغـة قـديمًـا أو حـديـثًـا
تُـعـدُ بـوفـرة الحسـنـات مثلي؟
ثـم يقول مطران بعد أن تـرك المجال للفصحى كي تتحدث بلسان حالها في ما مضى من الأبيات:
فـيـا أمَّ الـلـغـات عـداك منا
عـقـوقُ مـسـاءةٍ، وعـقـوقُ جـهْـلِ
لـكِ الـعُـودُ الحـمـيـدُ، فـأنت شمسٌ
ولـم يـحـجـبْ شـعـاعـكِ غـيـرُ ظلٍّ
دعـوْتِ فـهـبَّ مـن شتى النواحي
مـيـامـينٌ أولـو حـزمٍ ونُـبْـلِ
بـرأيٍ فـيـكِ يـكـفـلُ أن تُـردِّي
مـكـرّمـةً إلـى أسـمـى مَـحـلٍّ
يُـنـوِّرُ شـعـرهـم فـي كـلِّ وادٍ
ويُـزهـر نـثـرهـم فـي كـلِّ حـقـلِ
و«طـه» فـي طـلـيـعـة مـن أجـابـوا
يُـهـيـئُ نـهـضـةً فـي المُـسـتـهـلِّ
بمـوفـوريّـه: مـن أدبٍ وفـنٍّ
ومـذخـوريْـه: مـن عـقْـلٍ ونـقْـلِ
يفيض كما يفيض النيل خصْبًا
ويُحيي الحـرْثَ في حَـزْنٍ وسهْلِ
ويـبـعـثُ في شـبـاب العـصـر روحًـا
هـو الـروح الـذي يـبـني ويُعـلي
إذا مـا حـاول الـفـرسـانُ جَـلَّـى
وخَـلَّـف شُـقَّـةً دون المُـصـلِّي
فـكـيـف بـه إذا مـا شـنَّ حـرْبًـا
عـلى بـدع الضّلـول أو المُضـلِّ؟
وفي مناسبة ثانية، يلتفت شاعر القطرين خليل مطران إلى قضية تقدم اللغة العربية والعمل على تجديدها، وأن العيب – كل العيوب – هو في جهود سدنتها الذين لم يفسحوا لها في ميادين التطور والوفاء باحتياجات العصر، فيقول:
مـاذا يـريـدُ مـن الحقيقة مُسقطُ
تـكـلـيـفـهـا عـن نـفـسـه بـتـوهّـمِ؟
مـاذا يـريـد مـن المعـالـى نـائـمٌ
والـنـجـم مـزدهـرٌ لـغـيـر الـنـوّمِ؟
لـنـعـش مـعـاش زمـانـنـا، ولـنـنتهز
فُـرصَ الـنـجـاح نـفُـزْ بـه أو نسلمِ
لـن تـرجـع العـربيـة الفصحى إلى
مـا كـان مـنـهـا فـي الـزمـان الأقـدم
مـا لـم يـعـد ذاك الـزمـانُ وأهـلـه
والـعـادُ والأخـلاقُ حـتّـى جُـرهـمِ
لـلـجـاهـلـيّ لـسـانـهُ، ومـن الـذي
ينفي من الفصحى لسان مُخضرَمِ؟
إنّ الـتـجـدد لـلـسـان حـيـاتـه
ومـن الـذي يُـحـيـيـه غـيـرُ المُـقْـدَمِ؟

في عصرنا للضاد فتحٌ باهرٌ
زيدت به فخرًا، فهل من مأثم؟
من فرّق الأخويْن يستبقان من
طرُق لرفعتها، أليس بمُجرم؟

وفي واحدة من خواطره الشعرية المحلّقة التي يتأمل فيها الشاعر معاناته في الحياة والوجود مقارنًا بينه وبين الطائر الحرّ الطليق، المغرِّد بلغته التي يجيدها، وبيانٍ يجيده ليس كبيان البشر، فلا قيود عليه في التعبير، ولا هموم تسكن صدره كما يحدث للشاعر، يقول خليل مطران:

يا أيها الطائر المغنّي
بلا نثير ولا نظيم
من لي بشدو طليقٍ
كشدوك المطرب الرّخيم
فأنت تشدو بلا بيان
وما تشاء المنى تجيدُ
ونحن باللفظ والمعالي
نعجز عن بعض ما نريدُ
أعرْ جناحيْك يا رفيق
أطرْ وأمرحْ خليّ بالْ
من ساكب النور لي رحيق
وفُسْحة الجوّ لي مجالْ
أُشرقْ وأُغربْ بلا مرام
فلا مكانٌ ولا زمان
ولا هيامٌ إلا هيامي
بين السموات والجنان

***

طرْ بي وأنت الأخ الرفيق
إلى مقرّ من الأنامْ
لا عذْر فيه ولا عقوق
ولا رياء ولا خصامْ
ما أجمل الكونَ عن قصيٍّ
وأبدعَ الأرض من علِ
لهاربٍ فاز بالرقيٍّ
تنحطُّ عنه ويعتلي
أعجبْ بمرأى هذي المباني
عَفَتْ كأنْ لم تكن ديارْ
وكيف صارت خُضْرُ الجنانِ
من ازدهارٍ إلى بوارْ؟

ما أبهج النور في عيوني
ما أطيب النفس في الخلاء
شفانيَ اللهُ من جُنوني
والبعد عن خلْقه شقاءْ

ومن القصائد البديعة، الناطقة بتجديده الشعري الجميل، ولغته المنسابة الناعمة، وصوره الناطقة عطرًا ولونًا وظلالاً، قصيدته «من غريب إلى عصفورة مغتربة»، يقول في تقديمها: «نُظمت في جنيف، بقرب تمثال جان جاك روسو، وقد رأى الشاعر على شجرة طائرًا يشبه أن يكون مصريًا. وهي خطرة فكر للناظم ألفَ أن يرسل مثلها في موعد من كل عام، تحّية إلى فقيد عزيز في عالم الغيب. وقد جعل مدارها في هذه القصيدة على عصفورة اشتبهت عليه بين أن تكون مجلوبة من مصر للاتجار، أو قاطعة من قواطع الأطيار». ثم يقول:

يا من شكتْ ألمي معي
طيّبْته في مسمعي
شكواك ألطف بلسم
لجراحة المتوجِّعِ
ما أَعْلقَ الشدو الرخيمَ
بكلّ قلبٍ مُولعِ
غنِّي أهازيج النّوى
وعلى نُواحي وقِّعي
بنت «الكنانة» ما رمى
بك بين هذي الأربُعِ؟
فيم اغتربْت وكنت في
ذاك الأمان الأمنعِ؟
أحُمْلتِ مَحْملَ سلعة
جلبًا بغيْر تطوّعِ؟
ففررْتِ من قفص الكفيـ
ـل إلى الفضاءِ الأوسعِ
وبودّك العوْدُ القريـ
ـب لسرْبك المتمنّعِ
في «مصر» مَصْرخة اللّهيـ
ـف، وملجأ المتفزّعِ
«مصرِ» السماءِ الصحو «مصْرِ» الـ
ـدفْءِ «مصرِ» المَشْبعِ
«مصر» التي ما ريع سا
كنُها بِريح زَعْزعِ

حيثُ المراعي والنّدى
للمرتوي والمُرْتعي
حيث السّواقي الحانيا
تُ على الطيور الرُّضَّعِ
حيث الحرارة، ما تُوا
لِ ربيبها يترعْرعِ
أم أنتِ من تلك الجوا
لي في الفصول الأربعِ
لا تعرفين من الزّمانِ
سوى المكانِ المُمرعِ
تثبين من مُتربّعٍ
أبدًا إلى مُتربّعِ
بهدايةٍ صحّت على
طلبِ الأحبِّ الأنفعِ
وثقوبِ فكرٍ في التوجُّه
واختيارِ المَنْجعِ
وغَناءِ رأيٍ عن دلا
لةٍ إبرةٍ أو مَهْيعِ
وقناعةٍ من قسمةٍ
لكِ عند خيرِ مُوزِّعِ
في السِّرْبِ أنّى سار لا
تخشيْنَ سوءَ الموقعِ

ثم يقول خليل مطران:

باليُمْنِ يا غرّيدة الوا
دي إلى الوادي ارجِعي
إني لأسمعُ في غنا
ئكِ رَقْرقاتِ الأدمعِ
ويروعني شجنٌ به
كشجًى بحلْقِ مُودّعِ
تلك البراعة ما استتمّـ
ـت في جمالٍ أبرعِ

***

سيري وولّي صدرك الـ
ـمشتاقَ شَطْرَ المرْبعِ
حتى إذا ما جئته
وشرعْتِ أعذبَ مَشْرعِ
وشدوْتِ ما شاء السُّرو
رُ على ارتقاصِ الأفرُعِ
عوجي ببستانٍ هُنا
لكِ في العراءِ مُضيّعِ
صفصافُه مُتناوحٌ
والنّوْرُ بادي المدمعِ
لي في ثراهُ دفينةٌ
كالكنزِ في المستودعِ
تُخفي الأزاهرُ قَبْرَهَا
عن أعينِ المتطلعِ
كانت مثالًا للمحا
سنِ، في مثالٍ أروعِ
فتحوّلت لُطفًا إلى
طَيْفٍ أرقّ وأبدعِ
طيفٍ يشفُّ به البلى
عن رفعةٍ وتمنّعِ
قولي له إن جئته
يا أُنْسَ هذا البلقعِ
أتحسُّ في هذا الثرى
نبَضانَ قلبٍ موجعِ
هذا حنينٌ من فؤا
دِ مُحبِّكَ المتفجّعِ
عَدتِ العوادي جسْمَهُ
عن قربِ هذا المضْجعِ
فمضى بأحزنِ ما يكو
نُ أخو الأسى وبأجزعِ

والقصيدة طويلة، وقد اجتزأت منها بعض مقاطعها لأكشف عن هذا النّفَس الشعري الذي يجعل من مطران رائدًا من رواد الشعر الرومانسي في مصر، والعالم العربي، قبل أن يتمثل في هتفات شعراء جماعة أبولو، وما كان يصل إلى الشرق - بين الحين والحين - من أنغام شعراء المهجر الأمريكي: الشماليّ والجنوبيّ.

هذا النّفس الرومانسيّ، وهذه الوجدانية العاطفية -في لغة بعض النقاد- جعلا من شعر مطران خزانًا جعله زاخرًا بوقفات تأملية لم يسبقه إليها أحد من شعراء العصر الحديث، من هنا كانت عناوين قصائده: الزهر، الوردتان، النرجسة، الحمامتان، الوردة والزنبقة، المساء، الزنبقة، الشاعر والطائر، زهرة ساهرتني، نفحة الزهر، وردة ماتت، من غريب إلى عصفورة مغتربة، وردة بيضاء، الصبابة السكرى، حكاية وردة، النوارة أو زهرة المرغريت، في الغابة، غصن من زهر المشمش، بنفسجة في عروة، البنفسجة بمنزلة إشارات ونجوم لوامع تؤكد

هذا الطابع الشعري لمطران، وهذه الحياة الشعرية الداخلية الغنية، بينه وبين ذاته، أو بينه وبين وجدانه، بعيدًا عن صخب الحياة، واصطراع حراك المجتمع، وتقلبات السياسة وفساد النفوس. وهو ما لاحظه صانع مختاراته -الناقد والمترجم الدكتور محمد عناني- حين استوقفته هذه النماذج من شعر مطران قبل غيرها لأنها الألصق بطبيعته والأدلُّ على شاعريته، وعلى طريقه المتفرد في الشعر، وعلى امتلاء وجدانه بما ترسّب فيه من قراءاته في الآداب العالمية وبخاصة في الشعر الفرنسي الذي عشقه وغاص فيه إبّان إقامته في فرنسا زمن الشباب وطلب العلم. وفي ختام هذه الرحلة الثرية مع حديقة مطران الشعرية، يستوقفنا الشاعر وهو يوقّع على وتره الأخير لحن الرضا وسكينة النفس، ويقول فيما يشبه قصيدة الوداع:

ماذا يريد الشعر مني؟ أخْنى عليه عُلوّ سنّي
هل كان ما ذهبت به الأيّام من أدبي وفنّي؟
أحسنتُ ظني، والليالي لم توافق حُسْن ظنّي
ورجعْتُ من سوق عرضْتُ بضاعتي فيها بِغبْنِ
أفكان ذلك ذنْبَها أم كان ذنبي، لا تَسَلْني
خَمدتْ بيَ النارُ التي رفعتْ بعينِ العصْرِ شأني
هي شعلةٌ كانت تُثيرُ قريحتي وتنيرُ ذهني
أيام لي طربٌ وقلبي موقعُ السهمِ المُرِنِّ
لا تندُبنِّي للعَظائم بعدها، لا تندُبنِّي
زمني تولّى، والأُلى عمروهُ من صحبي، فدعْني
ولّى الربيعُ وجفّ عودي، وانقضى عهدُ التغنّي
وعَدِمْتُ لذّاتِ الرؤى وعَدِمْتُ لذّاتِ التمنّي
إني ختمتُ العَيْشَ في وادي المخيلةِ، أو كأنّي
فإذا بَدَتْ لك همّةٌ من دائبٍ يشقى ويبني
فعذيرُه خوفُ التشبُّه، بالرّحى من غير طِحْنِ
ويكدُّ كدّ النّحْلِ وهي لغيرها تسعى وتجني
أرضى بأن تُقْضى مُنًى للآخرين، وإن عدتْني
أُخلي مكانيَ للذي يسمو إليه بغير حُزْنِ
ولقد أَهشُّ لمن يطاولني، وإن يك تحتَ ضِبْني
إنّ الحقيقةَ حين نبْلُغها، لَتكفينا وتُغني
فيها الجلالُ بكلِّ معناه، وفيها كلُّ حُسْنِ
تتشابهُ التّركات في أنّا نُعدُّ لها ونَقْني
فإذا تولّيْنا، فهل أسماؤنا عنّا ستُغْني؟
إن نبْقَ والأرواحُ قد ذَهَبتْ، فما الأسماءُ تغْني؟
لو لم يكن في الذكر للأعقاب نفعٌ لم يشُقْني
أما الجزاءُ فإنّيَ اسْتَوْفيتُ منه فوق وزني
في الحاضر استسلفتُ ما سيقوله التّالون عني!

وها هو ذا شاعر القطرين خليل مطران، يقول المنصفون له إنه رائد التجديد، الذي فتح أبوابًا، وأطلق أشرعةً، وعبّد دروبًا، ووضع في طريق الإبداع الشعري -في عصرنا الحديث- صُوًى وعلامات ناطقة بشاعريته المتفردة، الهامسة والحييّة، والبعيدة عن الجهارة والمباشرة، والمُغتنية بذاتها من غير حاجة إلى صخب أو ضجيج، يصنعه مخلصون أو متابعون.

وسيبقى ثالث الشعراء الثلاثة: شوقي وحافظ ومطران، في ذاكرة الشعر العربي الحديث ودورانه على الألسنة والأقلام وترًا لا يماثل غيره من الأوتار، ولا يماثلُه غيرهُ مهما التَفَتَ إليه واستدار ■

ذكريات

د. جابر عصفور

توفي جمال عبدالناصر في الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1970. وقد عرفت هذا الخبر في بيتي الصغير في شارع النخيل بالمهندسين، وكانت المعرفة تدريجية، إذ فجأة انقطع إرسال التلفزيون وبدأ يذيع القرآن الكريم على امتداد ساعات، وفي النهاية شاهدنا أنور السادات على شاشة التلفزيون يعلن وفاة الرئيس جمال عبدالناصر، مؤكدا أن مصر قد فقدت رجلاً من أغلى الرجال وأشجع الرجال وأخلص الرجال. وكان الإعلان نفسياً صادقاً للرجل الذي وصفته أغنية عبدالحليم حافظ بأنه حبيب الملايين التي كانت تحمل سيارته بالفعل، ويهتف باسمه الملايين على امتداد العالم العربي.

ما أذكره أنه قد توفي بعد أن ودع أمير الكويت، ورغم أنه شعر بالإرهاق الشديد فإنه أصر على توصيل أمير الكويت الشيخ صباح السالم الذي كان عبدالناصر يكن له محبة خاصة بسبب مواقفه الداعمة لمصر، وكان الوداع بعد انتهاء مؤتمر القمة الذي دعا إليه عبدالناصر، وانعقد في القاهرة، وذلك لمواجهة محاولة تدمير منظمة التحرير الفلسطينية والأحداث الدموية التي جرت في الأردن، التي كان منها محاولة اغتيال ياسر عرفات، ولكن تدخل عبدالناصر قد أنقذ ياسر عرفات في اللحظات الأخيرة، وعاد إلى القاهرة متخفياً لكي يحضر مؤتمر القمة في مواجهة الملك حسين، وانتهت المحنة الفلسطينية التي اقترنت بما أصبح اسمه «أحداث أيلول الدامي». وبعد أن قام عبدالناصر بتوصيل أخيه حاكم الكويت، عاد إلى منزله مستسلما إلى التعب ومسلماً نفسه إلى ملاك الموت الذي أراحه من كل المصاعب والكوارث والإحباطات التي ظل يقاومها منذ هزيمة الخامس من يونيو التي تركت أثرا عميقاً وسيئاً في نفسه وصحته، وأدت إلى تفاقم مرض السكري الذي كان مصاباً به وضغط الدم، فضلا عن أمراض القلب الذي كان لابد أن يضعف في مواجهة الأحداث الجسام التي لم يتوقف عبدالناصر عن مقاومتها بشجاعة وبسالة إلى أن سقط على أرض التحدي وفي آخر معاركه التي كانت من أجل أمة عربية واحدة. ولكن سرعان ما تفرق شمل هذه الأمة العربية، وتعددت انقساماتها وانشقاقاتها إلى أن وصلت إلى ما وصلنا إليه.

والحق الذي لا مراء فيه أننا لم نر طوال عهد عبدالناصر أي شكل من أشكال الحكم الديني أو حتى أي صوت عالٍ من أصوات التعصب الديني أو حتى الفتن الطائفيّة، فقد عشنا في مصر ناجين بفضله من محاولات بعض الذين أرادوا أن يقنعوه في بداية حكمه بتحجيب النساء، ولكنه رفض أن





المغفور له الشيخ عبدالله السالم الصباح



الزعيم الراحل جمال عبدالناصر

يأمر امرأة مصرية بالتحجب، وظلت المرأة المصرية طــوال عهــده جديرة بــأن تكون وريثة ثــورة 1919 التــي دعت إلى تحرير حرية الوطــن وحرية أفراده والمســاواة المطلقة بينهم، كما نص على ذلك دستور 1923 الذي كتب بعد ســنوات قليلة من ثورة 1919. وكان الدســتور بمواده المتقدمة مرآة ناصعة لأفكار ثــورة 1919 وما أحدثته في العقول والأفئدة. وورثت الثــورة المصرية التي قام بهــا الضباط الأحرار في يوليو 1952 ميراث ثورة 1919، وبالتالي أفكار تحرير المــرأة، وهــو الأمر الــذي أدى إلى أن تكــون المرأة المصرية نائبة في البرلمان المصري سنة 1957. وشهد البرلمان المصري للمــرة الأولى نائبات مدافعات عن حقوق المرأة وإكمال الأشكال القانونية والاجتماعية للمســاواة بينها وبين الرجل، كما شــهدت الحكومة للمــرة الأولى تعيين الدكتــورة حكمت أبو زيد وزيرة أولى للشــؤون الاجتماعية في 25 ســبتمبر 1962، وكان ذلــك إيذانا بوصول المرأة إلــى أعلى درجات الســلطة التنفيذية، جنبا إلى جنب الرجل بلا فارق. وأذكر أنني دخلت جامعة القاهرة في ســبتمبر عام 1961 للمرة الأولى، قادمــاً من مدينتي الصغيرة - بالقيــاس إلى القاهرة- المحلة الكبرى، ولم أر طالبة ترتدي الحجاب أو النقاب، فكلهن كن سافرات، وفي قسم اللغة العربية الذي اخترت الدراسة فيه، متابعاً خطى طه حســين، كانت رئيســة القسم امرأة، هي أستاذتي الدكتورة سهير القلماوي، كما كانت تدرس لنا أستاذتي الدكتورة نبيلة إبراهيم، وكانتا سافرتين. وفي كافتيريا كلية الآداب قابلت عشــرات الطالبات من كلية الآداب والكليات الأخرى ســافرات الوجوه أيضاً. وأقول الأمر نفســه عــن الطالبات الجادات اللائي كنت أقابلهن في قاعات مكتبة جامعة القاهرة وكن ينافســننا على التفوق، وبعضهن كان ينجح في ذلك بالتأكيــد، ولم يكن الأمر يقتصــر على مكتبة جامعة القاهرة العامة فحســب، وإنما كان يمتد إلى غيرها من المكتبات، ابتداء من مكتبة دار الكتب في باب الخلق أو فروعها المتعددة إلى آخر المكتبات التي كان منها مكتبة الجيزة التي كنت أفيد منها. ومضت سنواتي الدراســية التي انتهت سنة 1965 بتخرجي في الجامعة إلى أن أصبحت معيداً فيها ثم مدرســاً مساعداً، وما كنت أراه في زميلاتي أيام الدراسة هو عينة لما أصبحت أراه فــي طالباتي، بعد أن تحولت إلى معيد، وكانت أستاذتي المرحومة سهير القلماوي تعاملني بوصفي ابناً لها وتدفعني إلى تجارب صعبة لكــي تقضي على الخجل القــروي الذي لم يكن قد فارقنــي بعد، فدفعت بي إلى التدريس في أقســام اللغة الفرنسية ثم اللغة الإنجليزية لكي أتعرف على الســلوك الأكثر تحرراً من طالبات هذين القسمين بالقياس إلى سلوك طالبات قسم اللغة العربية الذي كان محافظاً بالقياس إلى طالبات هذين القسمين.

وكانت الجامعة في تلك السنوات من الستينيات كرنفــالاً حراً مفتوحــاً على كل التيــارات الفكرية

العالمية، ابتداء من الوجودية وليس انتهاء بالماركسية. وما كان أسهل الحصول على الكتب التي كانت تضعنا في دوامة هذه الاتجاهات المتقاربة والمتضادة والمتصارعة التي كان بعضها يصيب أدمغتنا بالدوار ويجعلنا نعيد النظر في كل معارفنا التي كانت لدينا من قبل، وأذكر جيدا أنني ظللت أصلي لأيام عديدة ولا أتوقف عن البكاء مستغفراً الله سبحانه وتعالى لأني استمعت إلى زميل لي يردد مقولة نيتشه الفيلسوف الألماني الذي أعلن في جرأة لم أعهدها من قبل بأن الإله قد مات، وأننا نعيش في عالم بلا آلهة، حيث لا تبقى إلا الإرادة الحرة للإنسان. كانت هذه الأفكار تدير رأسي وكنت معلقاً بها ونافراً منها في الوقت نفسه، لكن جوعي المعرفي كان يدفعني إلى قراءة كل شيء والتعرف على كل شيء متاح ومباح في مكتبات القاهرة التي كانت تبدأ بمكتبات الأزهر في الحسين وأزقة الأزهر ولا تنتهي عند مكتبة الشرق التي كانت ملك الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت وتتيح لنا الأدب الروسي والكتب الماركسية بأرخص الأسعار. ولا أظن أن مصر قد شهدت ازدهاراً ثقافياً كالذي شهدته في الستينيات الناصرية.

صحيح أنني كنت أسمع عن السجون الناصرية وعن عبدالناصر الذي زج بالشيوعيين والإخوان المسلمين معاً في سجونه، كما كانت تبلغني أطراف عن أخبار التعذيب الوحشي الذي كان يلاقيه المعتقلون اليساريون واليمينيون على السواء. ولكني أشهد أنني لم أعرف في ذلك الوقت أحداً من هؤلاء المعتقلين، ربما لأنني كنت مشغولاً بطلب العلم ومحاولة التفوق على أقراني من المصريين وأبناء الدول العربية، فلم تكن جامعة القاهرة جامعة مفتوحة للمصريين فحسب، وإنما كانت جامعة مفتوحة لكل أبناء الدول العربية من المحيط إلى الخليج، ولذلك عرفنا زملاء مصريين وفلسطينيين وخليجيين وسوريين ومغاربة وتوانسة في قسم اللغة العربية، فقس على ذلك بقية الأقسام والكليات. فقد



د. سهير القلماوي

كانت جامعة القاهرة بحق جامعة لكل الطلاب العرب، حين لم تكن هناك جامعة أخرى في الأقطار العربية. فظل الأمر كذلك إلى نهاية الستينيات ولم يكن ينافس جامعة القاهرة سوى الجامعة الأمريكية في بيروت التي كانت تستقطب بدورها أعداداً كبيرة من الطلاب العرب وتتيح لهم من حرية النشاط السياسي ما لم يكن متاحاً بالقدر نفسه في جامعة القاهرة، ولم أكن أعرف ذلك في حينه. ومرت سنوات الجامعة وتخرجت، وبدأت أختلط بالحياة الثقافية العامة وأعرف من أسرار الديكتاتورية الناصرية ما كنت أجهله وأنا طالب، وعرفت عن اعتقالات الشيوعيين المصريين التي امتدت من سنة 1959 إلى 1964.

ومضت بي الحياة في القاهرة بعد أن سجلت لدرجة الماجستير مع أستاذتي سهير القلماوي عن «الصورة الفنية عند شعراء الإحياء في مصر»، وأخذني البحث في هذه الرسالة عن الاندماج الكامل في الحياة الثقافية. فقد كنت مستغرقاً في عملي تماماً، وفي قراءة كل ما يتصل بعصر الإحياء في الشعر الذي كان يبدأ من بداية عصر النهضة في منتصف القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. وبسبب هذا الاندماج والتفرغ للعلم لم تكن لي صلة حميمة بالحياة الثقافية ومثقفيها وشعرائها، وأذكر أنني قد اخترت موضوع الصورة الفنية لأنني كنت أريد أن أدرس الجوانب الفنية في الشعر على نحو خاص، ذلك لأني كنت أشعر أن الدرس الأدبي في ذلك الوقت لا يركز على الجوانب الفنية في الشعر الذي اخترته للدرس الأكاديمي، فقررت التركيز على الجوانب الفنية، وكانت البداية أن اخترت دراسة الموسيقى الشعرية، ولكني اكتشفت بفضل أستاذتي سهير القلماوي أن الدراسة الجادة لهذا الموضوع تقتضي دراسة الموسيقى دراسة متعمقة، فضلاً عن دراسة علم الأصوات اللغوي، فطلبت مني أستاذتي أن أذهب إلى مقابلة الدكتورة سمحة الخولي في معهد الموسيقى العربية أو

الكونسرفتوار، وهو الأمر الذي جعلني أخاف من الدخول في هذا الموضوع الصعب الذي قد يحتاج إلى سنوات طويلة من الدرس، فأخذت موضوع الصورة الفنية عند شعراء الإحياء بوصفهم المؤسسين الأوائل لحركة الشعر العربي الحديث كله. وآثرت أن أغوص في دواوين البارودي وشوقي وحافظ والجارم وأحمد نسيم في مصر، والرصافي والزهاوي في العراق، والأخطل الصغير في الشام، وغيرهم من شعراء هذا العصر.

والمؤكد أنني كنت غارقاً في اتباع أفكار أستاذي عبدالعزيز الأهواني التي أصلها في كتابه عن ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار. وخلاصة هذه الأفكار أننا لا يمكن أن ندرس شعر العصور المتأخرة التي تمضي في خطى الاتّباع أكثر من خطى الابتكار إلا بعد أن ندرس علاقاتهم بالشعراء القدامى الذين سبقوهم. فهؤلاء الشعراء المتأخرون كانوا مقلدين ومتّبعين أكثر منهم مبتكرين. ولذلك لا يمكن لمن يريد دراسة شعرهم إلا أن يقارنه بالشعراء السابقين من القدامى في كل مجال من مجالات الشعر أو أغراضه، وقد تعمقت في نفسي هذه الأفكار وزادها رسوخاً أفكار الأساتذة الكبار أمثال العقاد وطه حسين وإبراهيم المازني، الذين ذهبوا إلى أن شعر المدرسة الإحيائية شعر تقليدي بحت، ولذلك لا يمكن دراسته - كما يقول أستاذي عبدالعزيز الأهواني - إلا بالعودة إلى الأصول التي أخذ عنها، والتي يدخل في مباراة معها، ولذلك قضيت أربع سنوات في أطروحة الماجستير أبحث في شعر الإحيائيين عن علاقته بشعر القدماء، متناسياً أن هذا الشعر لم يكن اتباعاً فحسب، وإنما كان ابتداعاً في الوقت نفسه، وانتهيت من رسالة الماجستير وجاءت مناقشتها في شهر يوليو سنة 1969. وأذكر أن لجنة المناقشة كانت تتكون من أستاذتي الدكتورة سهير القلماوي بوصفها مشرفاً، وأستاذي الدكتور عبدالحميد يونس - رحمه الله


عبدالعزيز الأهواني

- بوصفه مناقشاً، وأستاذي شكري عياد بوصفه مناقشاً ثانياً، وأذكر أن شكري عياد قد اتهمني بالدوجماطية، وأنني بنيت بحثي على تصور مسبق وأنني مضيت في البحث لا لكي أكتشف الشعر الإحيائي في حياد وموضوعية، وإنما لكي أثبت صحة هذا التصور فحسب، فلم أرَ من شعر الإحيائيين إلا ما يتفق مع هذا التصور، ومن ثم أغفلت غير ذلك من جوانب شعر الإحيائيين.

وبالفعل عندما أتأمل الأمر الآن بعد كل هذه السنوات الطويلة أجد أنني كنت دوجماطياً بالفعل، وأنني كنت متبعاً لأفكار طه حسين ونقاد مدرسة الديوان الذين لم يروا سوى الجانب التقليدي من شعر الإحياء. ومن المؤكد أن الجوانب التقليدية تغلب على شعر الإحياء. لكن إلى جانب هذا التقليد هناك الابتداع الذي كان يجب الكشف عنه، ولم أنتبه إلى ذلك إلا أخيراً، ولذلك تغيرت نظرتي إلى شعر هؤلاء الشعراء وحاولت أن أكشف عن الجوانب الجديدة في شعرهم، خصوصاً عندما أقمت مع أستاذي عز الدين إسماعيل ملتقى الإبداع العربي الذي عقدناه سنة 1992، بمناسبة مرور ستين عاماً على وفاة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم على السواء. وكتبت بحثاً بعنوان «الشاعر الحكيم»، ثم كتبت دراسة مطولة كانت تقديماً لشعر البارودي في طبعة حديثة للديوان، ولا أزال إلى الآن أتوق إلى أن أعيد قراءة شعر شوقي، خصوصاً في جوانبه الخاصة بالوصف والنسيب أو الغزل، ولكن الزمن لم يكن يتيح لي أن أقوم بذلك إلى الآن.

وقد دفعتني أطروحة الماجستير إلى أن أحدد رسالة الدكتوراه، وكانت عن «مفهوم الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي»، وقد قضيت في درسها أربع سنوات، وقد أحدثت الأطروحة أثراً طيباً عند مناقشتها سنة 1973. وسرعان ما تلقفها صديقي الدكتور مصطفى لبيب - رحمه الله - وطبعها في دار نشر كان يملكها. والحق أن هذه المسيرة العلمية في الجامعة كانت مسيرة علمية خالصة. ولم أندمج

في الحياة الثقافية العامة إلا بالقدر القليل الذي كان يتيحه الفراغ ما بين أوقات العمل في الرسالة. ولذلك شغلني العمل في أطروحتي الماجستير والدكتوراه عن قراءة كل ما كنت أود أن أقرأه في ذلك الوقت، فقد كنت أريد أن «أتدكتر» بأسرع وقت. وكان زميلي حسن توفيق - رحمه الله - يحاول أن يجذبني إلى الحياة الأدبية ويصحبني معه إلى بعض الندوات عندما كان وقتي يتسع لذلك. ولا أنسى أنني ذهبت معه لحضور مسرحية «مأساة الحلاج» بعد أن أكمل صلاح عبدالصبور نصفها الأول، وكان ذلك ونحن في مرحلة الطلبة لم نتخرج بعد. وإن لم تخني الذاكرة فقد كان هذا عام 1964، وذلك في يوم من أيام عمري الذي لا أظن أنه يمكن أن يتكرر عند شاب من شباب هذه الأيام الذين يطلبون العلم محاصرين بالإرهاب الديني وبالقمع السياسي على السواء. وتفصيل ذلك موجود في مقال بعنوان: «يوم من عمري» سبق أن نشرته في الجزء الأول من مذكراتي التي أطلقت عليها عنوان: «زمن جميل مضى».


د. طه حسين

ولم أكن قد فرغت من أطروحة الدكتوراه بعد، حتى صدمتنا هزيمة يونيو 1967 التي كان لها أعمق وأسوأ الأثر على وعينا، فقد أفقنا من أوهامنا، واكتشفنا الخلل الذي تبني عليه الدولة والفساد الذي كان ينخر في جذورها، ففقدنا الثقة بكل شيء، وتقوقعت على نفسي، مدعياً التفرغ للعمل في أطروحة الدكتوراه، كي أهرب من وطأة الحاضر وقسوته. ولكن لم يفتني أن ألمح تراخي قبضة القمع البوليسي، والسماح للمهزومين أن يخرجوا ما في صدورهم من غضب وسخط. وقد لاحظت أن عبدالناصر قد استوعب درس الهزيمة، وبدأ في إعادة بناء الدولة، تحت شعار: «يد تبني ويد تحمل السلاح»، وكانت لاءات قمة الخرطوم الثلاث، تعبيراً عن عزمه الجديد. والحق أنني شعرت بالتعاطف معه بعد إدانتي له، وهو يحقق ما يشبه أن يكون معجزتين. أما المعجزة الأولى فكانت إعادة بناء الجيش الذي بدأ يخوض معارك الاستنزاف البطولية التي كانت بداية لحرب أكتوبر 1973. وكانت المعجزة الثانية استكمال بناء السد العالي. ولاأزال أتذكر الخطاب الرسمي الأخير لعبدالناصر، الذي كان أشبه بخطاب الوداع. ولم أندهش عندما أعلن عبدالناصر في آخر خطاباته في جامعة القاهرة عن ضرورة إعادة التفكير في البنية السياسية للدولة، وعن ضرورة التفكير في صيغة التعددية السياسية بدل الصيغة الأحادية التي كان يمثلها الاتحاد الاشتراكي. ولكن القدر لم يمهل عبدالناصر ليحقق مع الشعب أحلامه، فمات وهو في ذروة انشغاله بإعادة البناء، فلم يستطع أن يحقق أحلامه وأحلامنا، وكان عمره عند موته اثنين وخمسين عاماً فحسب، فقد ولد سنة 1918 قبل عام واحد من قيام ثورة 1919 ومات سنة 1970، بعد أن فرغ من تجهيز الجيش لمعركة التحرير، ووضع مع قادته العسكريين خطة التحرير وعبور القناة «صقر»، وبعد إعلان وفاة عبدالناصر بيوم، ذهبت في الصباح للاشتراك في الجنازة، ولم يفاجئني أن مصر كلها قد خرجت لوداعه. وكانت أصوات الملايين المحتشدة في الطرقات تردد هتاف الوداع الحزين: «الوداع يا جمال يا حبيب الملايين»، وظل هذا الهتاف يتردد مع مسيرة الملايين الباكية التي غفرت لعبدالناصر أخطاءه، ولم تعد تذكر إلا إنجازاته الإيجابية العظيمة.

وفى اليوم التالي أعلن عن تولي أنور السادات رئاسة الجمهورية. وذهب السادات إلى مجلس الشعب ليؤدي القسم الدستوري، ويلقي خطابه الأول الذي أعلن فيه لنواب الشعب أنه جاءهم ليعلن بأنه سيكمل مسيرته على خطى عبدالناصر. ولا أنسى مشهد دخوله إلى المجلس حين توقف أمام تمثال نصفي لعبدالناصر وانحنى أمامه في خشوع، في مشهد ميلودرامي لا يزال محفورا في ذاكرتي إلى اليوم ■

الجديد في بنية الدولة السعودية

عبد اللّه بشارة
الأمين العام لمجلس التعاون
لدول الخليج العربية الأسبق

عشــت في الرياض ١٢ ســنة كأمين عام لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، تابعت فيها مســار الدبلوماســية السعودية، وقبلها كنت في الأمم المتحدة ســفيراً لدولة الكويت لدى المنظمة الدولية، الأمر الذي أتاح لي الوقوف على محتويات هذه الدبلوماسية، ونحن الآن في مرحلة مختلفة، نتابع فيها الجديد الذي دخل تلك المحتويات التي عرفتها في لجان الأمم المتحدة وفي اجتماعات مجلس الأمن والجمعية العامة.

هنــاك عناصر مســتجدة دخلــت المضمون المعروف لسياســة المملكــة العربية الســعودية الخارجية، الذي وضع أساســه الملك عبدالعزيز آل ســعود، مؤســس الدولة الســعودية الثالثة، والذي التزم به الملوك اللاحقون من أبنائه، وهذا المضمون هــو مبادئ آمن بها الملــك عبدالعزيز ورســخها الأبناء في ما بعد، وهــي مرآة لواقع المملكة تعكس هويتها، وتبرز مسؤولياتها وتحدد غيرتهــا علــى تربتهــا وإصرارها علــى حماية ســيادتها وحدودهــا، مــع ما يتوافــر من حس مرتفع بالمســؤولية الدينية التي تتحملها المملكة في تحقيق تســهيلات لراحــة الحجاج ولحماية الأماكن الإسلامية المقدسة.

ويســجل التاريــخ أن الملــوك الذيــن تولوا المســؤولية بعد وفاة المؤســس الملك عبدالعزيز صانوا هذه الأمانة وأحاطوها برعاية لها أولوية على ما عداها، كما أرســوا نهجاً استراتيجياً لا مجال للتغيير أو التبديل فيه.

كان الملك المؤســس نبيلاً في تعامله مع أبناء شــعبه ومع زواره، ســخياً معهــم وحريصاً على راحتهم، وبقدر ما كان متفانياً في حماية وطنه، كان شرســاً مــع خصومه الذين ســعوا لتوطئة أقدامهم على تراب المملكة أو احتلال جزء منها أو مس المبادئ التي تلتزم بها.

والتزم الأبناء بهذه التركة، وتبنوا الدبلوماسية الذكية Smart Diplomacy موظفين المسارات نفسها في الترحيب الصافي والســخاء الواقي والدفء المريح، متبنين الأســلوب نفســه عند الشدة في نهج أسود مدافعين عن العرين المقدس بشجاعة سجلها التاريخ وشــدة مقاومة أثارت الإعجاب، مع عزم لا يلين وإصرار لا يضعف، وهي الصفات التي توارثوها منذ ولادة الدولة السعودية الأولى في منتصف القرن الثامن عشر.

ويسجل التاريخ مقاومة الملك سعود ثم أخيه فيصل محاولات الثورة المصرية في الخمسينيات والســتينيات من القرن الماضي لتقويض أعمدة الاســتقرار الســعودي، كما أبرز شجاعتهم في الحفاظ على سلامة المملكة ووحدة ترابها.

كما سجل التاريخ أيضاً الفزعة الوطنية لتحرير الكويت من الغزو العراقي عام 1990 وما صاحبها من تغيير في آليات الدبلوماسية الناعمة الهادئة وتطويرها إلى الدبلوماسية الفاعلة Effective Diplomacy.

كنت في الرياض آنذاك بصفتي الأمين العام لمجلس التعاون، وشاهدت أبناء الملك عبدالعزيز وقد تحولوا إلى نمور من النوع الذي لا يهدأ حتى الوصول إلى هدفه، فقد أيقنوا بأن أمن بلدهم يتعرض للتحدي وحان الوقت للاستبدال بقنوات الدبلوماسية الناعمة آليات المواجهة والذود عن قدسية الوطن ونبل الشرف والضمير.

كما لاحظت من متابعتي أن المرونة هي ركن من أركان الدبلوماسية السعودية، لا تقبل الجمود ولا التحجر، طالما إنها لا تمس الجوهر.

ولم يتردد الملك سلمان بن عبدالعزيز في إطلاق حملة الهيبة ودعم الشرعية اليمنية بعد التمرد عليها، وخصوصاً بعد احتلال صنعاء واعتقال المتمردين للقيادة الشرعية، وبعد أن شعرت المملكة بأن أمنها يتعرض للزعزعة، وأن هناك أصابع إقليمية مستترة وراء التمرد الطامح إلى إقامة نظام يشكل تهديداً لأمن دول مجلس التعاون الخليجي، وبالذات لأمن المملكة، واستجابت بعض دول المجلس لإملاءات الواجب في حماية التربة الخليجية، وشاركت ضمن ائتلاف التحالف الخليجي في مواجهة المتمردين وشركائهم وداعميهم.

ولم يكن قلق المملكة محصوراً في الوضع في اليمن، وإنما كان الوضع في سورية يثير مخاوفها ويزيد قلقها، بعد أن تمادى النظام السوري في تحديه لإرادة التغيير وسخَّر قواته للقضاء على المعارضة التي رفضت استمرار الاستبداد وعملت لتأكيد حق التغيير وفق إرادة شعبية حرة، تؤمن بآدمية الإنسان وكرامته ودستور منفتح على الجميع في إطار ديمقراطي مستنير.

وتبنت المملكة معارضة النظام السوري ومن يقف معه من حلفاء إقليميين ودوليين معروفين، وهو النظام المفروض بالقوة على رقاب الشعب السوري.

وعندما تطلق المملكة شعار عاصفة الحزم والعزم، فإن هذه الكلمات تترجم ما جاء في خطاب الملك سلمان بن عبدالعزيز عندما التقى ضيوف مهرجان الجنادرية وذلك يوم الأحد السابع من فبراير 2016، مؤكداً المبادئ المتوارثة قائلاً: «لا يوجد في المملكة العربية السعودية نزاعات، ولا يوجد فيها إضراب ولا ما يثير الأمن، وأقولها وأكررها، ملوكنا من الملك عبدالعزيز إلى الملك عبدالله رحمهم الله، وأنا أتحمل المسؤولية، إن أمن بلادكم بلاد الحرمين أمن لكم أنتم، الحاج والمعتمر والزائر يجيئها آمناً، لذلك تشرفت أن يسمى ملكنا بخادم الحرمين الشريفين وهذه مسؤولية وشرف لنا».

ويضيف الملك سلمان مجدداً الالتزام بأمن البلد، قائلاً «إن المملكة تدافع عن بلاد المسلمين ومن حقها أن تدافع عن نفسها دون تدخل في شؤون الآخرين، وندعو الآخرين إلى عدم التدخل في شؤوننا وهي بلاد العرب والمسلمين».

وقد جاءت كلمات الملك سلمان بن عبدالعزيز بعد أن أعلنت المملكة العربية السعودية استعدادها لإرسال قوات برية لمكافحة تنظيم داعش في سورية، وسط ترحيب من الائتلاف العالمي لمحاربة الإرهاب، ونلاحظ هنا أن المشاركة في سورية لمحاربة داعش ستكون إذا ما تم إنجازها في إطار توافق جماعي، وليست مبادرة فردية مستقلة.

وليست هذه المرة الأولى التي ترسل فيها المملكة قوات سعودية تدافع عن استراتيجية أمنية لها علاقة بأمن المملكة، فقد استقبلت الكويت قوة سعودية كبيرة عام 1961 للدفاع عن استقلالها، بعد أن حاول رئيس وزراء العراق آنذاك عبدالكريم قاسم ضم الكويت بالقوة، كما أرسلت قوات إلى الأردن وسورية وشاركت في قوات حفظ السلام المنبثقة عن الجامعة العربية.

كما نلاحظ أيضاً تطور دبلوماسية المملكة التي انفتحت على الهيئات والمؤسسات الدولية، وتحولت من مراقب هادئ إلى عضو فاعل ومؤثر يشارك في الترشيح ويترأس الاجتماعات ويسعى

لعضوية اللجان وفرق العمل.

خــلال عملي فــي نيويورك فــي الفترة من 1971 – 1981، كان وفد المملكة في الأمم المتحدة يشارك في المداخلات سواء في مجلس الأمن أو اللجان المتخصصة، لكنه لم يســع للعضوية في مختلــف اللجان والهيئات بمــا في ذلك مجلس الأمن.

فــي عــام 2013 ترشــحت المملكــة العربية الســعودية لأول مرة لعضويــة مجلس الأمن عن مقعد من المقعدين المخصصين لقارة آسيا، على الرغم من أن المملكة عضو مؤســس في المنظمة الدولية، ورحبت الــدول الأعضاء بذلك تقديراً لمواقف المملكة السياسية والاقتصادية ومكانتها الإســلامية، لكنها رغم الارتياح بفوزها بالمقعد، فإن قيادة المملكة رأت أن مجلس الأمن لا ينهض بمســؤولياته الدولية في حفظ الأمن والســلام العالميين، فاعتذرت عن أخذ المقعد وحل الأردن مكانها وشــغل المقعد لعامي 2014 و2015، ورغم ذلك فقــد تعاونت المملكــة ومجلس الأمن حول قضيتين تشــغلانها وتشــغلان أيضــاً الآخرين، هما اليمن وســورية، وســهلت المهمة للمبعوثين لاسيما في حالة اليمن، حيث يتردد ممثل الأمين العام للأمم المتحــدة على الرياض للاجتماع مع الشــرعية اليمنية ومع القيادة الســعودية، كما أن المملكــة ترعــى المعارضة الســورية المعتدلة وتســتضيف اجتماعاتها وتقدم لهــا الخدمات اللوجستية وتدعمها سياسياً.

هل يمكن القول إن الملك سلمان بن عبدالعزيز اتخذ قرارات تعدت الإطار الذي انحصرت فيه مواقــف المملكــة؟ وللإجابة عن ذلــك لابد من تحديد المبادئ التي تشــكل جوهر الدبلوماسية السعودية:

أولا: الحفاظ على الدولة الوطنية السعودية بحدودهــا المعروفــة منــذ عــام 1932، ووقاية هذه الحــدود، وتأمــين حرية شــعبها وحماية ســيادتها وتقاليدها وأعرافها، وباختصار مهمة الدبلوماســية السعودية هي ســلامة الجغرافيا السياســية والاجتماعيــة والســيادية للمملكة الدينية.

ثانيــاً: الالتــزام بعروبــة الدولــة الوطنية الســعودية باعتبار الجزيرة العربية أرض العرب التي احتضنت قبائلهم في ســابق الأزمان، وهي الموقــع الــذي انطلقت منــه هــذه القبائل نحو البحر المتوســط ومصــر وشــمال إفريقيا، في ممارسة التجارة والهجرة نحو الأفضل قبل بزوغ الإسلام.

ثالثاً: واقع المملكة كمهبط الرسالة المحمدية ومنبع الإسلام وحضن الدعوة التي حملها النبي محمد ﷺ، ومنها انطلقت تلك الدعوة إلى خارج الجزيرة نحو إفريقيا وآسيا وجنوب أوربا، وفيها الكعبة المشرفة والمســجد الحرام، في مكة ولد الرســول ﷺ، وفيها المســجد النبوي في المدينة المنــورة، حيث يرقد الرســول ﷺ مــع الخليفة أبوبكر والخليفة عمر.

هــذه الحقائــق، مهبط الوحــي وموقع بيت الله الحــرام، ومرقد الرســول ﷺ في المدينة، ترسم خطوط الدبلوماسية السعودية، في حمل مسؤولية حماية الأماكن المقدسة.

فالملــك فيها هــو خادم الحرمــين المحافظ على ســلامتهما، والمؤمن الوصول إليهما لجميع المســلمين، ســواء في فترة الحج أو في فترات أخرى لأداء العمرة.

رابعاً: المملكة عضو مؤسس للجامعة العربية وأيضاً عضو مؤسس في الأمم المتحدة، وتشارك في اتفاقيات عربية ودولية وتلتزم مبادئ الميثاق الذي يجسدها، ســواء ميثاق الجامعة أو الأمم المتحــدة، وتتصــرف بامتثال لقواعــده وتراعي في ســلوكها الضوابــط التي تلتزم بها الأســرة العالمية.

خامســاً: واقع المملكة كعضــو في مجموعة العشــرين التــي تتميــز بقدرتهــا الاقتصادية، والمالية، وتماهي السياســة الخارجية السعودية مع هذه الحقيقة التي أخذت في الاتساع بإضافة اهتمامات أخرى للمملكة تزيد من مســؤولياتها العالمية.

لا جــدال في أن سياســة المملكة الخارجية هــي تعبير عن تداخل مصالــح الدولة الوطنية، مع الرابطة العربية في حضن الإســلام، يضاف

إلى ذلك واقعها السياسي والاقتصادي المميز إقليمياً وعالمياً.

ويعني ذلك أن المملكة تتحمل أعباء عن مسؤوليات الآخرين، فصوتها السياسي لا يتأخر في الذود عن الوطن والاستعداد له، وواقعها العربي لا يتردد في تبني القضايا العربية بكل أشكالها، وتتصدر مسؤولياتها الإسلامية الأولويات في ترسيخ التعاون بين الدول الإسلامية، وتأمين ترابطها وإخراجها بصوت موحد يضمن لها القوة على مسرح الأحداث.

لذا سعت المملكة بقوة لإنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، ورشحت مدينة «جدة» كمقر لها، وعززت مكانتها وساهمت في اتساع نفوذ المنظمة في إطار الدول الإسلامية وخارجها، وعززت مكانة البنك الإسلامي للتنمية، متبرعة بمبلغ مليار دولار إسهاماً منها في علاج مشاكل الفقر في الدول الإسلامية.

كما تنهض السياسة الخارجية السعودية بأعباء ترابط واقع المملكة مع مجموعة العشرين، وما يعني ذلك من تحملها واجبات إضافية سياسية واقتصادية وأخلاقية، في الحفاظ على الاستقرار المالي العالمي، والالتزام بسياسة نفطية معتدلة توازن بين حق المنتجين وحقوق المستهلكين دون اضطراب يهز استقرار الاقتصاد العالمي، ورسخت حق المبادرة في زيادة الإنتاج عند الضرورة، متبعة نهجاً مسؤولاً وموثوقاً به في دبلوماسية النفط Oil Diplomacy.

وانسجاماً مع هذه اللائحة من الأسس التي تقوم عليها السياسة السعودية الخارجية، فقد رسم المسؤولون السعوديون نهجاً واضحاً يعبر عن واقع المملكة ويؤدي إلى الحفاظ على صلابة الدولة ووحدتها وسلامة أرضها في شكل مسارات استراتيجية.

ويمكن لنا أن نلقي الضوء على هذا الجديد الذي وجد في بنية الدولة السعودية التي أسسها الملك عبدالعزيز.

كما أشرت في مطلع المقال، فإن قيادة المملكة منذ تولي الملك فهد - خامس ملوك المملكة - مسؤولية الحكم عام 1982، اتخذت خطوات غير مألوفة في سعيها للتناغم مع المستجدات السياسية والاقتصادية المعاصرة، فمع ارتفاع أسعار النفط وزيادة الدخل، صار موقع المملكة السياسي والاقتصادي مختلفاً عما كان عليه سابقاً، فالمتانة المالية والعقلانية السياسية المعتدلة، وضعتا المملكة في قائمة النخب السياسية والاقتصادية في مجموعة العشرين، التي تتكون من الدول ذات الأهلية المالية المساهمة في استقرار الاقتصاد العالمي وازدهاره، وترتب على ذلك مساران مهمان، الأول هو المساهمة المالية الكبيرة التي تقدمها المملكة إلى الاقتصاد العالمي، سواء عبر المؤسسات العالمية وصناديق النقد المنتشرة أو الدعم المباشر أو عبر صندوق التنمية السعودي أو بالأسلوب الثنائي.

ويتسم المسار الثاني بضرورة إسهام مجموعة دول الخليج، التي وجدت نفسها في وضع متماثل، في التنمية العالمية، وفي الاعتدال في دبلوماسية النفط.

وجاءت فكرة قيام مجلس التعاون الخليجي من الشعور العام بضرورة التكاتف والتكامل واتخاذ موقف موحد في السياسة الاقتصادية وفي تأمين الاستقرار الداخلي وحماية السيادة لدول الخليج.

ونجحت مساعي الخليج في إقامة مجلس التعاون عام 1981، وتكاثفت اجتماعاته وتعاظمت مسؤولياته وبرز كهيئة خليجية يثمن العالم دورها السياسي والاقتصادي والنفطي ويثمن حكمة قياداتها في إدارة شؤونهم.

وسارت المملكة في تعاملها مع مجلس التعاون بالأسلوب التاريخي المعروف بالحذر من الظهور بدور القائد في وعي كامل لمخاطر الحساسيات، مع بروز دورها الريادي عند الأزمات، كما برز مع الغزو العراقي لدولة الكويت، كما حرصت على أن يظل اهتمام مجلس التعاون بالشأن الخليجي تاركاً العمل العربي للجامعة العربية، حرصاً من المملكة على وحدة العمل العربي المشترك دون انكفاءات.

وبعد وفاة الملك فهد بن عبدالعزيز عام 2005،

جاء الملك عبدالله بن عبدالعزيز بمقترحات تعظيم الدور السعودي في القضايا العربية والإقليمية، وتأكيد الإسهام السعودي في المحفل العالمي، فقد طرحت المملكة وبمبادرة منه، عندما كان ولياً للعهد، ما يسمى المبادرة العربية لحل القضية الفلسطينية، بالاعتراف بإسرائيل في حدود عام 1967، وإقامة الدولة الفلسطينية، وخرجت قمة بيروت عام 2002 بالمصادقة عليها كمبادرة عربية سجلت في الأمم المتحدة، ثم أكدتها المجموعة الإسلامية وصارت الصيغة التي تنال الإجماع عربياً وإسلامياً وعالمياً.

كما ساند الملك عبدالله الجهد الدولي لمقاومة الإرهاب، ودفع بالمملكة لتتولى السبق في إقامة مركز محاربة الإرهاب العالمي في الرياض مع تبرع بمبلغ مائة مليون دولار لتسهيل انطلاقه.

وتوجه الملك عبدالله نحو الحوارات بين الحضارات في إيمان بضرورتها بين الأديان والثقافات وإيماناً منه بدورها في التقارب بين الشعوب، وغرس مشاعر الألفة بينها، وتبنى إقامة «مركز الملك عبدالله للحوار بين أتباع الديانات والثقافات» في مدينة فيينا مع تبرع سخي لبدء ممارسة جوانب نشاطه.

ومما يلفت النظر أن عهد الملك عبدالله تميز بتوالي المبادرات المتنوعة، سواء على الصعيد العربي في تنقية الأجواء، أو على الساحة الدولية في تكثيف وجود المملكة، لاسيما في المنظمات السياسية والمالية، وفي هذا الإطار ترشحت المملكة لأول مرة لعضوية مجلس الأمن إيمانا من الملك عبدالله بإسهام المملكة في توجيه الشأن السياسي العالمي نحو المبادئ التي جسدها ميثاق الأمم المتحدة بدلاً من احتكار القوى الكبرى للقرار في مجلس الأمن حماية لمصالحها وتنفيذاً لاستراتيجيتها.

واتخذ الملك عبدالله، بعد نجاح المملكة في عضوية المجلس، قرار عدم المشاركة والانسحاب، في خطوة غير مسبوقة، مدفوعاً بقناعاته بأن المجلس لن يحقق التوقعات في فرض العدالة والانتصار للمظلوم.

ومع تولي الملك سلمان بن عبدالعزيز مقاليد السلطة، استمرت الديناميكية التي أشعل فتيلها الملك عبدالله، متمثلة في قرار مقاومة التهديدات التي يتعرض لها أمن المملكة، سواء في اليمن أو من إسقاطات الوضع في كل من سورية والعراق، مع التصدي لمساعي زعزعة استقرار دول الخليج والدفع بها نحو الصراع الطائفي.

واستمرت المملكة في ممارسة الدبلوماسية الفاعلة متمثلة في الخطوة غير المألوفة في تاريخ المملكة، المعبرة عن المرونة الدبلوماسية، عبر مشاركة ولي ولي العهد الأمير محمد بن سلمان في اجتماعات حلف الناتو في بروكسل يومي العاشر والحادي عشر من فبراير 2016، لبحث إمكان مشاركة المملكة ضمن قوات التحالف الدولي البرية لمحاربة تنظيم «داعش» والقضاء عليه.

ومن هذا الاستعراض، نتوصل إلى أن المملكة العربية السعودية تملك خبرة واسعة في إدارة الأزمات جمعتها من تاريخ ممتد لثلاثة قرون تعرضت فيها الدولة السعودية إلى أنواع من المؤامرات لتقويض نظامها، وانبثقت من قدرة قيادتها منذ قيام الدولة السعودية الأولى على مواجهة الصعاب بشجاعة مميزة وبحزم شديد مع استعداد للتضحية ومواصلة المقاومة حتى التأكد من هزيمة العدو وضمان الاستقرار وسلامة الوطن وترسيخ أمنه وسيادته.

الخلاصة

إن أبرز الجديد في بنية الدولة السعودية هو نهج الاستباقية Preventive الذي نتابعه في عاصفة الحزم والحسم في اليمن وفي التزام المملكة بالمشاركة في ائتلاف القوة البرية للتحالف الدولي حول سورية، وتمثل واقعاً يستند إلى تقدير ودراسة لمخاطر البطء والتردد، ولا شك في أن هذا الجديد حمّل المملكة دوراً إقليمياً بارزاً بما فيه من تبعات استراتيجية وسياسية واقتصادية، لكن ذلك كله يصب في قرار الملك سلمان حماية حقوق الإنسان واحترام آدميته وترسيخ شرعيته في الحياة الكريمة الآمنة في وطنه، وفق المبادئ التي جسدتها وثائق الأمم المتحدة وميثاقها ■

الجهاد والتكفير وتجديد الخطاب الديني... مفاهيم في ضوء العقل

جوهر الإسلام الاعتدال

فيصل المرشد
رئيس سلك القضاء الكويتي السابق

إن الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني تقتضي التفكير العميق، غير المتطرف وغير المتزمّت، في ظل القول المأثور: «وما ضرّ الأمة إلا ترك الاعتدال»، وذلك من أجل توضيح بعض معاني «المفاهيم» ووضعها في سياقها الفقهي السليم، وإنكار التفسير الخاطئ والمتطرف لها، ومن هذه المفاهيم: الجهاد والتكفير.

الجهاد فريضة مظلومة من أبنائها مثل خصومها، حيث اعتبروا القتال غاية في حد ذاته، بينما هو مجرد وسيلة للدفاع عن بلاد المسلمين. ففكرة الجهاد من أجل الجهاد فكرة باطلة، لأن الأصل في الإسلام هو السلام وليس الحرب، كما أن الأصل هو الإحياء وليس الموت، ورسالة الإسلام لم تنزل لإزهاق الأنفس، وإنما جاءت لإحيائها وإصلاحها وعمارة الأرض، ونهى الإسلام عن القتل لأي نفس **﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾** (**المائدة**: 32)، ولم يقل المولى عز وجل من قتل مسلماً أو مؤمناً، وإنما أطلق مفهوم النفس، وكل الأنفس معصومة، كما قال ابن تيمية. ولا يستثنى من ذلك، إلا بدليل أنصع من شمس النهار.

والجماعات ليست مهمتها الحرب، ولكن هذه المهمة للدول والحكومات التي تحتكر استخدام القوة. ولا ينبغي على كل مجموعة أن تكون ميليشيا ثم تحارب كما تشاء، وإلا كانت الفوضى حتى ولو أساءت إليهم الدولة، لكي لا ينفرط عقد المجتمع، أخذاً بالقاعدة الشرعية «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، ومبدأ «اختيار أهون الشرّين»، واعتناق بعض الجماعات لفكرة التكفير وخاصة في أوقات الأزمات، والتضييق كرد فعل على ذلك، والتكفير والتهجير وجهان لعملة واحدة، فإذا تم قذف الحاكم بالتكفير وبقية أفراد المجتمع والجنود، فإن من شأن ذلك أن يؤدي إلى العنف والتفجير والتدمير.

أولاً: مفهوم الجهاد في الإسلام

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (**الحج**: 78)، وقد يشير الجهاد إلى الجهاد السلمي في إطار المجتمع لإقامة العدل، ويُثني القرآن على المجاهدين بأموالهم

وأنفسهم، وهناك مجاهدة الحاكم ومناصحته، وهي أفضل أنواع الجهاد: «أفضل أنواع الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، وهناك الجهاد الحربي وقد يشار إليه بـ «القتال»، وله مبرران، أولهما: دفع العدوان ورده، وثانيهما: منع الفتنة: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** (البقرة: 190)، بمعنى أن القتال آخر وسيلة يُلجأ إليها لوقف العدوان. والدفع المشروع أو الحرب الدفاعية كما تسمى اليوم مشروطة شرعاً بعدم تعدي الحدود المعقولة لرد هذا العدوان، أي عدم المبالغة بحجة رد العدوان. وقد ربط بعض المسلمين - هداهم الله - بين مفهوم الجهاد وممارسة العنف، وقد أسيء استخدام هذا المصطلح الإسلامي من بعض غير المسلمين خاصة، حين أطلق على العمليات التي توصف بالإرهاب. وهذه الحركات التي تُمارس القتل والتدمير في بلاد المسلمين وغير المسلمين باسم الإسلام، هي أبعد ما تكون عن الإسلام فكراً ومنهجاً.

والأصل أن الجهاد المشروع يكون لرد العدوان على المسلمين أو مغتصبي أراضيهم ومقدساتهم، أي جهاد الأعداء، لا بين المسلمين أنفسهم (الفتنة - حرب أهلية) أو ضد غير المسلمين.

ومن الخطأ الافتراض بأن الجهاد هو الحرب المقدسة كما يُطلق عليه الغربيون، إذ ليس في الإسلام حرب مقدسة أو غير مقدسة، وإنما شُرّع للدفاع عن المسلمين.

ولم يشرّع الجهاد لمحاربة الكافرين أو المخالفين للإسلام، إذ القاعدة: «أن كُفر الكافر لا يبيح هدر دمه»، فسبب الجهاد الاعتداء على الدين وأهله، على ما استقر عليه الرأي الفقهي (الجمهور) بدليل الآية التي سبق أن أشرنا إليها آنفاً: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 190)**، وهو ما يدل على أن قتال من لم يُقاتل - وهو في حكم المسالم - عدوان وظلم، وهذه الآية محكمة وليست منسوخة.

وقد كانت سيرة الرسول ﷺ أن من سالم لم يقاتله، بل لقد تعايش مع اليهود وتعامل معهم بالتجارة وزار مريضهم وأكل من طعامهم. كما دعاهم لإيثار السلم على الحرب **﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: 61)**. كما حَرَّم النبي ﷺ مقاتلة النساء والصبيان والرهبان والشيخ الكبير والأعمى والضعفاء وأهل الذمة، أو إساءة معاملة الأسرى والتمثيل بجثث القتلى أو قطع الشجر المثمر أو حرق المساكن أو الأبنية، لكون القتال شُرِّع لمن يقاتل المسلمين، ولأن الإسلام جاء رحمة للعالمين، وقد حرّم حرب الإيذاء والظلم. فالإسلام دين السلم والسلام ويكره إراقة الدماء إلا لضرورة تقتضيها المصالح ودفع المضار والعدوان، والضرورة تقدر بقدرها. أي أن يخلو الجهاد من البغي والعدوان والتجاوز، وأن يأتي الجهاد من حاكم الدولة ورأسها. ولا يُشرَّع الجهاد ضد المسلمين ولو كانوا من المنافقين، مادام أنهم مسالمون ولا يبغون في الأرض فساداً ولا يعتدون، كما لا يُشرَّع الجهاد ضد الأنظمة الحاكمة وإن لم يطبقوا الإسلام، أو ضد الهيئات الأجنبية أو التي تمثل مصالحها، لما قد يؤدي ذلك للفتن وهلاك البشر والحرث والضرع، كما هو حاصل في بلاد الشام منذ خمس سنوات. كما لا تجوز محاربة الأجانب من غير المسلمين في بلاد المسلمين، طالما كانوا مسالمين ويُعتبرون أهل عهد ومن أهل الذمة، ولو كانت حكوماتهم تتبع سياسة مخالفة لمصلحة المسلمين، لكونهم لا يحملون وزر حكوماتهم، وهؤلاء من قصدهم المولى تعالى بقوله: **﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: 4)**.

ومن ثم فإن استعمال العنف السياسي المسلح بشتى أنواعه باعتباره جهاداً داخل البلاد الإسلامية أو خارجها بدعوى قمع المنكرات، يعتبر غير مشروع وخطأ في التطبيق.

أما قوله تعالى: **﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ (البقرة:191)**، فلا يشير إلى القتل الشامل للكفار كما يزعم البعض، بدليل أن الآية تضيف في السياق نفسه



﴿**وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**﴾، بما مفاده أن العدوان قد وقع على المسلمين، فحقّ عليهم الدفاع عن أنفسهم وردّ العدوان دون تجاوز. وإيمان البشر جميعاً أمر مستحيل لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (**يوسف**: 103)، وإن شرط التوقف عن قتال غير المسلمين مرتبط بإنهاء عدوانهم وظلمهم: ﴿**فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ (**البقرة**: 193). ﴿**فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (**الأنفال**: 39)، ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ (**البقرة**: 194)، فعلة القتال هنا هي رد الاعتداء حتى ولو كان من جماعة مسلمة.

ويعلمنا التاريخ أن رسول الله ﷺ لم يبدأ قوماً بحرب إلا بسبب عدوانهم أو ظلمهم. وكان المسلمون يفرضون الجزية كضريبة على غير المسلمين (أهل الذمة) الذين يعيشون في ديار الإسلام نظير حمايتهم والاستفادة بمرافق الدولة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من آذى لي ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة»، ومن رحمة الإسلام وسماحته أنه أباح زواج المسلم من الكتابية، لتكون شريكة حياته وربة بيته وأم أولاده وهي غير مسلمة، وأن يكون أخوالهم وخالاتهم من غير المسلمين.

أما قوله تعالى: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾ (**التوبة**: 5) وكذلك قوله سبحانه ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ**﴾ (**محمد**: 4)، فالآيتان تتعلقان بحالة الحرب مع مشركي العرب، بدليل أن الآية التي تسبق الأولى تستثني من لا ينقض عهده، كما جاء في الآية الرابعة من «سورة التوبة» المذكورة آنفا، ولو صح أن الشرك وحده سبب للقتال، لما كان هناك مجال للاستثناء، بل إن الآية «السادسة» تنص على إجازة من طلب الأمان من المشركين، حتى يسمع كلام الله، ثم إبلاغه مأمنه حتى ولو لم يسلم ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ (**التوبة**: 6)، وحرمة الإكراه في الدين حتى لو كان مشركاً أو ملحداً: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (**البقرة**: 256)، وعلة قتال المشركين هي نقضهم العهد والصلح، ومبادأتهم بالعدوان على المسلمين.

ولا يجوز قتل الكافر، لأن الإسلام حمى من يعيش على أرضه وخاصة أهل الذمة، وإلا لما عاشت الأقليات الدينية تحت ظل الإسلام ودولته القوية، إذ يؤكد ذلك ما روي عن الرسول ﷺ: «من آذى لي ذميّاً، فأنا خصيمه يوم القيامة».

وحينما انتقد القرآن بعض تصرفات المسلمين: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا**﴾ (**التوبة**: 97)، فهل يعني ذلك أن الوصف ينصرف إلى جميع الأعراب آنذاك؟! ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (**العنكبوت**: 46). والحاصل أن هدف الجهاد في الإسلام هو الدفاع عن حرمات المسلمين، ولا يقصد به حمل السيف بظلم للآخرين وقتل النفس التي حرّم الله أو ترويعها: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (**البقرة**: 190). ولا ننسى أن اليهود أنفسهم لا ينسون الأمن والأمان الذين عاشوهما عهوداً طوالاً سواء في أرض الجزيرة العربية أو في بلاد الأندلس أو في بعض الدول العربية حالياً.

ثانياً: التكفير

لقد ارتبط مفهوم التكفير بالجهاد باعتباره الادعاء الذي يستند إليه التكفيريون، سواء تكفير المسلمين أو غيرهم، ليكون مبرراً لهم لارتكاب العمليات الإرهابية وسفك الدماء البريئة والتدمير والخطف.

وهم يعتبرون المسلمين مرتدين، كما أن بعضهم يكفّر الحاكم، وتشدد فريق منهم بتكفير المجتمع لعدم تكفيره الحاكم، فاعتبروا المجتمع جاهلياً، وتسبب ذلك في سفك دماء المسلمين وهتك أعراضهم، وسلب أموالهم من دون وجه حق، على الرغم من كونهم مؤمنين ويقيمون الشعائر، وهم ينتهجون منهج الخوارج الذين كفّروا سيدنا الإمام علي - كرّم الله وجهه - وقومه، وكل ذلك سببه عدم

فهم الدين وسماحته.

ومما لا شك فيه أن التكفير بغير دليل صريح انحراف في الفكر، على الرغم من تحذير النبي ﷺ من ذلك لقوله: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما». لذا يتعين تحرير الفكر من هذه المفاهيم المغلوطة التي تخالف الكتاب وسنة المصطفى ﷺ، حتى لا تكون سبباً في سفك الدماء، ودرءاً للانقسام في المجتمع المسلم، ذلك أن الإسلام دين تسامح بُني على المحبة والتعايش السلمي مع جميع الأديان واحترام الآخر، إنه دين البناء والعلم والسلام، أما البغض والكراهية فهما ديدن الحاقدين، هذا هو جوهر ديننا العظيم ورسالته الخالدة منذ أكثر من 14 قرناً، حيث عايش النبي ﷺ أهل الكتاب وتزوج منهم وأكل طعامهم وتعامل معهم في التجارة، واشترى منهم السيوف والدروع.

ذلك هو دين عمر الفاروق رضي الله عنه حينما رفض الصلاة في كنيسة القيامة في القدس، ليس تكبراً وتجريماً، بل حكمة وحصافة.

ثالثاً: تجديد الخطاب الديني

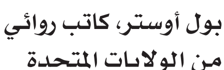
إن تجديد الخطاب الديني هو مطلب طبيعي في حياة الناس، وحاجة ملحة لمواجهة مستجدات الحياة ومتغيراتها بما يتطلب اجتهاداً خاصاً ونظراً جديداً، يتفاعل معها ويتناسب مع طبيعتها في حدود الشرع، وقد نجح الفكر الاقتصادي الإسلامي في مسألة استثمار رؤوس الأموال وتوظيفها عبر آليات لاقت اهتمام المؤسسات الاقتصادية العالمية حتى تسابقوا لاحتضان برامجه وتطبيقاته، إلا أنه لم يتم تطوير الفكر السياسي بالموازاة بسبب حالة الضعف العام والتشتت التي تلف أمة الإسلام، ولانزال مقلدين دونما فكر أو تمحيص، ولا يمكن تجديد الفكر الديني إلا بوجود بيئة صالحة يكون فيها تفعيل للحريات ومصالحة وطنية شاملة، فالتجديد في الخطاب الديني لا ينجح في مجتمع تشيع فيه الكراهية والأحقاد والصراعات مع معاناة فئة الشباب الذين لا يجدون عملاً لائقاً.

والمفروض أن يكون هناك خطاب ديني يجدد ولا يبدد، يبشر ولا ينفر، يقرّب ولا يبعد، يستقي من الأصل ويتصل بالعصر ويهتم بفقه المصالح والمفاسد وفكر المراجعة والمناصحة والنتائج، لا يقدس العلماء السابقين، وفي الوقت ذاته لا يهيل التراب عليهم بغير حق... يخاطب العقل والوجدان ولا يدغدغ العواطف، خطاباً ينشر الحب ولا يدعو للكراهية، ينشر التسامح مع المخالفين في الدنيا والدين، ولا يخوض في الأعراض ولا يتاجر بالمصطلحات ولا يتتبع زلات العلماء أو عوراتهم، ولا يوسع من دائرة التحريم بغير حق، فالتحريم بغير حق كالتحليل بغير حق... خطاب لا يؤمن بنظرية المؤامرة أو يعتقد أنها تُسيِّر الكون، يجمع بين النص والعقل جمعاً صحيحاً، ويعترف بتنوع الاجتهادات من أهل الاجتهاد، ويؤمن بأهمية التعددية السياسية والفكرية، خطاب ديني يهدي ولا يكفّر.

ويجب أن نفرق بين ثوابت الإسلام ومتغيراته، فنتمسك بثوابته بصلابة ونكون مع متغيراته بمرونة. وثوابت الإسلام قليلة ومتغيراته كثيرة، لذا فالإسلام دين ديناميكي يصلح لكل زمان ومكان، ويصلح لكل الأعراف والبيئات. فالإسلام الذي سمح بأن يجمع بين رأسين من دينين مختلفين على وسادة واحدة هو دين عظيم، والإسلام الذي جعل الأصل هو السلام وليس الحرب هو دين عظيم أيضاً، والإسلام جعل الإحياء (إحياء النفس) هو الأصل، وتعمير الكون أيضاً، وليس قتل الأنفس أو خراب الأكوان، الإسلام الذي علّم الناس قبول المفسدة الصغيرة درءاً للكبيرة، ويفوّت المصلحة الصغيرة طلباً للكبرى والذي لا يحول الخطأ إلى خطيئة، أو الخطيئة إلى كفر، هو دين عظيم... الذي يرتب أولويات الحياة ويقدم حفظ «أي نفس» على كل شيء هو دين عظيم.

ندعو الله تعالى أن يحفظنا من الزلل، وأن يسدد خطانا، وأن يوفقنا جميعاً لنكون ألسنة صدق وأقلام حق، لنعكس سماحة عقيدتنا وسمو قيم ديننا الحنيف ■

● كم هي معقدة بحق مســألة إجادة لغة، وكم من القواعد والمبادئ التي يجب على المرء أن يستوعبها فتجري فيه مجرى الدم قبل أن يتمكن مــن «امتلاك» لغة واحدة معينة. أبسط الزلات تفضح العجز عن فهم كيفية عمل النظام كله. هفوة واحدة تــدوي على إثرهــا أجراس الإنذار.



بول أوستر، كاتب روائي
من الولايات المتحدة

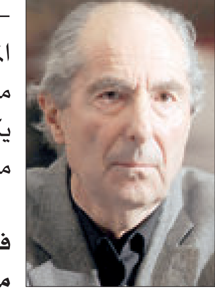
● العنصرية العاديّة سهلة وميسّرة كقروض شركات التسليف. البند الصغير بحروف خفيفة الحبر، في أســفل الصفحة الأخيرة من عقد يحوي عشرات الصفحــات، هــو ما ســوف يأكلــك. والعنصرية العاديّــة هــي غواية القــوّة، الاســتقواء، وفرصة الخروج المجّاني من صنف الدونيّة لارتقاء لا تدفع ثمناً لــه ولو أن الدائــن وراء البــاب. وهي أيضاً متعة الخيانة السريّة للجسم الضعيف وتخلّيه عن مكابدة القسوة. فالعلاج مكلف وموجع، والغرغرينا قضاء لطيف حتى تحين ضرورة البتر.

هدى أيوب،
كاتبة لبنانية تعيش في فرنسا

● الرواية هي الحياة، ليســت الحياة التي نحياها، إنما حياة من نوع آخر، حياة لا ندركها، لأنها حالة تتحقق من خــلال الانزياح عن حياة الواقــع. لكــن، فــي زمنها، نمارس الحرية في الســفر، في اللغة، نهدم عوالم ونبني أخرى، نحلم، نحب، نمارس كل الأفعال، ونجربها، بعيداً عن عــين الحيــاة الواقعية لهذا، نشعر بالانزياح عن وجودنا المادي، واقترابنا من منطقة أكثر غموضاً، ولبساً، لكن، أكثر إشراقاً لوعينا الضمني.

زهور كرام،
ناقدة من المغرب

● عندمــا نقرر أن نصير كتاباً لا نكون نملك أدنى فكرة عن نــوع العمل الذي تمثلــه الكتابة. عندما نبدأ، نكتب عفوياً، انطلاقــاً من خبرتنا المحدودة جداً عن العالم غير المكتوب والعالم المكتوب. نحن مفعمون بالحيوية الساذجة. «أنا كاتب»، إنها فرحة من نوع القول: «لديّ عشــيقة». لكــنّ العمل يوماً بعد يوم طوال خمســين سنة –ســواء من أجــل أن يصير المــرء كاتباً أو عشــيقة– هو مهمة شــاقة، وأبعــد من أن يكون مــن أكثر النشــاطات متعة للإنسان.

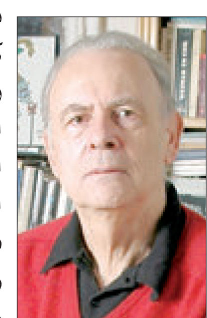


فيليب روث، كاتب روائي
من الولايات المتحدة

● من الأســباب التي تجعلني ســميك الجلد مع النقــاد، أنني لم أضطر قط إلــى الاعتماد على كتبي في كسب لقمة عيشي. فلقد كان لدي حتى تقاعدي من التدريس راتب أكاديمي كاف تماماً، كان يمكــن أن يلعنني كل من على وجه الأرض من النقــاد، وتتهاوى مبيعات كتبــي إلى الصفر، دون أن أجوع. الجانب الأقبح في مســألة اســترزاق الصحفيين على حســاب الأدب – الحقد والنفاق والغيبة وما إلى ذلك – إنما يأتي من حاجة ماسة إلى اختلاس لقمة العيش.

جون كوتزي،
كاتب من جنوب إفريقيا حائز «نوبل» في الآداب

● في الكتابة، تشبه المدة الاندفاعة الأولية التي جعلتك تحلم، والتي تتلاشى قليلاً، بينما يجب عليك، بالضرورة، أن تستمر. إن هذه اللحظة التي نكون فيها كما لو أننا صاحون، ليست اللحظة التي أفضلها. فالكتابة شبيهة بعملية جراحية، إذ نبذل تركيزاً كبيراً بحيث يجب إنجازها على وجه السرعة. وفي حالتي، فإن التركيز يبدأ في التلاشي عند انصرام ساعة أو ساعة ونصف الساعة.

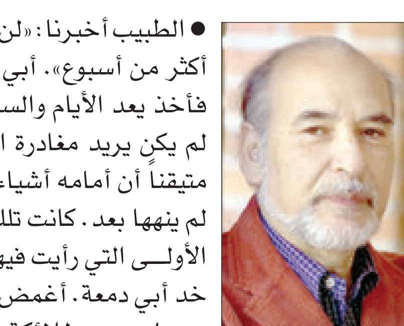


باتريك موديانو،
روائي فرنسي، حاصل على «نوبل» في الآداب.

● الرواية الحديثة لا تستغني عن المراجع، ويحشد الكتّاب خلفهم كماً من الموسوعات، ويعترف ماركيز أنه يستعين بحوالي عشرين موسوعة على الأقل أثناء قيامه بعملية الكتابة، ولم يجد بعض الروائيين العرب غضاضة في إضافة قائمة بالمراجع في نهاية صفحات الرواية، المعلومات ضرورية بلاشك، ولكن على الكاتب أن يهضمها أولاً، ويطوعها لمقتضيات القص ثانياً، وأن يجعل كل شيء ينساب من داخل الشخصية ولا يرتكز على الوصف الخارجي للعالم.

د.محمد المنسي قنديل،
كاتب روائي من مصر

● الطبيب أخبرنا: «لن يعيش أكثر من أسبوع». أبي سمعه فأخذ يعد الأيام والساعات. لم يكن يريد مغادرة الحياة، متيقناً أن أمامه أشياء كثيرة لم ينهها بعد. كانت تلك المرة الأولى التي رأيت فيها على خد أبي دمعة. أغمض عينيه وسلم روحه لملائكة الجنة.



أفكر فيه كل يوم. بقدر ما أفكر فيه أدرك أنه حي. ليس كبطل ولكن كرجل، متبصر، شجاع، متواضع، راءٍ، رجل كريم باختصار.

الطاهر بن جلون،
كاتب من المغرب

● الشعبويّة، هي بمنزلة قفا الديمقراطية المقلوب، حيث إنها تتعلّق باستشارة الشعب، وبأنّ الديمقراطية دون الشعب بديهيّاً ليست ديمقراطية، غير أنّ الشعبوية تتمثّل عقبتها الكأداء في بحث انخراط الجماهير الشعبية انخراطاً مباشراً وكُلّياً، وتهدف إلى أن يتخذ جزءٌ من هذه الجماهير نفسها القرار تحت تأثير العاطفة وخارج كلّ عقلانية. وهكذا فإنّ هذا الخطر الذي تنقصه فطنة التمييز بين القرارات المهمة، قد ينشئ خطراً حقيقيّاً للعمل الجيد لكلّ ديمقراطية تليق باسمها، من خلال الفصل العادل والمناسب بين السلطات (التشريعية، التنفيذية والقضائية).



تزيفتان تودروف،
مفكر وناقد من فرنسا

● اللغة العربية لم تفقد هويتها يوماً من الأيام، ومازالت حتى اليوم لغة مرسلة ومستقبلة، وفي هذا وذاك ظلت واعية لهويتها، وحافظة لتراثها الثقافي والحضاري، رغم المحاولات المضنية التي يبذلها البعض من العرب، ومن غير العرب، لطمس هويتها، وإجبارها على استقبال وصوغ مفردات لا تتوافق معها دلالياً، والكارثة التي يغفل عنها هؤلاء أن العربية تمتلك البدائل اللغوية الكافية لاستيعاب مفردات الثقافة والحضارة وإكسابها طبيعة عربية.

د.محمد عبدالمطلب،
ناقد أكاديمي من مصر



ووهان...
شيكاغو الصين

مدينة رؤوس الطيور التسعة !

بقلم وعدسة: شريف سنبل
كاتب ومصور من مصر

استقبلتني السيدة د.تشن المستشارة الثقافية الصينية في مكتبها بشارع ابن بطوطة بالجيزة، وأخبرتني أن مقاطعة هوبيه في الصين وبصفتها الملتقى الثقافي لهذا العام (2015) قد اختارتني للسفر لألتقط صوراً فوتوغرافية للإقليم، على أن أعود لأقيم معرضاً عن هذه المقاطعة. وعلى الرغم من أنني لم أسمع في حياتي بمكان اسمه هوبيه، ويعلم اللّه وحده بما سأقابله هناك من أناس وأساطير، فقد رأيت أنني لست أقل من ابن بطوطة، أمير الرحالة المسلمين، الذي ذهب للصين بالرغم من أن أحداً من قبله لم يكن قد ذهب ولو حتى لمدة يومين.



مدينة إيشان لي

قابلني بعدها الأستاذ ليو شيينج المدير التنفيذي، وأجرى معي لقاء لوضع برنامج الرحلة، وليتأكد أنني سأتحمل مشاق السفر، وبخاصة أن المدة طويلة إلى حد ما. سألني عمّا إذا كانت صحتي جيدة وإذا كنت سأتحمل الطعام الصيني وإذا كنت أحمل معدات تصوير ثقيلة، وأخبرني أن الفنانين الذين سافروا من قبلي من مصر اشتكوا من هذه المسائل.

ضحكت وأخبرته أن صحتي جيدة طالما أنني لن أتورط في مباراة تايكوندو، وأنني أسافر بكاميرا صغيرة وحامل تصوير، وأنني كنت في بلاد كثيرة لم يتسبب طعامها في مشاكل تذكر. كان الرجل لطيفاً وأهداني كتاباً مصوراً، وناقش طلبي لزيارة سور الصين العظيم الذي ظن ابن بطوطة (خالد الذكر) أنه السور الذي بناه ذو القرنين لحجز يأجوج ومأجوج.

وافق ليو شيينج على أن أزور بكين خمسة أيام، بالإضافة إلى رحلة هوبيه، وأوصلني لباب المركز وسرنا معاً وتأكد أن صحتي جيدة وأنني أسير بلا مشاكل. وصلت مطار بكين العظيم الواحدة ظهراً، وسرت مسافات طويلة حتى وصلت لأطول طابور جوازات شاهدته في حياتي وأكثرها ازدحاماً، وبعد أن انتهيت من الطابور، هبطت سلماً طويلاً لآخذ حقائبي وأنطلق. ولكن بدلاً من الحقائب وجدت قطاراً أوصلني لقاعة هائلة تسع العشرات من سيور الحقائب، وبعدها بمسافة طويلة جداً، تم تفتيش الحقائب تفتيشاً دقيقاً لأخرج بعدها للهواء الطلق، وأبدأ رحلتي الصينية.

استقبلتني مرشدة سياحية قالت إن اسمها الإنجليزي هو بيتي، في حين أن اسمها الصيني طويل ولا ضرورة لاستعماله.

وصلت لفندق فاخر يقع في شارع رئيس، ولفت نظري أنه لا يوجد في بكين التي شاهدتها أي مبانٍ مبنية على الطراز الصيني ذي الأسطح المنحدرة، فكل ما شاهدته كان مباني حديثة للغاية وشوارع متسعة جداً وأرصفة



إيشان - أخدود المياه البللورية



عربات التليفريك فى الطريق
لأخدود ظلال المصباح

أوسع من شوارع مدننا.

تتِي تو

المرهق في تتبع حديث الصينيين بالإنجليزية هو أن عديداً من الحروف الصينية هي حروف صامتة تكتب ولكن لا تنطق، فمثلا حرف الـ «ج» أو الـ «G» هو حرف صامت يكتب فقط، وعلى سبيل المثال فإن كلمة Peking تنطق بالعربية «بكين» من دون هذا الحرف، وهذه كلمة عرفناها واعتدناها على مدى سنوات طوال، وتبدأ المشكلة حين نعرف أنه لا يوجد أحد في الصين اسمه «وانج» لأن الـ«ج» لا ينطق، وأنك يجب ألا تخطئ في اسم الزعيم العظيم «ماوتسي تونج»، الذي ينطق «ماوتسي تون»، بل وأكثر من ذلك فالصينيون يسمونه «تشايمان ماو» لأن هناك عدداً هائلاً من الحروف لا يعرفون كيف ينطقونها مثل الـ «ر». وكذلك الـ«ن» التي لا ينطقونها إذا جاءت في وسط الكلمة. ويمكنك أن تتخيل لغة لا يوجد بها حروف الـ«ج،ن،ر». ولئلا تقضي ليلتك مفكراً كيف تحولت ماوتسي تون لتصبح تشايمان ماو فسأخبرك بالسر. تشايمان هي كلمة إنجليزية تكتب «تشايرمان» Chairman أي رئيس المجلس، وحذف الحرف R لأنهم لا يعرفون كيف ينطقونه فصارت كلمة بلغة لا هي صينية ولا هي إنجليزية، وقد قررت بعد محاولات عديدة أنه في حالة

إيشان - أخدود المياه البللورية



ووهان... محلات الياميش



السيدات يقمن بأصعب الأعمال

تعسر الفهم، أن أستخدم اللغة المصرية العامية، لأنه في جميع الحالات لن يفهم أحد شيئًا.

سألت عن قيمة الفاتورة في أحد المطاعم الغربية الشهيرة فقال «تتي تو»، سألته واستفسرت فأعاد «تتِي تو». ولما كان الـR هو حرف صامت فقد استنتجت أنه يقصد «ثرتي تو» أي اثنين وثلاثين. أعطيت البائع خمسين فأعطاني الباقي ثمانية وعشرين. أعدت له عشرة، فأصر وسألته أليس الحساب تتي تو؟ فأومأ برأسه موافقاً وكرر ورائي أنها تتي تو. بعد جدال طويل ممتلئ بالضحك فهمت أن «تتي تو» معناها «توينتي تو» وليس «ثرتي تو».

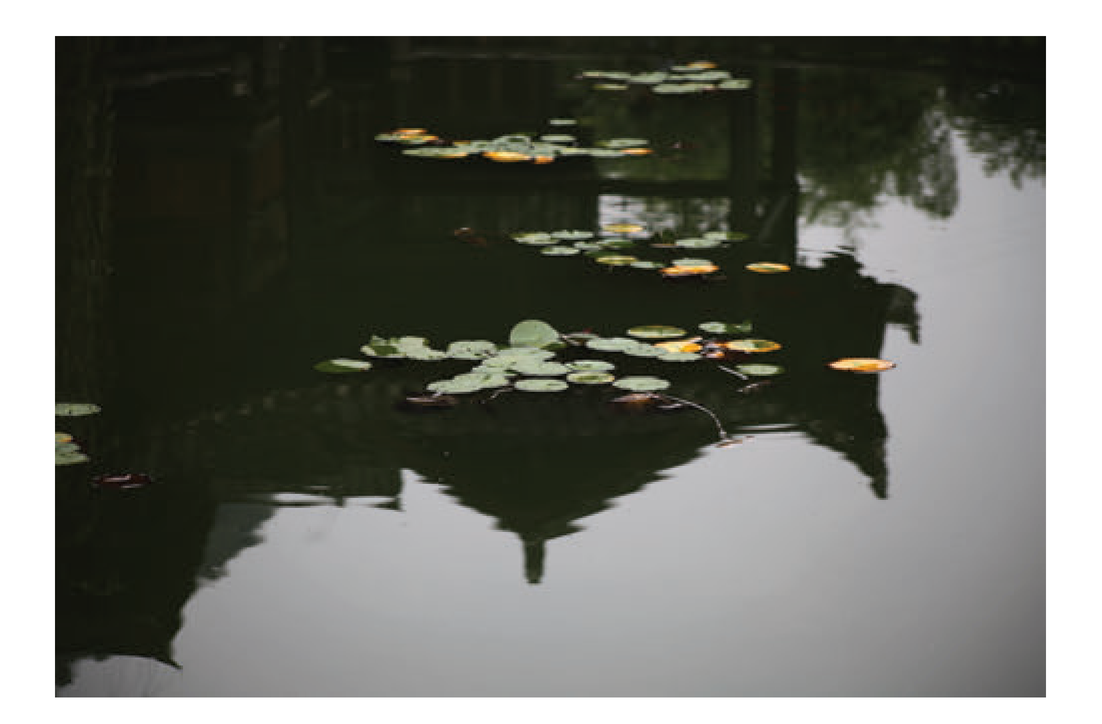
ذهبت لزيارة المدينة المحرمة والقصر الصيفي وسور الصين العظيم وأسواق الحرير وغيرها في خطوات سريعة متلاحقة انتهت برحلة في القطار النفاث إلى مدينة ووهان عاصمة إقليم هوبيه. يسير القطار بسرعة ثلاثمائة كيلومتر في الساعة، وعلى الرغم من أن مقاطعة هوبيه معروفة باسم «أرض الأرز والسمك»، وعلى الرغم من أنني شاهدت مزارع الأرز تلك من نافذة القطار، فإن جميع الصور التي التقطتها في أثناء سيره كانت «مهزوزة» نظراً لسرعته الفائقة، ومع ذلك، فإن سيدة عظيمة مبتسمة كانت مستمرة بلا توقف في تنظيف عربة القطار.

أما الأسماك فأشهرها سمكة الـ«ووشانج» أو ووشان، التي تطهى على البخار، وقد تناولتها أكثر من عشر مرات خلال زيارتي، نظراً لطعمها الشهي من ناحية خاصة عندما تمزجها بأنواع صلصة التوابل المختلفة، واقتداء بالزعيم تشايمان ماو من ناحية أخرى، لأنها كانت سمكته المفضلة.

المقاطعة غنية بالمحاصيل الزراعية والمعادن المختلفة ومنها الحديد والفوسفور والنحاس والعقيق ومعادن أخرى فشل القاموس في ترجمة



إيشان... الممشى المظلل المؤدي لأخدود المياه البللورية في نهايته



اسمها مثل الـWollastonite مثلاً.

وكما أن مواطني كل محافظة في مصر وفي العالم العربي مشهورون بصفات معينة، فإن أهل الصين يطلقون على مواطني هوبيه اسم «طيور التسعة رؤوس»، وهو اسم مشتق من طائر صيني أسطوري شرس وصعب أن يُقتَل، فيقولون «في السما تلاقي الطير أبو تسع رؤوس وفي الأرض تلاقي أهل هوبيه».

وصلت ووهان بعد أربع ساعات ونزلت في شارع رئيس مليء بالمطاعم اللذيذة الصينية والغربية، وهو أمر مهم للغاية بعد أن عانيت من الطعام في بكين. وقد أدهشني أمران: الأول هو أن أهل ووهان يتحدثون مثلي بامتعاض عن طعام بكين وكأنها دولة أخرى تبعد مئات الألوف من الأميال، والأمر الثاني هو أن السيدات يتجمعن ليلاً على الأرصفة الواسعة ويرقصن في جماعات يصل عددها إلى ثلاثين سيدة ونحو رجل أو اثنين أو ثلاثة، ويعتبرون الرقص نوعاً لطيفاً مسلياً من أنواع الرياضة.

المدهش هو أن أولئك السيدات لا يتعرضن لأي مضايقات، وقد أجابت الرقصة عن تساؤلي بخصوص الطعام. فعلى الرغم من أن الصينيين يفرطون في إضافة الزيوت لكل أنواع الطعام، فإن السيدات المسكينات لا يتمتعن بأجساد ممتلئة. وقد أخبرتني إيمي (وهو الاسم الإنجليزى للمرشدة الووهانية) أن ذلك يرجع للإكثار من الحركة وممارسة أنواع الرياضة المختلفة.

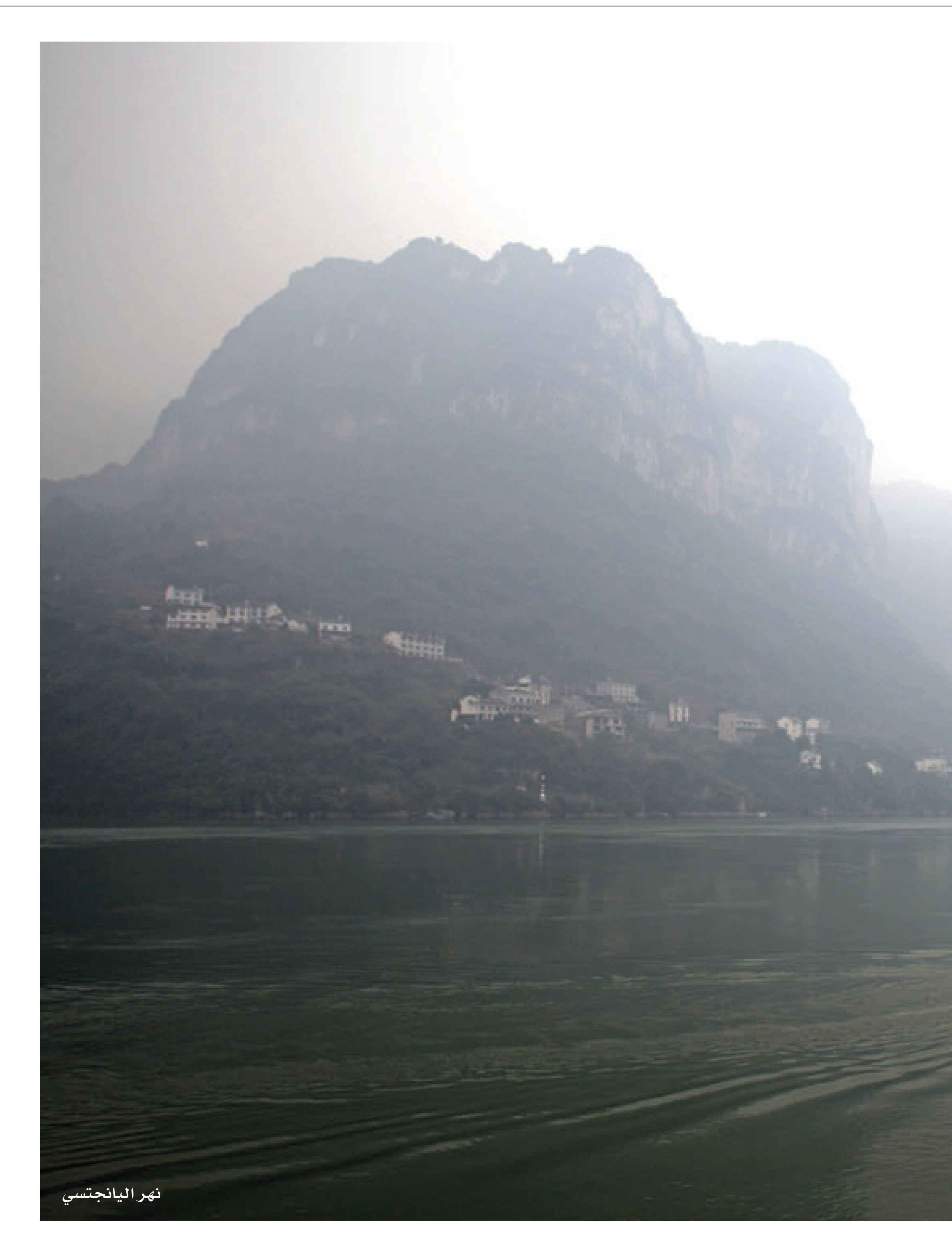
ووهان وشيكاغو وآخر الأباطرة

تقع ووهان عاصمة هوبيه في وسط ملتقى نهري اليانجتسي وهان. وتعرف بأسماء عدة، منها مثلاً «طريق المقاطعات التسع»، لأنها ملتقى عشرات من السكك الحديدية والطرق والطرق السريعة البرية والنهرية التي تمر عبر المدينة وتربط الأقاليم الرئيسة في الصين.

وبسبب دورها الرئيس في النقل الداخلي، فإنها اكتسبت أيضاً اسم «شيكاغو الصين».

والمدينة لها دور وطني بارز في تاريخ الصين الحديث يبرر اسم «طيور التسعة رؤوس» الذي





نهر اليانجتسي



حديقة ووهان

يطلق على سكان هوبيه. ففي عام 1911 كانت ووهان هي موقع الانتفاضة التي أطاحت بأسرة «كوينج» Qing الإمبراطورية وبالنظام الإمبراطوري الصيني بأكمله، وهو ما شاهدناه في الفيلم الشهير «الإمبراطور الأخير».

وبعدها بعشر سنوات، كانت ووهان مرة أخرى مركزاً للمقاومة والثورة ضد حكومة شيانج كاي تشيك وأدت لإسقاط نظامه، وكانت بعد ذلك سبباً في ظهور الزعيم الأسطوري ماوتسي تونج.

وكانت آخر ثورات المدينة في عام 1967 ضد الضغط المتزايد لما عرف باسم «الثورة الثقافية» وكانت زوجة الزعيم ماو تقودها، وأدت لتراجع عجلة النهضة الصينية، التي استردت عافيتها الآن.

اللواء الثعبان ورفيقه السلحفاة يهزمان الفيضان

تقع مدينة ووهان على ضفاف نهر اليانجتسي، وعلى الرغم من أن نهر النيل يفوقه طولا، إلا أن مجرى النهر في هوبيه يتسع أحياناً حتى تظنه بحراً، وقد هدد المدينة بالغرق مرات عدة، إلا أن تراكم الطمي على شكل ربوتين عاليتين قد حماها من هذا المصير.

ويخبرنا القدماء بأن إمبراطور السماء قد تأثر ببسالة «يو» إمبراطور الأرض في دفاعه عن أرضه ضد فيضان اليانجتسي، فأرسل اللواء الثعبان وزميله اللواء السلحفاة (زحلفة) ليتحكما في فيضان النهر.

هبط اللواءان من السماء، وبعد دراسة مستفيضة لجغرافية المنطقة، تحولا إلى هضبتين وأحاطا بالنهر، فسيطرا عليه وأصبح السكان ينعمون بحياة هادئة مثمرة.

وهبط طائرا كركي من السماء ليحتفلا مع السكان بهذا النصر، واستقرا فوق هضبتي الثعبان والسلحفاة اللذين يرمزان للحكمة وطول العمر، وهما السلاحان اللذان برزا في



معركتهما مع الفيضان.

برج الكركي الأصفر ومعركة البقاء

الجو في الصين بصفة عامة مليء بالضباب والتصوير فيه صعب، وكنت أختار المكان الذي نزوره بحسب الشمس التي أشرقت ذات صباح، فذهبنا إلى «برج طائر الكركي الأصفر». والكركي هو طائر أبيض ذو ساقين طويلتين كالبجع ويعرفه قراء كتاب «كليلة ودمنة» إذ جاء ذكره فيه مرات عديدة، وقد صار أصفر في هذا البرج لأنه طائر مسحور، وعلى مدى القرون تسببت الحروب والحرائق وخطط التعمير في هدم هذا البرج كلياً وجزئياً سبع عشرة مرة، ومع ذلك فقد بقي رمزا لمدينة ووهان. وعلىالرغم من أن الدولة قررت في عام 1957 إزالته وبناء جسر اليانجتسي على أنقاضه، فإن البرج قد بعث حياً من بين الأطلال بعد 24 عاماً في عام 1981، حين قررت سلطات مدينة ووهان إعادة بناء ذلك المبنى التراثي الجميل على تل الثعبان في مكان يبعد عن مكانه الأصلي بكيلومتر واحد.

وهناك أساطير عديدة عن أسباب بناء ذلك البرج، أشهرها أن راهباً طاوياً (الطاوية هي معتقد قديم لدى أهل الصين) جاء لمنزل يسكنه صانع جرار وطلب أن يشرب، فتجاهله الرجل، ولكن ابنه قدم له مشروباً، وبعد زيارات مجانية عدة قام الراهب بسداد دينه بأن رسم طائر كركي يرقص كلما صفق له الابن. وهكذا رقص الكركي وسمع أهل المدينة بذلك الراقص العجيب وصاروا يزورون المنزل وزادت ثروة العائلة التي بنت البرج تكريماً للراهب الطاوي.

ولأوضح الصورة، فأنا ذهبت للصين معتقداً أن جميع المباني كما نراها في الأفلام هي مبان صغيرة لها أسطح منحدرة بأطراف مدببة، وكانت الصدمة أن شركات المقاولات (كما هي الحال في بكين والقاهرة) تقوم بصورة منتظمة بهدم تلك المنازل وبناء مبان شاهقة حديثة مكانها، وهكذا



فإن أي مبنى صغير ذي سقف منحدر يصبح أثــراً بديعاً في عيون الــزوار، وكائنــاً قبيحاً يجب هدمه في عيون شركات المقاولات.

وصلنــا للبــرج ونزلت من الســيارة وانهمكت في تصوير المبنيــين البديعــين الكائنــين أمامــي والــزوار الصينيــين المتناثرين عليهما إلى أن لفتت إيمــي نظري إلــى أنني أضيع الوقت في تصوير بوابة البرج! اجتزنــا البوابــة وركبنا حافلة تشــبه الطفطــف (مجموعة مقاعــد يجرها ســائق) تقوده صينيــة حســناء وصعدنا إلى قمــة تــل الثعبان حيــث ظهر البرج الــذي كان مختبئاً وراء الأشجار.

وجدت نفســي بين برجين أحدهمــا مرتفــع والآخــر أكثــر ارتفاعــاً. صعدت الأول مســتبعداً حتى محاولة صعود الآخــر. فــي أثنــاء صعودي ســمعت صدى عميقــاً لرنين جرس عملاق، وعلى الرغم من ارتفاع الصوت، فإنه لم يسبب أي إزعــاج، فهو صوت متناغم تماماً مع المــكان. وصلت إلى القمــة فوجــدت أن الأطفال والكبار يدفعون رسوماً رمزية لكــي يدقــوا ذلــك الجــرس الهائل.

وقد جذبني بــرج الكركي الأكثر ارتفاعاً إلى تسلقه وقد اجتذبني سور الصين والجبال التي رأيتها في ما بعد. الصعود لا يتســبب فــي أي إرهــاق، واختلاف المشــاهد والرســوم

إيشان... أخدود المياه البللورية

الحائطية ينسيك الدنيا وكل ما فيها. كل زاوية في كل طابق تختلف تماماً عن غيرها، وفي كل دور أشعر أنني ألتقط صوراً تختلف عما التقطته من الزاوية نفسها في الدور السابق، وسبحان الله في ذلك الإبداع المعماري المبتكر.

أهم ما رأيته هو تل السلحفاة في الطرف الغربي من ووهان، وكذلك تمثال الكركي الذي على الرغم من ضخامته، فإنه يظهر فجأة من اللامكان.

بدأت المرشدة في استعجالي لأنهم معتادون على تناول الطعام في الثانية عشرة تماماً، وبمنتهى الدقة وبلا دقيقة تأخير، فشرحت لها أنني أتناول وجبة الغداء في الساعة الرابعة، والأهم أنني أنتظر الشمس حتى تضيء الجانب الغربي من البرج.

تابعنا الجدال حتى الواحدة ولم أستطع أن أجعلها تنتظر أكثر من ذلك. اكتشفت بعدها مشكلة عجيبة تنفرد بها الصين، هي أن المطاعم الصينية (وهي أغلبية هنا) تغلق أبوابها في الواحدة، وكان عليها أن تتصل بمطعم ليفتح أبوابه خصيصاً لنا، ووقفت سيدة محترمة لخدمتنا وحدنا وقررت بعد ذلك أن أتبع التوقيت الصيني، حتى لو أدى ذلك إلى أن أترك الشمس وزوايا الإضاءة والتصوير.

بعد الغداء الصيني جذب انتباهي سرب بديع مكون من أربع عرائس بفساتين الزفاف البيضاء، يمشين بسرعة في الطريق ويدخلن حديقة اسمها «تينجتاو للمناظر الخلابة»، فتتبعتهن بسرعة وأخبرت آني باللغة العربية أن تشتري لي تذكرة، ويا للعجب، فقد فهمت واشترت التذكرة. عرفت أن العرائس والعرسان يذهبون هناك لالتقاط الصور التذكارية. واكتشفت أيضاً أن «تينجتاو للمناظر الخلابة» كانت هي الخطوة التالية في رحلتنا.

تبلغ مساحة «تينجتاو للمناظر الخلابة» 13.50 كم مربع، بالإضافة إلى 11 كيلومتراً من المساحات المائية، وتحتوي على غابات كثيفة وبحيرات واسعة وأبنية متناثرة وشواطئ جميلة



حديقة ووهان



برج الكركى الأصفر



أخدود ظلال المصباح... الذرة تجلب الخير



فتيات الزي العسكري في فندق إيشان

متعرجة. وتشتهر البحيرة بتاريخ طويل لحضارة الـ Qu Yuan (كما تقول اللافتات)، ومع الأسف لم تخبرنا المرشدة أي شيء عن هذه الحضارة، وأخبرتنا الشبكة العنكبوتية واسعة الاطلاع بأشياء كثيرة مختلفة تحمل الاسم نفسه.

ركبنا سيارة «طفطف» مع سائقة حسناء تشبه سائقة «طفطف» برج الكركي الأصفر للتنزه في الحديقة الشاسعة المطلة على البحيرات الواسعة كالبحر، وصرت مذهولاً من جمالٍ ووهان التي لم نسمع عنها ولا عن جمالها أبداً. وفهمت أن



«تشايمان ماو» له مكان منفصل في هذه الحديقة، ولكنه مغلق لأنه لا يجوز لكائن من كان أن يرى ما كان هو يراه، حتى بعد مرور أربعين عاماً على وفاته.

كانت نزهتنا بعد ذلك في منطقة الأسواق الشعبية، وهي مكان يشبه سوق العتبة بالقاهرة. بدأت الزيارة بأسواق العطارة والمكسرات، وقد أدهشني رخص الأسعار والأنواع التي لم نسمع عنها من قبل. بعدها كانت زيارة لمبنى الأحذية وحقائب السيدات، تبعتها بزيارة لمجمع هائل للملابس من خمسة أدوار، والنظام فيه هو أنك كلما صعدت ارتفعت معك الأسعار، فاكتفيت بالدور الرابع... (لاحظ أننا كنا في منطقة أسعار شعبية، ولكن الأسعار تتزايد بسرعة وكذلك النوعية تصبح ممتازة وليست كالبضائع الصينية الرخيصة التي نراها في بلادنا).

وفي جولتنا في مناطق الأسواق، لاحظت كيف أن الرجل الصيني لا يسعى للمساواة بالمرأة بأي شكل، فالأعمال الشاقة التي رأيتها، كتنظيف وكنس ومسح بلاط الأسواق التجارية والشوارع والقطارات وقيادة الطفطف تنفرد بها المرأة تماماً، بل وأحياناً تقوم السيدات بحمل البضائع الثقيلة في الأسواق.

شيان شيان وأوشان

انتهت زيارة ووهان وركبت قطاراً بطيئاً يسير بسرعة

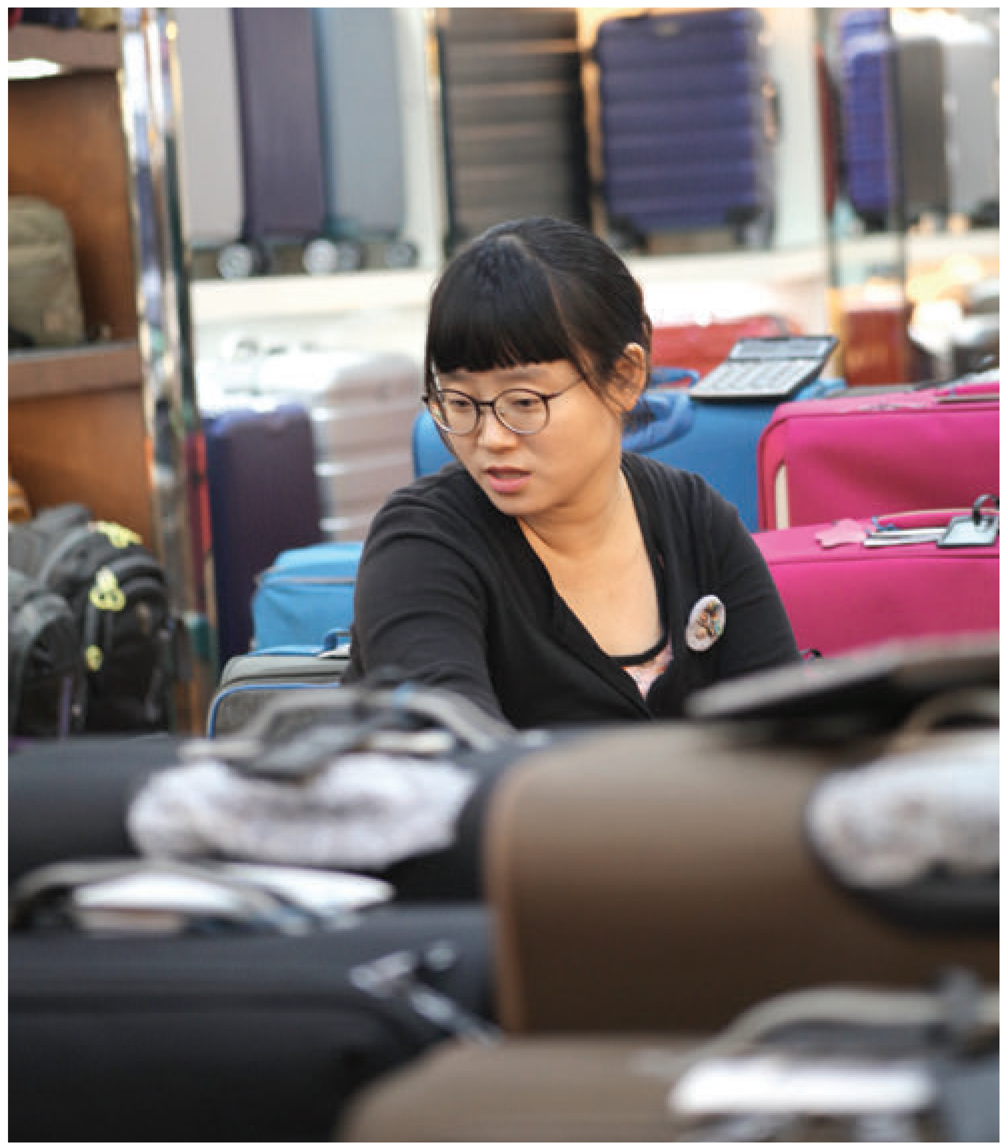
أبراج محيطة بالكركي الأصفر ومدينة ووهان في الخلفية



ووهان... محال الملابس

مائتي كيلومتر في الســاعة، متجها لمكان اســمه «إيشان». عند الوصول مررت بتجربة لابد أن تمر بها لتكتمل خبراتك الصينية. أولاً الاسم المكتوب علــى التذكرة يختلف عن الاســم الــذي أعرفه، والاثنان يختلفان عن الاســم الذي ذكرته الإذاعة الداخلية، وكان من حسن الحظ أنني سأنزل في المحطة النهائية وبالتالي فلم يتحرك بي القطار.

المهم، نزلت مــن القطار محملاً بحقيبتي الثقيلة والحقيبة الأخرى التي صارت محملة بالتذكارات والهدايا وقناع الوقاية من الغازات الذي يوزعونه في كل فنادق الصين، وحقيبة الكاميرا، التي على الرغم مــن وزنها الخفيف، فإنها تحتاج إلى ذراع ثالثة. لا أذكر بالضبــط كيف ضللت طريقي في محطة القطار، ولكني أذكــر معاناتي وأنا أهبط



ووهان... محال حقائب السفر

السلالم الطويلة محملاً بهذه الحقائب، والسيدة البالغة اللطف والرقة التي اقتربت وحملت عني أكبر الحقائب حجماً وهبطت بها السلم، وأنا أتمتم قائلاً «شيان شيان»، أي شكراً. وصلت أخيراً لباب في صالة هائلة، ممتلئة بالركاب الذين يدخلون، وكان واضحاً أنني وصلت لصالة المغادرة بدلاً من صالة الوصول، وأنني وصلت لمرحلة الـ«هوندون» بالصينية أي «الهيول» بالعربية أو Chaos بالإنجليزية، أو الضياع بلغتنا العامية.

وقفت على البوابة والجميع يدخلون إلا أنا، فقد كنت بالداخل فعلا. جاءت سيدة من الشرطة وطلبت مني الخروج فرفضت خوفاً من الـ «هوندون» وأخبرتها بالعربية أنني ضيف على

الحكومة الصينية، فأشارت إلى مقعد بجانب البوابة وطلبت مني الجلوس. جاء رجل شرطة ليجلس في المكان الذي كنت جالساً فيه، وأشار إلي بالخروج فرفضت وجاءت السيدة فشَرَحَت له بالصينية ما كنت قد شرحته لها بالعامية المصرية، وفهم هو وأشار إلي بأن أتبعه. تبعته في ممرات داخلية مظلمة تحت السلالم الرئيسة، وتوجست خيفة أن يكونا قد أساءا فهم ما قلته، لكنه في الحقيقة أثبت كفاءة مذهلة إذ وصل بي إلى سيدة تحمل لافتة مكتوباً عليها اسمي.

اختطفتني السيدة مبتسمة وقالت إننا نتأخر على آخر قارب. كان اسمها سيوالو، وكانت أول مرشدة لا تستخدم اسماً صينياً وآخر إنجليزياً. ركبنا عبّارة عبرت بنا محيط اليانجتسي وصولاً إلى فندق أنيق على الشاطئ، وبدأت رحلة المعاناة حاملاً الحقيبة الثقيلة صعوداً وأنقذني أحد البحارة إذ حملها ببساطة إلى فندق «أخدود ظلال المصباح»، وانصرف من دون أن ينتظر منحة أو أي شيء.

وصلت الفندق ووجدت ثلاث فتيات أنيقات في زي عسكري يجلسن وراء مكتب الاستقبال ويبتسمن، قمن بإعطائي غرفة تطل على النهر تقع في الدور الثالث. سألت عن المصعد فاعتذرن وقلن إنه لا توجد مصاعد. اعتذرت أنا الآخر وطلبت غرفة في الدور الأرضي فاعتذرن وقلن إنه لا يوجد في الدور الأرضي غرف. في النهاية حصلت على غرفة في الدور الأول. وقامت إحدى الفتيات وهي تبتسم بحمل حقيبتي التي يزيد وزنها على وزنها وحملتها نصف المسافة، ولم أستطع الموافقة على ذلك.

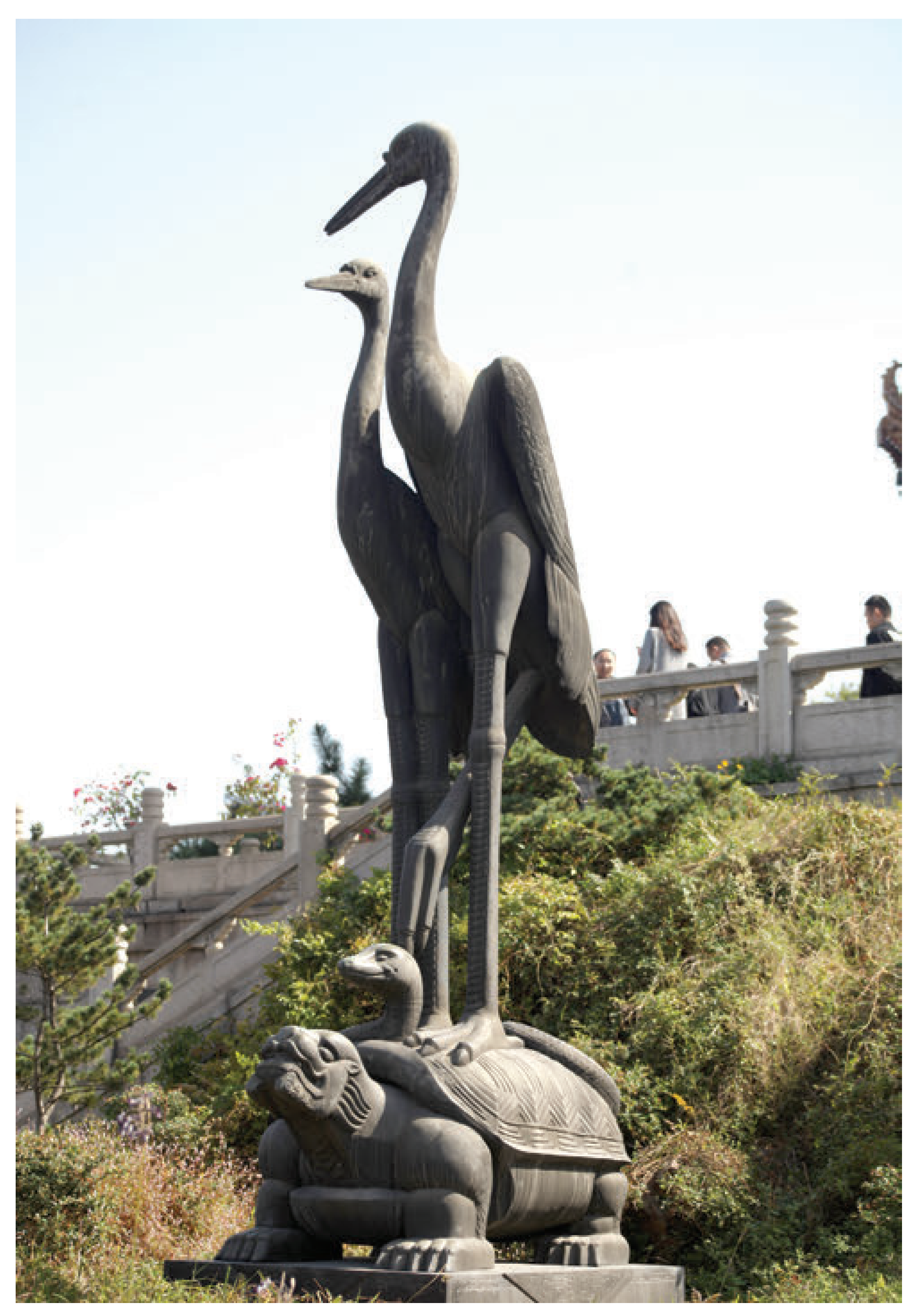
في الصباح ذهبنا في مسيرة طويلة إلى ممشى مظلل وسرنا على النهر في جو بديع، واستمرت المسيرة حتى بدأت أشعر أنها قد طالت جداً. نظرت حولي مستغيثاً فوجدت رجلاً صغير الحجم جالساً على الأرض وبجواره مقعد خشبي، فسألت عنه وقالت سيوالو إنه يحمل الزوار مع رفيقه ويسير بهم. قام الرجل «الصغير» ونادى زميله الأصغر حجماً منه، وحملاني على المقعد الخشبي وانطلقا يجريان وصعدا السلالم بي ونزلا وهما يغنيان أغنية شعبية. وصلنا وأنزلاني وابتسما في سعادة وهما يتناولان أجرهما. قالت سيوالو إنني يجب ألا أشعر بالذنب فقد ساعدتهما على مواجهة مصاريف الحياة.

دخلنا أخدود «المياه البلورية» ولم أكد أخطو خطوات عدة حتى أدركت أنني أمام منظر من أجمل ما يمكن أن تشاهده عيون البشر. الأخدود عميق وسط منحدرين مغطيين بالخضرة والأشجار، وفي نهايتهما نبع ساكن يبدو كالكريستال وعليه صيادون. انتهى الكلام ولكني أشعر أن الكلمات خانتني ببساطة. لا يوجد كلام أستطيع قوله، وربما كانت كلمات واحد من الزوار هي خير ما يعبر عن المكان، إذ قال إن هذا المكان يبدو وكأنه أحد الأماكن التي صنعها الله سبحانه وتعالى ليعطينا لمحة عما ستكون عليه الجنة.

سرت والزوار على الجانب الأيسر من الينبوع، وإذا بكلب ضخم يعدو بسرعة متتبعاً سرباً من القرود على الأشجار، وسيدة جالسة على قارب في الينبوع بجوار شباك الصيادين، وأخرى جالسة على جسر تستمع لأشعار أحد العاشقين الواقف على أول الجسر، وسواقٍ خشبية وصياد عجوز كأننا في أسطورة قديمة عادت للحياة، وفي نهاية كل ذلك شلال ينساب على الصخور في هدوء، وقال أحد المارة إن الشلال ضعيف وهادئ لعدم سقوط أمطار.

وفجأة سمعنا تفجيرات على الجبال، وقال واحد من العالمين ببواطن الأمور إن خط الكهرباء انفجر، ونظر له واحد من السكان المحليين وقال إن هذا هو ما يقوله سكان المدينة. نظرت إليه في فضول فقال إن هذه ليست انفجارات وإنما هي صواريخ نارية يطلقها أحد سكان الجبل يدعونا بها للغداء أو العشاء لأنه أنجب طفلاً، أو لأن أحد أبنائه يتزوج. تذكرت أن الصينيين هم أول من اخترع الصواريخ النارية. ولا تسألني كيف استطعت تتبع الحوار الدائر باللغة الصينية.

بعد انتهاء اليوم عدت للفندق، حيث قضيت ليلة هادئة للغاية بعد أن علمت أنه للحصول على المياه الساخنة علي أن أفتح صنبور المياه والانتظار لمدة «تتي تو» دقيقة. يا سلام على الدقة!



طائر الكركي والسلحفاة والثعبان



أخدود ظلال المصباح... العرض المسرحي الحزين

في الصباح انطلقنا مرة أخرى إلى أخدود ثانٍ هو أخدود «ظلال المصباح». وصلنا إلى محطة التليفريك ولم ننتظر كثيراً، وفتح الرجل باب العربة وصاح «بسرعة».

ركبت بسرعة وقبل أن يغلق الباب صاحت سيوالو: «اقفز بسرعة عندما تصل». المناظر خلابة كما هي دائماً عند ركوب التليفريك. عندما اقتربت من القمة هدأت العربة من سرعتها وقفز رجل وفتح الباب وركض بجانبي صائحاً «كيان» (مع ملاحظة أن حرفي الكاف والنون صامتان تقريباً)، فقفزت من العربة وهي سائرة وأخذت أراقب راكبة أخرى تقفز فيها وهي في طريقها للهبوط مرة أخرى. نظرت ورائي فإذا بسيوالو قادمة في العربة التالية، وهناك حوالي خمسون عربة تتحرك على التوالي كي تستوعب هذا العدد الهائل من الزوار، وأنه لا وقت لوقوف كل منها ثلاث دقائق حتى يهبط الركاب وثلاثاً أخرى ليصعد الركاب في طريقهم للنزول. وهكذا فالمجتمعات كبيرة العدد لها قوانينها الخاصة بها.

وصلنا القمة وأشارت سيوالو إلى صخرة هائلة ضخمة تقف على سن مدبب، تسمى بالمصباح وسمي الأخدود باسمها. مع الأسف الصورة لن تكون واضحة لأنها مغطاة بالأشجار، وبدأنا النزول. على قمة أخرى قريبة يجلس فتى يعزف على ناي صيني منتفخ كالبالونة، يرتدي ملابس تقليدية ولا يتوقف عن العزف. ظننت أنه يستجدي بعض النقود فحاولت الصعود له ولكن كانت كل الطرق مسدودة. تعجبت من هذا الشحاذ الذي يجلس في مكان مستحيل كهذا، ولكن اتضح أنه فنان وعمله هو أن يجلس هناك ليعزف مرحّباً بالضيوف، فالأخدود هو قلعة للحرف التقليدية تعرض فيها الصناعات المنقرضة... إلخ.

هبطت سلماً طويلاً وجدت فيه مقهى بسيط يبيع الشاي الصيني الأخضر الصحي الذي لا أحتمل طعمه، وبعض المشروبات المثلجة. تابعت النزول على مهل حتى صاحت سيوالو لكي أسرع فالعرض على وشك أن يبدأ. هبطت بسرعة ووجدت عرضاً لبعض الفنون التقليدية الصينية كالأكروبات، وبعد أن انتهى جلست لألتقط بضع صور ولكن سيوالو صاحت ثانية، فذهبت مسرعاً لمشاهدة عرض حزين عن كيف كانت الفتيات ينعزلن جانباً لصناعة الحرير، وما إن انتهى حتى نظرت لي سيوالو وفهمت ما تريده، فقمت مسرعاً متجهاً للعرض الثالث، الذي كان عرضاً لعرائس الظل، وهو فن اخترعته الصين القديمة، تماماً كالصواريخ النارية.

بعد العرض نظرت لسيوالو محذراً من أنني لن أتحرك وسأجري لقاء صحفياً مع الفنان. وسرنا بعدها في شوارع القرية القديمة التي تحتوي على الحرف والمنازل القديمة والفنانين، وانتهى اليوم بمسيرة طويلة لقارب للفندق وصنبور المياه المثلجة لمدة «تتي تو» دقيقة.

وجاء دور الاقتصاد بعد ذلك، إذ إن الصين قد شيدت أعظم وأكبر سد في العالم في هذه المنطقة فوق اليانجتسي وسمته «سد الأخاديد الثلاثة». زيارة السد متعة في حد ذاتها، وتبدأ بصعود أعلى سلم كهربائي رأيته في حياتي وصولاً إلى نصب تذكاري هائل يقف أمامه جميع الزوار ليلتقطوا صوراً «سيلفي» وغيرها، وبعد مسيرة جميلة وسط حقول الورد ونزول ثم الحافلة ثم السد، الذي لم أستطع التقاط صورة واضحة له نظراً لأن نسبة الضباب كانت أعلى من العادي بكثير (ويقال إنه تلوث، وإن كنت لا أفهم كيف يمكن لهذا التلوث أن يوجد في مساحات مائية هائلة كهذه)، وأخيراً تصل لمحلات تجارية شعبية ورسمية لبيع المحاصيل الزراعية ومعها التذكارات. تستقل خلال هذه الرحلة حوالي ستة أنواع من المواصلات حتى تخرج. السد ينتج كهرباء تكفي للمنطقة بالكامل، بالإضافة لتوفير المياه للزراعة.

وفي النهاية، أمضيت ليلتين في إيشان في فندق فاخر وطعام غربي كالذي نأكله في كل أنحاء العالم، ونزهة جميلة ثم قطار ثم طائرة لبكين، وبعد وجبة صينية لذيذة في المطار طرت للقاهرة متمنياً أن أزور بقية مقاطعات الصين التي لم نسمع عنها شيئاً ■

مكانة الاقتصاد في الحركة الصليبية

د. عادل زيتون
كاتب وأكاديمي من سورية

لعب الاقتصادُ دوراً مهماً في تاريخ الحركة الصليبية، ولم يتجل هذا الدوْر في دوافعها ووقائعها فحسب، وإنما تجلى في نتائجها ومصيرها أيضاً. ويستهدف هذا المقال إلقاء الضوء على أثر العامل الاقتصادي في تشكيل هذه الحركة، ولاسيما أنها فشلت في تحقيق أهدافها السياسية والدينية، في حين نجحت في الميدان الاقتصادي الذي ترتب عليه إحداث تبدلات عميقة في بنية المجتمع الأوربي في أواخر العصور الوسطى.

تحدثنا المصادر التاريخية أن الدوافع الدينية والسياسية لم تكن هي الدوافع الوحيدة للحروب الصليبية، وإنما تتصدرها جميعاً الدوافع الاقتصادية. وتؤكد أن أوربا الغربية كانت تعاني، قبيل الحملة الصليبية الأولى عام 1096، أزمة اقتصادية قاسية نتيجة توالي سنوات القحط والجفاف وانكماش الأراضي الزراعية وازدياد عدد السكان وكثرة الحروب المحلية، فضلاً عن حياة البؤس التي كانت تعيشها طبقة الفلاحين بكل فئاتها في ظل قيود النظام الإقطاعي. ولهذا فعندما دعا البابا أوربان الثاني للحرب الصليبية في مجمع كليرمونت بفرنسا عام 1095، كان في مقدمة الذين استجابوا له أبناء هذه الطبقة والفقراء والمعدمون، وكان دافعهم إلى ذلك التخلص من الجوع والعبودية واكتساب المغفرة، ولاسيما أنهم كانوا يؤمنون بما وعد به الإنجيل بأنهم سيخرجون من حياة البؤس والشقاء التي يعيشونها إلى الأرض التي تفيض باللبن والعسل.

أما طبقة التجار التي كانت تحكم الجمهوريات الإيطالية الثلاث: البندقية وجنوه وبيزا، فقد دعمت هذه الحركة بحثاً عن الثروة والسيطرة على تجارة شرق المتوسط، ولهذا ما كاد يصل الصليبيون إلى الشمال السوري ويحاصرون أنطاكية عام 1097 حتى اندفعت هذه الجمهوريات لمساعدتهم. وطالما أنها كانت، بالإضافة إلى مرسيليا الفرنسية، هي القوى البحرية الأساسية في أوربا آنذاك، فلم يكن بإمكان الصليبيين احتلال مدن الساحل من دون مساعدة أساطيلها، كما لم يكن بالإمكان وصول المساعدات إليهم من الغرب كالجنود والمؤن والأسلحة وآلات الحصار والحجاج ما لم تنقلها هذه الأساطيل. وينبغي أن نؤكد، ثانية، أن دعم هذه الجمهوريات للصليبيين لم يكن إكراماً للمسيحية أو ابتغاءً لمرضاة الله، وإنما تحقيقاً لمصالحها الاقتصادية، فقد كان شعار البنادقة في



عصر الحروب الصليبية: «لنكن بنادقة أولاً ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين». ولهذا لم تقدم الجمهوريات المساعدات للصليبيين إلا بعد توقيع معاهدات رسمية بين قياداتهم، تتضمن الامتيازات التي ستمنح لها في هذه المدينة أو تلك بعد احتلالها.

الوقائع والامتيازات

شاركت الجمهوريات الإيطالية الصليبيين في الاستيلاء على مدن الساحل الشامي من أنطاكية شمالاً حتى عسقلان جنوباً، فضلاً عن بعض المدن الداخلية. فالجنوية مثلاً ساعدوا الصليبيين في الاستيلاء على أنطاكية وأرسوف وقيصرية وعكا وطرابلس الشام، وساعدهم البنادقة في احتلال حيفا وصيدا وصور، والبيازنة بتحصين القدس واحتلال اللاذقية. وكانت الامتيازات التي منحها الصليبيون لهذه الجمهوريات عديدة، منها أن يكون لكل منها في المدينة حي وسوق وكنيسة ومخبز وحمامات والإعفاء من بعض الرسوم. وتمسكت الجمهوريات بهذه الامتيازات، فالجنوية مثلاً طلبوا من الملك الصليبي بلدوين الأول أن يضعوا في كنيسة «الضريح المقدس» في القدس لوحةً نُقش عليها بحروف ذهبية الامتيازات التي مُنحت لهم والخدمات التي قدمتها جنوة للصليبيين، ووافق الملك على اقتراحهم.

وبلغ الاستغلال الاقتصادي للحركة الصليبية ذروته عندما حولت جمهورية البندقية الحملة الصليبية الرابعة عام 1204 عن هدفها الأصلي وهو احتلال مصر إلى احتلال القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية الأرثوذكسية. وقد تمَّ ذلك بناءً على اتفاقية سرية وقعتها البندقية مع السلطات الأيوبية في مصر، اشتملت على منح البنادقة امتيازات تجارية في الإسكندرية مقابل تحويل الحملة عن مصر.

وبالفعل حُولت الحملة التي كانت تقلها أساطيل البندقية، وهي في عرض البحر، واحتلت القسطنطينية واقتسم المنتصرون أقاليم الإمبراطورية وجزرها، واختاروا من بينهم إمبراطوراً لاتينياً على القسطنطينية. ومُنحت البندقية مكافأةً لها ثلاثة أثمان القسطنطينية، كما أصبح لقب حاكم البندقية: «سيد ربع ونصف ربع جميع الإمبراطورية البيزنطية».

السلع والمتاجر

إن الامتيازات التي حصلت عليها الجمهوريات في المملكة الصليبية جعلت من جالياتها كيانات مستقلة إدارياً وقضائياً ومالياً، وحولت المدن الساحلية إلى أسواق عالمية تتوافر فيها متاجر الشرق والغرب. فقد حمل تجارها إلى أسواق الغرب منتوجات الشام ومصر، مثل: البرتقال والتين واللوز والأعشاب الطبية والبلسم وزيت الزيتون والسكر وغيرها، وكذلك الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والسجاجيد والأواني الخزفية والزجاجية. كما حملوا سلع الشرق الأقصى التي كانت تصل إلى مدن الساحل الشامي على أيدي تجار مسلمين ومسيحيين، مثل: الحرير الصيني والتوابل الهندية بأنواعها والأحجار الكريمة. وجلبت السفن الإيطالية معها من الغرب إلى أسواق الشام ومصر الأخشاب والحديد والرقيق. وكانت البابوية منعت تزويد العرب المسلمين بهذه المواد لأنها تعزز من قدرات جيشهم الذي يحارب الصليبيين، فمن الأخشاب والحديد تصنع السفن والأسلحة، ومن الرقيق تتشكل معظم فرق هذا الجيش، ولكن قرارات البابوية لم تجد في معظم الأحيان آذاناً صاغية.

النقد والصيرفة

كان من النتائج المهمة لتطور التجارة وتراكم الثروات التي تحققت في العصر الصليبي إصدار العملات الذهبية. فالعملات الفضية التي كانت سائدة وقتذاك لم تكن مقبولة في التجارة الدولية، فأصدر الملوك والأمراء الصليبيون عملات ذهبية، وكانت تقليداً للدنانير الفاطمية. ولكن النقود الذهبية التي حظيت بمكانة مهمة في التجارة الدولية وقتذاك هي تلك التي أصدرتها جمهورية فلورنسا عام 1252 وعرفت باسم «الفلورين»، و«الدوكات» التي أصدرتها جمهورية البندقية عام 1282. ومن النتائج الاقتصادية المهمة أيضاً نشأة

المصارف وما يرتبط بها من عمليات القروض والودائع. فلم يعد التجار والحجاج والمحاربون بحاجة إلى حمل النقود معهم وتحمل مخاطر الطرق، وإنما أصبح بإمكانهم إيداع ما يرغبون في حمله من أموال في أحد فروع المصارف في الغرب ومن ثم تسلم المبلغ نفسه من أحد فروعه في القدس أو عكا أو روما مثلاً. والواقع أن هذا النشاط المصرفي لم يكن حكراً على الجمهوريات الإيطالية مثل البندقية وجنوه وفلورنسا فحسب، وإنما قامت به منظمات الفرسان الرهبان أيضا وخاصة «فرسان المعبد»، الذين أصبحوا في القرن الثالث عشر كبار ملاك المصارف والمؤسسات المالية في الغرب والإمارات الصليبية، نتيجة ممتلكاتهم الواسعة في الشرق والغرب. فمثلاً لولا القروض التي قدمها فرسان المعبد للملك الفرنسي لويس السابع لما تمكن من القيام بالحملة الصليبية الثانية. وقد أثارت ثرواتهم طمع الملك الفرنسي فيليب الرابع فحلَّ منظمة فرسان المعبد وصادر ممتلكاتهم عام 1312.

الاقتصاد ومصير المملكة

تتحمل المنافسات الاقتصادية الحادة والمنازعات المسلحة، التي دارت بين الجاليات التجارية الأوربية عامة في المملكة الصليبية، مسؤولية كبيرة في دمار هذه المملكة. ومن الأمثلة على ذلك الحرب التي نشبت بين جنوه والبندقية حول ملكية أحد الأديرة في عكا، حيث قامت جنوه باحتلاله عنوة عام 1256 ثم أغارت على حي البنادقة في المدينة. وبعد قتال استمر ثلاث سنوات انتصر البنادقة وحلفاؤهم البيازنة وطردوا الجنوية من حيّهم واقتسموه في ما بينهم. وتوقف الصراع بين الجمهوريات بتوقيع صلح عام 1270 ولكن كان قد فات الأوان لأن سلاطين المماليك كانوا قد شرعوا في فتح المدن الصليبية، بل عندما بدأ السلطان الأشرف خليل بفتح عكا، عاصمة المملكة، عام 1291، نجد أن البنادقة والبيازنة دافعوا عنها بضراوة، في حين لم يشترك الجنوية في القتال، وربما كان ذلك بالاتفاق مع السلطان. ولكن ينبغي ألا نحمِّل هذه الجمهوريات وحدها مسؤولية سقوط المملكة الصليبية، لأن هناك قوى صليبية أخرى تتحمل مسؤولية أكبر، هي منظمات الفرسان الرهبان (الداوية والإسبتارية والتيتون) التي كانت قد نشأت أساساً للدفاع عن الأراضي المقدسة، ولكنها تخلت عن مهمتها وغرقت في عالم المال والتجارة والصيرفة.

الخاتمة

في ضوء ما تقدم يمكن القول إن الاقتصاد كان من العوامل الأساسية التي صاغت الحركة الصليبية، والازدهار الاقتصادي الذي شهدته أوربا، نتيجة هذه الحركة، وما رافق ذلك من سكٍّ للعملات الذهبية وتأسيس للبيوتات المالية، ما أسهم في نقل المجتمع الأوربي من عالم الإقطاع والأرستقراطية القائمة على نبالة الأرض والدم إلى عالم الرأسمالية والبورجوازية التجارية منها والصناعية. وكان ذلك كله من مقدمات فجر النهضة الأوربية الحديثة في القرن السادس عشر ■

طرائف عربية

ما الهبر؟

قال الأعمش: سمعت الحجاج على منبر الكوفة يقول: يا معشر الحمراء (يعني الفرس) تخلفتم عن الغزو، وجلستم على الكراسي، وتبردتم تحت الظلال، فلا يمر بكم مار إلا قلتم: ما الهبر ما الهبر؟ (ما الخبر؟) والله لأهبرنكم بالسيف هبراً، أشغلكم به عن الأخبار.



الثقافة في الكويت... نشأتها وتطورها

دلال محمد المطيري

تحتفل الكويت هذا العام باختيارها عاصمة الثقافة الإسلامية، وهو ما جاء إثر المساهمات المستمرة التي تقدمها الكويت على المستوى الإنساني، ولتقديمها الصورة المعتدلة للروح الإسلامية المتسامحة مع المجتمعات الأخرى بغض النظر عن عقائدها الفكرية، وكذلك لدور أهل الكويت في تعزيز مفهوم ثقافة السلام والوسطية وتقبل الآخر والتعايش السلمي بين جميع الأديان.

الثقافة كلمة تحمل في مضمونها، وبين تعريفاتها العديدة، الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للشعوب. وهي المرآة الصادقة التي تعكس هوية مجتمع ما، والسلوك الذي يختاره الأفراد داخل المجتمع بإرادته الحرة، بغية الارتقاء بنفسه وتحرير ذاته من الانغلاق وضيق الأفق. والثقافة، أيضا، كمصطلح لغوي واسع، تشمل كل ما يتصل بالإنسان من عادات وتقاليد وموروثات اجتماعية وفكرية وأدبية وإبداعية، إضافة إلى مجموع القيم والمعلومات التي تحكم السلوك.

ولا شك أن الثقافة في الكويت هي امتداد لتراث الثقافة العربية والإسلامية، وذلك بحكم الموقع الجغرافي الخاص والمتميز الذي تحظى به دولة الكويت على ساحل الخليج العربي، الذي كان له الأثر في جعل المجتمع الكويتي منفتحاً ومتقبلاً للثقافات المحيطة، وساهم أيضاً في نضجها وتفاعلها.

وحين يتم اختيار الكويت اليوم عاصمة للثقافة الإسلامية، فإن ذلك ليس أمراً عشوائياً، بل يؤكد أن علاقة أهل الكويت بالثقافة علاقة قديمة، أسهم في إقبال أهل الكويت عليها كونها مجتمعاً منفتحاً على الآخر.

في مطلع القرن العشرين، كانت الكويت مجتمعاً صغيراً يعتمد اقتصاده على التجارة والصيد والغوص على اللؤلؤ، كما شاعت فيه حياة البادية المتنقلة وبعض الحرف اليدوية التي تحتاج إليها حياة البحر والبادية. وبسبب تلك الظروف، اشتهرت الكويت بصناعة السفن بحرفية، واستطاع من خلالها البحارة الكويتيون اعتلاء البحار والمحيطات وصولاً إلى الهند وشواطئ إفريقيا على تلك السفن الشراعية من أجل التجارة والصيد. كما ارتبط نشاط أهل الكويت التجاري بالصحراء والتنقل فيها ومقاومة المناخ الحار والجاف.

ورغم قسوة الحياة في ذلك الوقت، وقبل ظهور النفط، كانت الحياة بسيطة وهادئة يسودها التفاؤل واحترام الكلمة والالتزام بالدين والانتماء إلى المجتمع وتضامن أفراده. كما أن كثرة التنقل للأسباب السابق ذكرها، براً، وبحراً، أتاحت للكويتيين الانفتاح على الحضارات والمجتمعات المحيطة بها، ما أدى إلى اكتساب المعرفة وتقبل كل ما هو جديد ونافع للمجتمع.

ويبدو أن تلك الظروف قد أدت إلى ظهور إرهاصات مبكرة للثقافة والتعليم في الكويت. فقد ارتبط تاريخ التعليم والوعي الفكري بالكويت منذ النشأة الأولى للبلاد، وكانت البداية في القرن الثامن عشر، ممثلة في اهتمام بسطاء أهل الكويت بالتعليم وحرصهم على حفظ القرآن الكريم، والإلمام بالشريعة الإسلامية. واتخذت في ذلك الوقت المساجد والكتاتيب شكلاً من أشكال المدارس. وكانت الكتاتيب تركز على تحفيظ القرآن وتعليم مبادئ القراءة والكتابة وبعض مبادئ العلوم البسيطة. وكان القائمون على تلك الكتاتيب بعض الأشخاص المتطوعين من رجال الدين في المجتمع الكويتي.

وفي سبيل التعرف على المؤسسات التعليمية والثقافية الأولى التي نشأت في الكويت، التي كان لها دور كبير في تشجيع الاهتمام بالثقافة لاحقاً، نعود إلى مجلدات «الثقافة في الكويت» الصادرة عن دار سعاد الصباح، بمشاركة عدد كبير من المؤلفين، وتتناول كل ما يتعلق بالثقافة في الكويت منذ نشأتها حتى الوقت الراهن، ومن أبرز تلك المؤسسات:

المدرسة المباركية

في عام 1911 بدأت فكرة إنشاء المدرسة المباركية، التي تعد أول مدرسة نظامية في دولة الكويت، وقد سميت بهذا الاسم نسبة لحاكم الكويت في ذلك الوقت الشيخ مبارك الصباح، وكانت أولى ثمرات نمو الوعي وازدياد اليقظة الفكرية، باعتبار أن التعليم هو حجر الأساس في تدعيم كل نهضة، وفي تقدم ورقي الشعوب.

وقد بدأت فكرة إنشاء هذه المدرسة في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي في ديوان يوسف بن عيسى القناعي، وهو أحد رواد النهضة في الكويت والمساهمين في حملة الإصلاح. وكان المجلس يضم مجموعة كبيرة من أهل الكويت



مغادرة الطلاب بعد انتهاء اليوم الدراسي عام 1951

ورجال الدين من بينهم ياسين الطبطبائي، وهو أحد رجال الدين المعروفين، فقام بطرح فكرة الاقتداء بما جاء به النبي ﷺ وأن يتعرفوا على سيرته وأنهم لن يتمكنوا من معرفة ذلك إلا بالتعليم، ولا علم إلا بوجود مدارس ومعلمين يكونون كالسراج المنير الذي يخرجهم من الطريق المظلم إلى النور، واعتبار أن الدين مكون أساسي من مكونات ثقافة المجتمع، وهكذا تم الاتفاق على إنشاء أول مدرسة نظامية.

وجسَّد بناء هذه المدرسة بداية عهد جديد من الثورة المعرفية الجديدة على المجتمع الكويتي في ذلك الوقت، وقدم دلالة على حرص المجتمع الكويتي على الارتقاء، وتنمية مداركه، رغم قلة الموارد وصعوبة المعيشة. كما أنها من جهة أخرى قدمت دليلاً آخر على التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع، وحب العمل الخيري والتطوعي الراسخ في الكويتيين منذ القدم، حيث أنشئت هذه المدرسة وتمت إدارتها من تبرعات الكويتيين واجتهاداتهم الشخصية، أمثال يوسف القناعي وشملان بن علي وياسين الطبطبائي، بالإضافة

إلى تبرعات ومساهمات المواطنين المحبين للعلم والمعرفة. وكانت بداية انطلاقة المدارس النظامية في الكويت.

الجمعية الخيرية

تميُّز الكويت في العمل الإنساني واحتلالها مراكز متقدمة في العمل الخيري لهما جذور تمتد طويلاً مع تاريخ ونشأة البلاد، فهما من تراث الأجداد وتطلعات الأبناء. لكن هذه الجمعية الخيرية كان لها دور ثقافي كبير، فهي أول جمعية خيرية في الكويت وأنشئت عام 1913 في عهد الشيخ مبارك الصباح، وأسست ككيان أهلي، وتعنى بشكل كبير ببعض الأمور الدينية، وتهتم بارسال بعثات للتعليم على نفقة هذه الجمعية. كما كان لديها عدد من المحاضرين الذين كانت تتم دعوتهم للكويت من الدول العربية المحيطة، لإثراء الحركة التعليمية والثقافية في الكويت. وبالإضافة إلى تقديم المساعدات للأفراد، وتجميع الكتب والمطبوعات وتوزيعها، كانت الجمعية الخيرية تقدم المعونة العلمية والاجتماعية والدينية. وقام فرحان الخالد الذي اشتهر بحبه للعلم ونشأته الدينية وكرمه وسعيه للإصلاح بإنشاء هذه الجمعية من أمواله الخاصة لتحقيق هدفه النبيل وهو الإصلاح والقضاء على الجهل لخدمة المجتمع. وعلى الرغم من قلة إمكانات هذه الجمعية، فإنها ساعدت في تقديم خدمات رائدة في العمل الخيري والتطوعي.

المكتبة الأهلية

بدأت الحركة الثقافية في الكويت تأخذ طريقها إلى التطور والازدهار بافتتاح أول مكتبة عامة في الكويت عام 1923 في عهد الشيخ أحمد الجابر. وكان قد دعا إلى إنشائها في ذلك الوقت يوسف القناعي، واعتمدت على تبرعات مجموعة من المواطنين وأثرياء الكويت،



الطلاب يتلقون دروسهم في المدرسة المباركية



مكتبة الكويت الوطنية

منهم السيدة شاهه الصقر التي تبرعت بشراء الأرض لبناء المكتبة. وكان يتردد عليها أهل الثقافة والعلم لتيسر عليهم الاطلاع والعلم. وقد أسهمت المكتبة بدورها في ظهور حركة فكرية دفعت إلى الساحة بعديد من المفكرين والأدباء.

تلقت المكتبة عند افتتاحها وبدء نشاطها مجموعة كبيرة من الكتب القيمة، التي قدمها عدد من الكويتيين الذين تحمسوا لدعم هذا المشروع، ومن أهل الخير والأدباء والمحسنين الذين تبرعوا بتزويد المكتبة بمجموعة متنوعة من المجلات والصحف، ما ترك أثراً في تشجيع القراءة وساعد على بداية النهضة الأدبية في الكويت.

النادي الأدبي

فكر مجموعة من المثقفين الكويتيين، من بينهم خالد سليمان العدساني في عام 1924 بتأسيس ناد يجمعهم يلتقون ويتبادلون فيه الآراء، بهدف نشر الوعي الثقافي والأدبي في المجتمع. وبالفعل افتتح النادي الأدبي في أبريل عام 1924 وكان بمنزلة اتحاد للأدباء في ذلك الوقت. وكان يجتمع فيه الأدباء والمفكرون وكل محبي الفكر والأدب، يومياً، لبحث قضايا الأدب والمجتمع النافعة ونشر المعرفة بين الشباب في ذلك الوقت. وكان أول ناد يؤسس في تاريخ الكويت، وعندما تم افتتاحه كان له صدى جميل ومؤثر في جميع أنحاء المنطقة. وانضم إلى النادي عدد كبير من المثقفين وأصبح ملتقى للشباب والكبار لتبادل الآراء والأفكار في ما بينهم وإلقاء المحاضرات ونشر العلوم. وقد أسهم أهل الكويت مادياً ومعنوياً، دعماً للنادي



النادي الأدبي

الأدبي، من خلال التبرع بالكتب والمخطوطات وإقامة الندوات وإلقاء الخطب والقصائد الشعرية، حتى أصبح منارة من منارات الثقافة في ذلك الوقت.

مجلة الكويت

أنشئت في عام 1928 أول مجلة كويتية وهي «مجلة الكويت»، أصدرها الأديب والمؤرخ عبدالعزيز أحمد الرشيد أحد رموز الثقافة الكويتية، وكان مشهوراً بحبه للأدب، وكان مصلحاً اجتماعياً له آراؤه، ومواقفه الوطنية المؤثرة والشجاعة في ذلك الوقت. وكانت المجلة تدعو إلى التجديد والإصلاح وتهتم بأمور الدين، وكانت لها أفكار واقتراحات لدعم الإصلاح والتقدم. وقد لعبت المجلة دوراً كويتياً لا يستهان بقيمته في تلك الفترة المبكرة في نشر الثقافة وتأكيد مشروع التنوير في المجتمع الكويتي. وكان القائمون على المجلة يقومون بطباعتها خارج الكويت لعدم توافر مطبعة في الكويت في ذلك الوقت. وعلى الرغم من صعوبة التنقل في تلك الفترة، حيث لم تكن وسائل الانتقال الحديثة معروفة في الكويت، كانت المجلة تصدر وتصل إلى قرائها. وكان للمجلة صداها في المنطقة، ونالت شهرة واسعة لما كانت تحويه من تنوع في الأفكار والموضوعات، وإصرار القائمين عليها على طرح كل ما هو جديد ومفيد لتغيير حياتهم للأفضل.

«الثقافة في الكويت... بواكير - اتجاهات - ريادات»

من الكتب والدراسات المهمة التي صدرت ودونت نشأة الثقافة في الكويت كتاب «الثقافة في الكويت... بواكير - اتجاهات - ريادات» للأديب والمؤرخ د.خليفة عبدالله الوقيان. وهو عبارة عن دراسة تاريخية دقيقة تم فيها توثيق المسيرة الثقافية للكويت والجهود التي بذلت من المؤسسات والأفراد لإثراء الثقافة في المجتمع، كما يوثق أيضا اهتمام الكويت المبكر تاريخيا بالثقافة ومواكبة أهلها للاتجاهات الفكرية والتنويرية والتفاعل معها.



المدرسة المباركية




عبدالعزيز الرشيد رئيس تحرير مجلة الكويت عام 1928

يتكون الكتاب من أربعة فصول مهمة يتحدث فيها الوقيان عن عوامل الاهتمام المبكر بالثقافة لدى الكويتيين، وعن طبيعة الموقع الجغرافي والمناخ السياسي والمؤثرات الخارجية التي أثرت إيجاباً على الحركة الثقافية، ويتطرق إلى بدايات نسخ المخطوطات. ويعرِّف بالمؤلفات المبكرة، وكذلك بالصحف التي صدرت في أوائل القرن العشرين.

ويعرف الوقيان أيضا بالمؤسسات الأهلية التي ظهرت آنذاك، كما يتطرق إلى الاتجاهات الفكرية الإصلاحية التي كانت سائدة في الكويت منذ القرن التاسع عشر.

ويسلط المؤلف الضوء على إسهامات الأدباء والمفكرين الكويتيين في مناصرة القضايا القومية، بالإضافة إلى توثيق أسماء أهم الرواد في المجال الشعري والقصة القصيرة والرواية والمسرح والموسيقى والغناء والفنون التشكيلية. وتنتهي الدراسة بملاحق تضم مجموعة من الوثائق وعناوين المخطوطات المهمة.

ولا شك أن هذه الدلائل المبكرة لاهتمام أهل الكويت بالثقافة، قبل فترة طويلة من اكتشاف النفط، هي ما أهلها لاحقا لكي تنفتح أكثر على الثقافة والفنون، وتقدم نماذج رائدة في العمل الثقافي، من خلال إصدارات ومجلات ثقافية انتشرت في أرجاء العالم العربي، وكذلك الانفتاح على فنون المسرح الذي تمكنت أن تحفر لنفسها فيه موقعا لا يستهان به، وفنون الدراما لاحقاً، إضافة إلى الموسيقى والطرب، وغيرها من مجالات الفنون والآداب، التي أسهمت من خلالها في التعبير الفني عن هويتها الإنسانية ورسالتها الإنسانية، وكينونتها كثقافة تعبر عن الانفتاح على الآخر، والتفاعل مع ثقافات العالم تأكيداً لقيم التسامح واحترام الآخر.

ولا تزال الثقافة اليوم في الكويت كما كانت، ثقافة تعبر عن التوازن بين الأصالة والمعاصرة، بين المادة والروح، بين العلم والإيمان... ثقافة ثابتة في يقينها في القيم الإنسانية الأساسية المستمدة من القيم الدينية الإسلامية الروحية، تتحرك وتتفاعل وتدور حول المحور الثابت المتمثل في السلام والتسامح بين المجتمعات ■

بحثاً عن الفلسفة... عن معنى الوجود الحق

محمد الأسعد
أكاديمي من مصر

مبحث السعادة، أو التأمل في الغايات ومعنى الوجود الإنساني، من المباحث الرئيسة في الفلسفة العربية في مرحلتها الإسلامية، وهو المبحث الذي يعتبره الباحثون سمة مميزة من سمات الفلاسفة العرب في الفترة الممتدة بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين، بدليل عناوين العدد الكبير من مؤلفاتهم، المفقود منها والباقي على حد سواء.

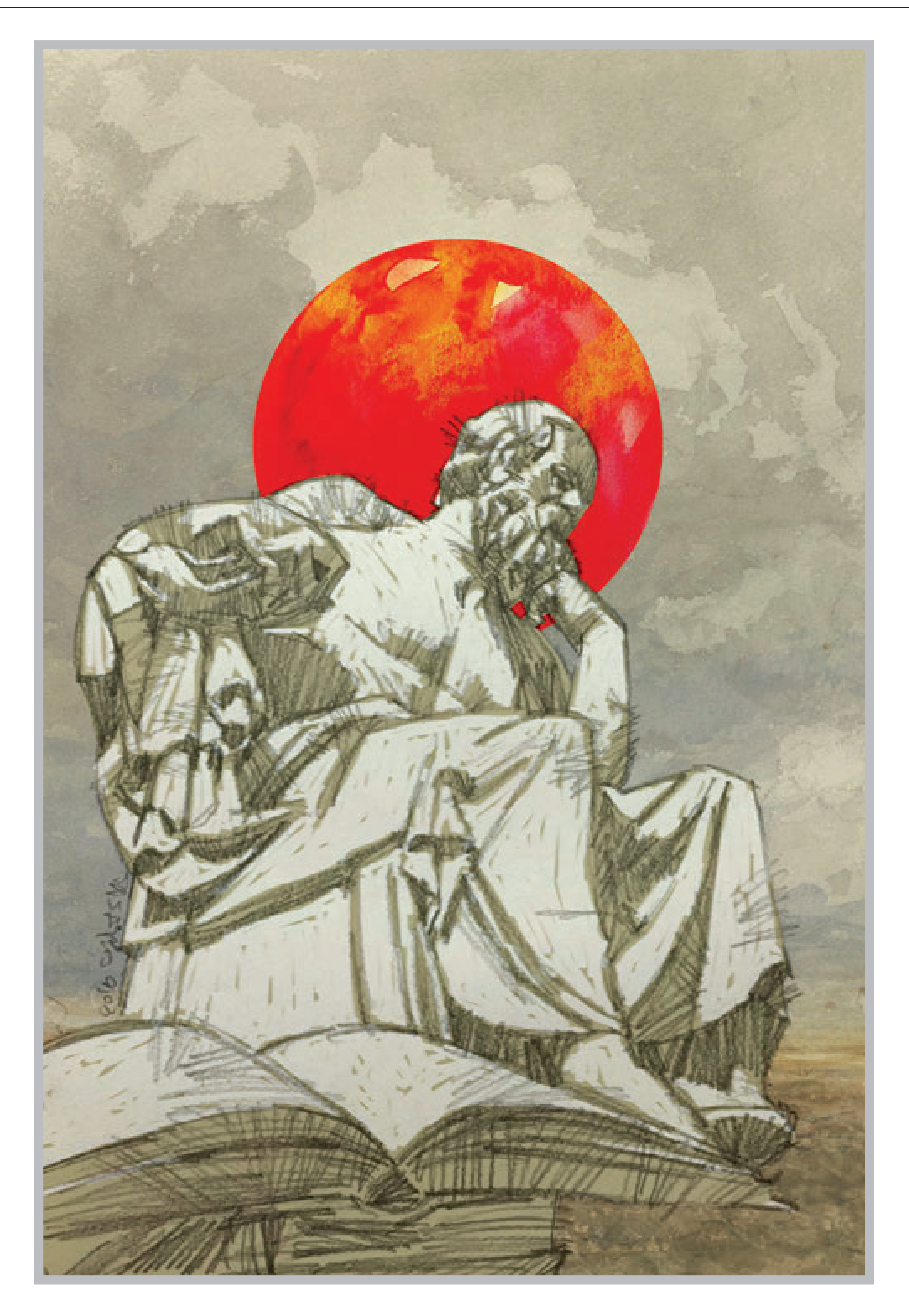
لأبي يوسف يعقوب الكندي (805-873) رسالة «الحيلة في دفع الأحزان»، ولأبي نصر محمد بن محمد الفارابي (874-950) كتابان، «التنبيه على سبيل السعادة» و«تحصيل السعادة»، ولأبي علي الحسين بن سينا (980-1037) كتابان يحملان عنوانين مماثلين، أما تلميذ الفارابي، أبوالحسن العامري (912-991) فله كتاب شهير عنوانه «السعادة والإسعاد». ومن جانبه يؤكد أبوحامد الغزالي (1058-1111) في كتابه «ميزان العمل» أن غرض الفلاسفة هو التنبيه على سبل تحصيل السعادة، وأنهم يرون في المعرفة الحقة والسيرة الصحيحة الطريق الموصل إليها.

ومن المعتقد أن هذا الموضوع انحدر إلى الفلاسفة العرب والمسلمين من الفلسفة اليونانية التي يترادف فيها مفهوما الكمال والسعادة. والفلسفة اليونانية المقصودة هنا هي تلك التي عرفتها الثقافة العربية آنذاك بين القرنين المشار إليهما، بما فيها من مؤلفات أصيلة وأخرى منحولة.

ويرد موضوع «السعادة»، بوصفها غاية سعي الإنسان العاقل، في تلخيص الفارابي لفلسفة أفلاطون (427-347 ق.م) في صيغة سؤال وجواب على النحو التالي:

- فيمَ يقوم كمال الإنسان؟
- في السعادة.
- كيف تحصل السعادة؟
- بالعلم والسيرة.
- ما ذلك العلم؟
- إنه العلم بجوهر كل موجود من الموجودات.
- ما تلك السيرة؟
- إنها السيرة الفاضلة.
- كيف يحصل ذلك العلم؟
- بالفحص والتعلم والتعليم.
- أي صناعة تعطي ذلك العلم؟
- الفلسفة.

وهكذا تكون السعادة مبحثاً فلسفياً، لأن



الصناعات الأخرى، مثل الألسنية وصناعة الشعر والخطابة والصناعة العملية، ليست كافية، وبخاصة الصناعة الأخيرة على سبيل المثال، فأصحابها ليس مقصدهم الكمال بل نيل الأمور النافعة والمربحة.

وهكذا فإن السعادة بهذا الوصف، أي كونها من مباحث الفلسفة، لا تعني الاستحواذ على الأشياء، لأن هذا الاستحواذ لا يمنح للإنسان العاقل معناه، أو معنى وجوده الحق، ولا تعني من جانب آخر الفرد المنعزل، لأن المبدأ الأساس لدى الفلاسفة العرب أن الإنسان اجتماعي بطبعه، وتحقيق السعادة لا يمكن أن يتم خارج الجماعة. ولهذا ارتبط مبحث السعادة بمبحث الاجتماع البشري وقيام المدن «الفاضلة» و«العادلة»... وما إلى ذلك من صفات لمدن متخيلة ابتكرها عدد من الفلاسفة ووضعوا نظمها وأهدافها، وميزوا بينها وبين المدن «الجاهلة» أو «الضالة» أو «الفاسدة»، وكان معيار التمييز هنا هو معرفة ماهية السعادة الحقة، والعمل بمقتضى هذه المعرفة.

وأعطى هذا الاتجاه الاجتماعي للفلسفة العربية سمات مميزة، أهمها العقلانية والموسوعية. ويقوم مبدأ العقلانية على أساس أن الإنسان صار إنساناً بفضل العقل. ويقوم مبدأ الموسوعية على ضرورة العلم بجوهر الموجودات، مع ما يعنيه هذا من بحث في تناسق العالم وأجزائه، وكان هذا المبدأ هو الذي يقف وراء اهتمام الفلاسفة بكل العلوم التي تدرس العالم وتبحث في شؤونه. ويمكننا أن نعد هذا الاهتمام بالرؤية الشاملة للكون دليلاً على الإيمان بوحدة الكون.

فإذا كانت «السعادة» هي الغاية القصوى للاجتماع البشري، بالدليل الفلسفي الذي يميز بين عالم الكون والفساد، وعالم الخلود والفناء، فإن تحصيلها هو تحصيل لسعادة روحية أو عقلية، وهذه السعادة هي الجديرة بالسعي وراءها، لأن الزائل لا يورث غير التعاسة والقلق كما سيرد عند الكندي، ولأن السعادة خير يؤثر لذاته كما هي عند الفارابي.

ولكن الملحوظ أن مبحث السعادة لم يبق على حاله، طريقاً وغايةً، في القرون اللاحقة، كما كانت الحال في بواكير عصر الفلسفة العربية، فقد شهد الوطن العربي والبلدان المجاورة تقلبات سياسية واقتصادية واجتماعية انعكست على مباحث الفلسفة وتوجهاتها، فطرأت على مبحث السعادة متغيرات، واعترى مفهومها شيء من التضييق في مباحث فلاسفة القرن الثاني عشر الميلادي. والسبب هو تضاؤل الحلم بالمدن «الفاضلة» الخيالية في ظل تشظي الممالك والحروب الداخلية والغزوات الخارجية، وما رافقها من تقلبات، بحيث انتهى الأمر إلى الاهتمام بأمر الإنسان «المتوحد»، أو «المغترب» بالمفهوم المعاصر، وصلته بالوجود الحق، وتدبير شؤونه في خضم مدن «التخلف» و«الجهل»، كما تجلى في كتاب أبي بكر محمد بن يحيى بن باجة الأندلسي (1080-1138) المعنون «تدبير المتوحد»، وانتهى الأمر إلى البحث في قيام وانهيار المدن والدول الواقعية وقوانين هذا القيام والانهيار، وهو ما تم على يد عبدالرحمن بن خلدون (1332-1406) في كتابته «المقدمة» الشهيرة.

ولكن هذه الأسباب والتقلبات لم تجعل مبحث السعادة نافلاً، بل ظل تأملاً في الغايات، أو في معنى الوجود الإنساني، وهو ما سيتبلور لاحقاً على نحو واضح في الفلسفة الغربية، التي ورثت التطور الفلسفي العربي وأضافت إليه ما سيصبح عنوانه «مبحث الوجود» كما هو مطروح في فلسفات عدة، في فلسفة مارتن هايدغر (1889-1976) تحت عنوان «البحث عن الوجود الحق»، وفي فلسفة إريك فروم (1900-1980) تحت عنوان «الوجود الجوهري»، على سبيل المثال لا الحصر.

إذاً، التساؤل عن غاية الإنسان من وجوده تجسّد في الفلسفة العربية/الإسلامية في صيغة البحث عن السعادة، والتأمل في شروط هذه السعادة وطرق السعي إليها، إما عبر المسعى الجماعي ممثلاً في تخيل المدينة الفاضلة، وإما عبر المسعى الفردي ممثلا في تدبير شؤون الإنسان المتوحد. واتخذ هذا المسعى نهجين؛ النهج العقلاني الذي يعتمد على تطور الإدراك، بدءاً من إدراك الذات وانتهاءً بإدراك العام المحيط، والنهج الصوفي الذي يقسم البشر إلى أصناف: الصنف غير الناطق الشبيه بصنف البهائم، الذي لا يدرك واجب الوجود، والصنف العارف بواجب الوجود.

وتكمن السعادة الصوفية في دوام مشاهدة الموجود الواجب الوجود، أي إدراك «الحق».

نجد هذا الموقف الأخير عند أبي بكر محمد بن عبدالملك بن طفيل (1100-1185) الذي يعد الاجتماع البشري عائقاً أمام تحصيل السعادة في كتابه «حي بن يقظان». ولكن هذا الموقف ليس هو السمة الطاغية على الفلسفة العربية/ الإسلامية، لأن الاتجاه الإنساني هو السمة الطاغية على هذه الفلسفة، وتمثل هذا الاتجاه في أعمال أعلامها الكبار بدءاً بالكندي مروراً بالفارابي، وصولا إلى ابن باجة وابن رشد (1126-1198)، وكلهم يرى أن الاجتماع البشري ضروري لتحصيل السعادة.

وسواء تعلق الأمر بمدينة «فاضلة» أو «عادلة» من صنع الخيال، أو بشروط الاجتماع الإنساني الذي يقوم على عناصر طبيعية واقتصادية كما عند أبي الحسن الماوردي (974-1058) أو عند ابن خلدون، يظل هذا المبحث على علاقة بالواقع البشري وليس مفارقاً له.

وسنجد أطروحة «السعادة» تتنوع وتتغير تبعاً لاهتمامات كل عصر، وتبعاً للتقلبات الفكرية والمادية التي تلم به، وتبعاً لمصادر كل فيلسوف. ولهذا نجد أن تناول الكندي للسعادة في كتابه «الحيلة في دفع الأحزان» ينصرف إلى غاية هي تغيير موقف الإنسان من الحياة. أما الفارابي فهو أكثر طموحاً؛ فالغاية لديه الوصول إلى حالة شبيهة بحالة النيرفانا البوذية، وسنجد تنويعاً آخر على موضوعة السعادة لدى الجماعة الفلسفية المعروفة باسم «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» التي دعت، في أواخر القرن العاشر الميلادي، إلى إقامة ما يشبه مدينة «روحية» محاطة بأسوار وخنادق تحميها من جهل وسوء أخلاق الناس في عصر كانت شمس الحضارة العربية فيه قد آذنت بالمغيب.

وينفرد ابن باجة في الالتفات إلى واقع أن الإنسان الباحث عن الحقيقة يجد نفسه في المدن القائمة متوحداً (مغترباً)، ولذا وجه بحثه نحو تدبير شؤون هذا المغترب وتمكينه من نيل «السعادة» إن لم تكن موجودة، أو إزالة العقبات التي تقف دونها.

ويشير هذا التنوع إلى مسألتين مهمتين: الأولى تنوع الاتجاهات الفلسفية التي شاعت في الوطن العربي خلال مرحلة تحضره الإسلامية، بين اتجاهات عقلانية واتجاهات غير عقلانية، والثانية استجابة الفكر الفلسفي للمتغيرات الاجتماعية وحساسيته البالغة تجاهها. ولعل أحداث إحراق الكتب الفلسفية أو طمرها في الآبار، ومطاردة الفلاسفة واضطهادهم، وهي أحداث شهدتها أماكن وأزمان متباعدة ومختلفة، دليل على الجوهر الاجتماعي لهذه الفلسفة التي لم تكن كما يظن ضرباً من التخيلات أو الأطروحات الغامضة، أو مبحثاً نافلاً لا قيمة له كما يُعتقد على صعيد شعبي حتى الآن ■

طرائف عربية

يكفيني قوت يومي

لما رحل ابن الهيثم إلى الشام، أقام عند أمير من أمرائها، فأجرى ذلك الأمير عليه أموالاً كثيرة، فقال له ابن الهيثم: يكفيني قوت يومي. فما زاد على قوت يومي إن أمسكته كنت خازنك، وإن أنفقته كنت وكيلك، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين، فمن يشتغل بعلمي؟!

سمفونية عشقي

د.سمر الفلاحي
شاعرة وإعلامية من اليمن

أنا في الحب
تلك السيدة العذراء
أنا لست تلك التي تلهث خلفك
في المروج الخضراء
وتقولُ فيك قصائد الصحراء
فتحيكُ غزلاً مِن غزل
بين الشهود
أو في مكانٍ منعزل
أنا لا أرى فيك البهاء
ولا أجيد أمامك حتى الغناء
فكيف قلبي في هواك قد وقع
وليس فيك للغناء أو للرقص متسع
وحدي أراقص تشايكوفسكي
في بحيرة البجع
وإذا انتهيت وجدت نفسي
على أرصفة بروسيلوفسكي
اكتبني بمعزوفاته
وارتشف الوجع
أستثني العُمرَ مني
كي أهبُكَ العمرُ
فأظل دفئك في الشتاء
كمعطف فرو
أو أكون زينة الصيف
لأجلك مثل سَرْوٌ؟!
أتعلم أن لحظات السهر
وقت السمر
ونيسي فيها لست أنت
كما كنت
إنما ضوء القمر؟
أنا لم أعد تلك
لكي أظن أن الكون بين يديك
وأن الجاذبية سرّها عينيك
حتى ثغرك البسّام
ظننت بأنه الإلهام
أنظر إليه فأقترب من وجنتيك
وأشتهي أن أنتشي طهر شفتيك
كل ذلك انتهى
فلم أعد لك المرأة اللّمِيسُ،
ولم تعد بنظري
ذلك القديس ■

عن القصيدة الومضة

ماجد صالح السامرائي كاتب من العراق

بدأ غير شاعر من الشعراء المجددين يكتب ما يُعرف بـ «القصيدة الومضة»، وتتم الإشارة إلى أنها تمثّل نمطاً شعرياً جديداً يستجيب لسرعة الإيقاع التي يعيشها عصرنا.

إلا أن هذه «القصيدة النمط» لم تولد من فراغ، بل إن لها أصولاً تربطها بكل من القصيدة العربية القديمة، والقصيدة العربية الحديثة، من جانب، وبالقصيدة الغربية في ما لها من أصول حداثية، من جانب آخر، وإن كنا نجد بيننا اليوم من ينسبها إلى «تجربة ما بعد الحداثة».

فبين الباحثين في التراث العربي، دراسةً ونقداً،(مثل الباحث خليفة محمد التليسي) من يُعيدها إلى ما أطلق عليه «قصيدة البيت الواحد»، إذ يذهب إلى أن الشاعر العربي القديم عندما كان يرسل البيت الواحد، معبِّراً عن لحظته الشعرية، لم يكن يُواجه أي مشكلة تعبيرية، إذ وجد أن البيت الواحد يُعبِّر عن حاجته، ويستوعب اللحظة الشعرية التي يعيشها بكل أبعادها.

ويأتي بأمثلة عديدة على ذلك... كقول الشاعر:

ذَهَبَ الذينَ أحبُّهمْ
وبقيتُ مثلَ السيفِ فَرْدا

أو قول الآخر:

ما أطيَبَ العيْشَ لوَ أنَّ الفتى حَجَرٌ
تَمْضي الحوادثُ عنهُ وهوَ مَلْمومُ

أو قول الشاعر ديك الجن:

جَسَّ الطبيبُ يَدي جَهْلاً، فقلتُ له:
إنَّ المَحَبَّةَ في قلبي، فَخلِّ يدي

وقد نظر أدونيس، وهو من شعراء الحداثة الذين كتبوا هذه القصيدة، إلى قصيدة البيت الواحد في التراث العربي، فوجد أنّه «بيتٌ يقوم على الفكرة/ الومضة، أو الصورة/ اللمحة، أو المعنى/ الصورة...»، التي وجد فيها ينابيع تتموّج... ينابيع «من اللّذة والغِبْطة: غِبْطة الفكر، ولذّة الحس والمُخيِّلة».

ونجد هذه «القصيدة الومضة» في الشعر الحديث عند أدونيس، واضحة الأبعاد، كقوله في قصيدة وضعها تحت عنوان «المِئْذَنَة»:

«**بَكَتْ المئذَنة / حينَ جاءَ الغريبُ/ اشتراها / وبنى فوقَها مدْخَنَة**»

وهو هنا إنَما يُعبّر عن الصراع بين الروحانية والمادية.

ونجد شاعراً مثل نزار قبّاني يدعو إلى مثل هذا النمط من القصيدة، فهو يجد في القصيدة الطويلة تبذيراً «في استعمال اللغة إلى درجة الإنهاك...».

ويجد فيها شاعر ممن يكتبونها اليوم «استجابة لدافع شعوري»، وأنها «غالباً ما تأتي بدلالات غنية... وقد تعتمد المفارقة». أما اللغة في هذه القصيدة فهي «منتقاة بشعرية بالغة، تعتمد بعدين: التجلّي، والتصوّر، فهي طاقة اكتشاف وإبداع».

وبالمقابل، نجد بين شعراء الغرب ونُقّاده في



العصـــر الحديث (مثل: إدغــار ألن بو 1809 – 1849) مَنْ يُنْكر على الشعر ما يُسمّى «شعراً طويل النَفَس».

ويذهب إزرا باوند (1885 – 1972) مؤكّداً ما يُسمّيه «شعرَ الومضة والاستنارة»، مشيراً إلى أنّ «تسجيل واقتناص استنارة واحدة حيّة في سطر أو سطرين خيرٌ من كتابة ألف سطر».

لكن فرجينيا وولف (1882 – 1941) تُطْلِقُ على هذا النمط تسمية «المعجزات اليومية الصغيرة» ■

مصنّفو المغازي الأوائل (عروة، الزهري، الواقدي) قراءة مقارنة في مروياتهم

د.إبراهيم بيضون
مؤرخ من لبنان

التاريخ الإسلامي يبدأ من ولادة سيدنا محمد ﷺ عام 570م، وما قبله يصطلح على تعريفه بالجاهلية، وهو توصيف درج عليه الفقهاء والمؤرخون والكتّاب في الإسلاميات، من دون التنبّه جيداً لحدود المصطلح ودلالته وأبعاده التاريخية والجغرافية. والسؤال الذي يداهمنا في هذا السياق: ماذا يُقصد بالجاهلية والجاهليين؟ هل هم أهل الحجاز، أم أبعد من ذلك باتجاه اليمن، حيث نشأت حضارات عريقة؟ إن المعنى الشائع للمصطلح ينبثق من الجهل، ونقيضه العلم، والجهلاء نقيضهم العلماء...إلخ، ولكن ثمة لَبساً في المفهوم اللغوي للمصطلح، مقارنة مع الآخر الإسلامي، بما يقارب، بصورة ما، تعليق ابن منظور في «لسان العرب»: «وقالوا الجاهلية الجهلاء، فبالغوا».



نشأ محمد ﷺ في بيئة كانت التجارة النمط الاقتصادي الرئيس فيها، ما يعني أن مكّة كانت منفتحة على العالم، خصوصاً ما بين اليمن والعراق والشام، حيث الأسواق، والسفن الأوربية الراسية على سواحل الأخيرة. كما تكوّنت لديها ثقافات أسهمت في تطوّرها مجتمعاً تكافلياً ونظاماً تمثيلياً متوازناً، وكلاهما تجسّدت صورته الحضارية في «الإيلاف»، في أبعاده العلائقية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن مكة لم ترقَ إلى مستوى المراكز الحضارية في اليمن، وظلت في تقاليدها وتنظيماتها مفعمة بروح البداوة.

ولعلّ ما قُصد بـ«الجاهلية»، هو الجهل بالدين، حيث انتشرت الوثنية بطرائقها المختلفة، من دون أن تعرقل مسارات الحضارة في تلك الأزمنة، مع العلم بأن المنطقة تعرّفت مبكراً على التوحيد، منذ نزول النبي إبراهيم عليه السلام في مكة، وبنائه الكعبة، بالإضافة إلى بؤر



يهوديـة ونصرانية في الحجـاز واليمن. ولكنه «دين الآباء» الذي تمسّـك بـه أولئك الوثنيون، ورأوا فيه حسـب رواية ابـن الكلبي في «كتاب الأصنـام» بسـاطة ليسـت فـي الحنفية دين إبراهيم. ويُنسـب ذلك التحـوّل إلى عمرو بن لحـيٍّ أول «ملوك» خزاعة فـي مكة، بعد جلاء بني جُرهم عنها. وجدير بالذكر أن الحنفية لم تأخذ مداها في الانتشار، وظلّت محصورة في إطار نخبوي، حتى انبعاثها في دعوة محمد ﷺ باسم الإسلام.

إن الإسـلام لـم «يجـبّ مـا قبله» سـوى الوثنيـة، عبـادة وتفاصيل انحرافية أفسـدت ذلك المجتمع، لاسيما بعد طغيـان رأس المال، واستئثار كبار التجار بالسلطة والنفوذ، ما أخلّ بالمعادلة القيمية المؤسسة على مبدأ «التكافل»، حيـث لكل نصيبه من المال، بقدر إسـهامه في التجـارة، وبمعنى أكثر دقـة، كان هناك أغنياء من دون فقـراء، فيما بدا الشـرخ واضحاً في المجتمع بعد انهيـار منظومة «التكافل»، لترتكز المعادلـة على أغنياء وفقـراء، ومن البديهي أن يعكس هذا التحوّل سلبياته على جميع مكوّنات المجتمع ومؤسساته.

وأفـدح من ذلك اختلال الأمـن التجاري، الذي بلغ حداً من الخطورة في حروب الفجار، وفـي مقدّمـات «حلـف الفضـول»، والأولى، كما الثانية، شـهدهما محمـد ﷺ، وقد تجاوز العشرين من عمره.

لـم تقتصر «المقدمات» علـى ابتياع العاص بن وائل السـهمي، أحد زعماء قريش، سـلعة من تاجر يمني من زبيد، ومماطلته في تسـديد ثمنها، حتى أثار حفيظة الزبيدي، وانطلق يطوف في أحياء مكة منددًا، مشـهّراً. ولكن فريقاً من قريش، وجد في هـذه الحادثة، تهديداً لتجارة مكة في صميم تراثهـا وقيمها، فكانت الدعوة إلـى «حلف الفضـول» المنعقد حينئـذ في دار عبدالله بن جدعان التيمـي، وتمثّل فيه، وفاقاً لمصادر السـيرة، بنو هاشم، والمطّلب، وأسد بن عبدالعـزّى، وزُهرة، وتيم بن مُرة. ولهذا الحلف موقع خاص في أدبيـات التاريخ، ولايزال حتى اليوم مثار اهتمام في العالم الغربي، وتُعقد حوله الندوات والمؤتمـرات. أما دوافع هذا الاهتمام، فمردّها إلـى أن علماء الفكر السياسـي، كما الاجتماعي، يـرون في الاتفاق المنبثق عنه، أول وثيقة في حقوق الإنسان. وإذا رجعنا إلى الرواية في سـيرة ابن هشام لما فوجئنا بذلك، فقد ورد فيها: «فتعاقدوا علـى ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم، ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانـوا على مَن ظلمه حتى تُردّ عليه مظلمته».

وكان لمحمد ﷺ الذي بدأ يلفت الأنظار في مكة، بسـلوكه الأخلاقي، ورجاحة عقله، وعلو همته في دفع المنكر والظلـم، الدور البارز في انعقاد الحلف وفـي قراراته، وهي لم تخل من تحذير لقـيادات قريش، الغافلة عمّا يجري من الانتهـاكات للقيم والتقاليـد. فهل كان الحلف إرهاصـاً في وعي محمـد ﷺ، لأن ثمة تحولاً جذرياً في «أم القرى» سـيؤدي إلى إسـقاط الظلم والاستغلال والاستئثار، وكل ما يؤدي إلى انتهاك إنسـانية الإنسـان؟ ألم يكن محمد ﷺ نفسه أول الذين قوّموا هذا الحلف، معلّقاً عليه بقوله: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً، ما أحب أن لي به حمرَ النعم، ولو ادّعـى به في الإسلام لأجبت»؟

ولـم يطل الوقت آنذاك، حتـى نزل الوحي على محمد ﷺ، مبشّراً بالإسلام الذي رفضته قريـش وتصّدت بكل قواها له، ليس دفاعاً عن أصنامها ومعتقداتها الوثنية فحسب، بل - وهو الأهم - رأت فيه تهديـداً لمصالحها التجارية، المرتبطة عضوياً بمواقعها القيادية، وتقاليدها، وطقوسـها، وعلاقاتهـا، وأسـواقها، وكل مـا يمنحها القوة والسيادة في شبه جزيرة العرب. ولكن محمداً النبـي ﷺ، صمد أمام المعارضة الشرسـة في مكة، ولم يثنه الاضطهاد والنفي عن متابعة الرسـالة لنحو ثلاث عشـرة سنة، حتى انبثاق نور «الهجرة»، حيث بات للإسـلام مقرّ بعد تشـتّت، واسـتقر في يثرب (المدينة)

مجتمعاً له نظامه وقوانينه وعلاقاته، حتى إذا رسخت جذوره تمّ إعلان الجهاد ضد المشركين من قريش وحلفائها، وفاقاً للتشريع القرآني الذي عبّرت عنه آيات عدة من سور: الأنفال، آل عمران، النساء، محمد، الصف، البقرة، محرّضة على القتال في سبيل الله، والدعوة إلى الطاعة، وعدم التهيّب من كثرة العدو، وليس أخيراً التأكيد على النصر، والوعد بالجنة للشهداء... إلخ.

ونجح الرسول ﷺ في تعبئة المسلمين في المدينة، فلم يبطئوا أو يتقاعسوا، وباستثناء غزوة أحد التي كان للمنافقين دور تخذيلي فيها، فإن ذلك لم يصل إلى حد الهزيمة الفعلية، ولم يؤثّر في معنويات المجاهدين. وما لبثوا أن حققوا نصراً حاسماً في غزوة الخندق، وفي أعقابه نصراً سياسياً باهراً في غزوة الحديبية، ولم يعد أمام المشركين سوى الرضوخ، الذي عبّر عنه «الفتح المبين» في العام الثامن الهجري.

هذا المصطلح (الفتح) استخدم في أدبيات المغازي لأول مرة، في الصراع بين المسلمين والمشركين، وهو مصطلح خاص بالأوائل، وليس بالضرورة أن يتوّج دائماً بعمل عسكري، وقد ساد خصوصاً بعد وفاة الرسول ﷺ، وانطلاق حركة الفتوح من دون أن يكون الهدف المبدئي في عملياتها، فتح الأرض فقط، وإنما فتح عقول الناس على الإسلام، والانضواء في رسالته ومبادئه، ودعوتهم إلى الحوار بعيداً عن كل ظلم واضطهاد، وإساءة لحريّاتهم.

وكانت «تبوك» آخر الغزوات (بعد عام من الفتح)، وربما يصح أن تكون أول الفتوح، فقد انتظمت حينذاك حركة «الخلافة»، مُقاربة الأنموذج في «المدينة»، دولة لها شخصيتها و«تقويمها» (622م)، لينعكس ذلك على الوعي التاريخي للعرب المسلمين، متزامناً مع نشوء فكرة الأمة.

وما لبثت الجيوش أن تحرّكت تحت راية الجهاد إلى الشام، بالغة ذروتها، مع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وانتشر الإسلام من غرب مصر إلى خراسان، وفي سياقه انهارت إمبراطورية «فارس» وانكفأت أخرى على ذاتها (البيزنطية)، لتصبح «دولة» الإسلام القوة الفتية الصاعدة في الشرق، بيد أن العمليات مالت إلى الركود بعد اغتيال الخليفة الثاني، ما كان له نتائج سلبية على فكرة الأمة، مع عودة إحياء العصبيات القبلية.

وفي هذا السياق أخذت كل قبيلة تنسج الروايات عن تاريخها، وتُبرز تفوّقها على خصومها، حتى أن قريشاً دخلت حلبة التنافس، لينشأ في ضوء ذلك نمط من التاريخ عبّر عنه بالأنساب. وكانت قريش الأكثر إحساساً بالتفوّق، لعلاقتها بالرسول ﷺ الذي تحدّر منها، ونزل عليه الوحي في «غارها» وقد دوّن «نسبها» أحد أحفاد الصحابي الزبير بن العوّام، وهو الزبير بن بكار في «كتاب نسب قريش وأخبارها».

ليس يعنينا من موضوعة «الأنساب»، سوى ما يتصل بالرسول ﷺ، وتحديداً ما له علاقة بالمغازي، وهي إلى جانب «السيرة» من تجليات الوعي التاريخي للعرب المسلمين. وقد يختلط الأمر بين الموضوعين، ولكنهما في النتيجة متكاملتان معاً في شخصية الرسول ﷺ وممارساته. وثمة اتفاق على أن «السيرة»، ويقصد بها جماع أقوال الرسول ﷺ وأفعاله، تُمثّل بداية الاهتمامات التاريخية في القرن الأول. وتكاد مع المغازي لا تنفصل إحداها عن الأخرى، ما ينطبق خصوصاً على مصنّفي عروة بن الزبير (ت 94هـ) وابن شهاب الزهري (ت 124هـ)، فيما مُصنّف الواقدي (ت 207 هـ) «كتاب المغازي»، تعبّر مادته عن عنوانه، وهو مصدر أساسي من حيث شموليته ودقة تتبّعه للتفاصيل.

وثمة آخرون تناثرت مروياتهم في مصنّفات القرن الثالث، ولم يجر نشرها عدا قطع صغيرة لموسى بن عقبة ووهب بن منبه. أما «السيرة» فإن أبرز من روى أخبارها، ابن اسحق (ت 151هـ)، وهي التي أعاد جمعها

وتبويبها ابن هشام (213هـ) ونُسبت إليه. وقد عثر المحقق د. سهيل زكار على قطعة مخطوطة منها برواية يونس بن بكير في مكتبة فاس، وهي سابقة على الهجرة، لذلك نأت عن المغازي وأخبارها.

ومما يجدر توضيحه، أن مرويات المرحلة وما بعدها أيضاً، كانت تتداول في الغالب شفاهاً، وهي لا تندرج مباشرة في موضوع التاريخ، وإنما الحافز إليها، ابتغاء الثواب بذكر مآثر الرسول ﷺ الأنموذج والمثال في حياة المسلمين، وليس التأريخ له. ومن هذا المنظور، فإن كلتيهما (السيرة والمغازي) تلتقي في الهدف والدلالة، إذ الأولى في الغالب تشمل الثانية، كما الأخيرة لا تهمل أخباراً عن الرسول ﷺ ليست في سياق الغزوات. ويبقى أن هذه الدراسة ستهتم تحديداً بالأعمال الجهادية للرسول ﷺ، وذلك في محاولة للمقارنة بين أخبار الأقطاب الثلاثة: عروة والزهري والواقدي، متخذين موقعة «بدر» مثالاً باعتبارها مفتاح النصر للإسلام على الشرك.

لقد عاش عروة تداعيات ما بعد الرسول ﷺ، فعرف كثيراً من الأخبار، مما لم يُتح لغيره من معاصري المرحلة. فهو ابن صحابي من الروّاد المؤمنين بالإسلام، كما تعرّف آخرين من أولئك النخب، وتناهى إليه، أو سمع مباشرة بعض أحاديثهم عن الرسول ﷺ، حتى غدا مرجع تلك المرحلة، لاسيما في موضوعة المغازي. وقيل إن الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، كان غالباً ما يعود إليه، لتزويده بأخبار في هذا الشأن. إلى جانب ذلك كان عروة على مستوى عال من الثقافة، حافظاً للقرآن، متبحراً في الشعر، ما يبدو في مروياته عن بعض الغزوات المفعمة بمادة مكثفة من هنا وهناك... إنه أستاذ المشتهرين بعده، ممن تأثروا به، أو اقتبسوا حرفياً، أو نحو ذلك، عنه (ابن شهاب الزهري وموسى بن عقبة على سبيل المثال).

ولكن عروة، لم يذكر كل غزوات الرسول ﷺ، فكان انتقائياً في منهاجه، بدءاً من غزوة بدر، التي أسهب فيها، إلى غزوات لم ينجم عنها اشتباك أو عمل حربي، مثل «السويق». كما أن ترتيب الأحداث لم يكن منتظماً، وكان حرياً بالمحقق (محمد مصطفى الأعظمي) الذي طالما وجّه سهام النقد لبعض المؤرخين أو المحققين، مثل الدوري وزكّار، أن يتّسم منهاجه بالانسياب والدقة في العناوين... فليس ما يبرر وضع غزوة بني النضير قبل غزوة أحد، إلى عروض نافرة في السياق، كالعقبة الأولى والعقبة الثانية، وعناوين مثل: الحشر والبكاء على حمزة، أو إدراج سرية مؤتة بين الغزوات، حتى بدا الكتاب خليطاً من أخبار مُسهبة، أو مبتسرة، أو غير متوازنة، ومغازي عروة في النتيجة هي أخبار راكمها الأخير مما سمعه، واقتبسها آخرون عنه، حتى باتت على الرغم من المآخذ عليها، مرجعاً للمصنّفين الكبار في القرنين الأول والثاني للهجرة.

لقد اقتصر ما ذكره عروة من المغازي، على ست عشرة غزوة، وهي أقل من نصف ما ورد في مغازي الواقدي. وهذا يعني أن عروة ربما لم يتقصّد رواية المغازي فقط، وإنما كان مهتماً بالسيرة بما فيها الغزوات وأحداث تتصل بتاريخ الرسول ﷺ.

وقبل الدخول في عملية تقويمه لمصنّفات المغازي الثلاثة، لابد من التوضيح، بأن هؤلاء لم تجمعهم فترة زمنية واحدة، وربما كان لذلك تأثير في مناهجهم، ومدى وعيهم بالتاريخ ممثلاً بالسيرة حينذاك. فقد واكب عروة القرن الأول من عشرينياته إلى تسعينياته، معاصراً لنحو أربعة عقود الزُهري (51-124هـ)، فيما لم يلتق الأخير الواقدي (130-207هـ) الذي زامن عامين فقط من خلافة الأمويين، وأمضى حياته في العهد العباسي الأول مقرّباً من المأمون، حتى وفاته قبل إحدى عشرة سنة من رحيل الأخير.

وإذا شئنا توصيف مصنّفات الثلاثة، فإن «موسوعة» الواقدي وحدها قمينة بعنوانها (كتاب المغازي)، كما أن تصدي مارسدن جونس لتحقيقها، بما يتسم به من حرفية وثقافة

تاريخيـــة، أضفى عليها قيمـــة خاصة، فجاءت المقدمة وكأنها بحث علمي رصين، مكرّساً - أي جونس - الواقدي بأنه «إمام المغازي».

كان عروة - كما ســبقت الإشارة - الأقرب زمناً إلى الرســول ﷺ، فلم يدركه، ولكنه احتكّ ببعض أصحابه، فضلاً عن التابعين، متأثراً بذلك المناخ، والرسول ﷺ حينئذ محور الحديث، وفي المقابل عازفاً عن صراعات المرحلة، وفي ضوء ذلك اســتفاض عروة في أخبــار «بدر»، متتبعاً تفاصيلها، خلافاً للزهري الذي ابتســرها حتى الاختزال.

ويبــدو أن الزُهـــري الـــذي غــادر المدينة ليســتقرّ في دمشق، برعاية خاصة من الخلفاء الأمويين، صرفــه ذلك عن الاهتمام على نطاق أوســع بأخبار الرســول ﷺ ســيرة ومغـازي، متفرّغاً أو شــبه ذلك لمهام استشــارية في فقه الإســلام، أو توجيهه بإلقاء أحاديث على أبناء الخلفاء.

ويلفت في هذا السياق، إغفال الزهري ذكر «مؤتة»، بينما ارتقت لدى عروة، والواقدي، إلى مرتبة غزوة، ربما بســبب فرادتها بين السرايا التــي كانت في الغالب اســتطلاعية أكثر منها هجومية، هذا ســوى العدد المرتفــع الذي بلغ، في رواية الواقدي، ثلاثــة آلاف مقاتل، بقيادة زيــد بن حارثة. وإذا كانــت الأرقام تجنح عادة إلــى المبالغة، ســواء في هذه الجبهـــة أو تلك المقابلة لها، فإن أهمية «مؤتة» ليســت خاضعة لهذه المسألة، فهي أول حملة تخترق الشام إلى المدى الذي وصلــت إليه، إذ تمت في وقت كان الإســلام فيه قد تجاوز خط التهديد من جانب الشرك، ما شجعه على كسر التوازن الإقليمي، باتّجاه الشام التي ما انفكت مشروعاً حيوياً في سياسة الرسول ﷺ، ورأى فيها البوابة الكبرى لانتشــار المسلمين، بما يتواءم وطبيعة الدعوة - الرسالة، عدا ضرورة التسريع في التواصل مع القبائل العربية المتنصّرة، واستعادتها من الفلك البيزنطي.

وفـــي مقارنـــة بين مغـــازي كل مـــن عروة والزُهـــري، فـــإن كلتيهما تفتقد الانســياب في المنهج، وهو أكثر بروزاً لدى الزهري الذي يشذّ عن أســتاذه بعدم التزامه بالســياق التاريخي، كذلك في وحدة الموضــوع. فبينما اختتم عروة بآخر الغزوات «تبــوك»، غل الزهري في العهد الراشــدي حتى الفتوحات، ودائماً في ســياق متعثّر واضطراب فــي المصطلحات، كأن يُطلق غزوة على القادســية، ثم يُدرج بعدها خبراً عن عبدالله بن أبيّ في نهاية «الكتاب».

وإذا كان علــى المُحقّق أن يلتزم بالنصوص، فلا يســوّغ ذلك اختــلال وحدتها وعدم انتظام سياقها.

وعلــى الرغم ممــا يشــوب «الكتابين» من ثغرات في المنهج، فإن ذلك لا يقلّل من أهميتهما مصدرين فــي المغازي، غيــر بعيدين عن عهد الرســول ﷺ، فضلاً عــن احتوائهمــا أخباراً في الســيرة، الأكثر التزاماً بهــا عروة، وأخباراً متناثرة عــن أحداث في العهد الراشــدي في «كتــاب» الزهري. وقد أثنــى المحقق زكّار على الأخير - أي الكتاب - واعتبره «الأثر التاريخي الوحيد المــدوّن الذي يصلنا كامــلاً في العهد الأموي». فهل يعني ذلك أن مغازي عروة ليست كاملة؟ ربما كان في ذلك شيء من الصحة، إذا توقفنا عند أحداث مقتضبة لا تتعدى ســطوراً قليلة في كتابه، ولكنه يبقى أكثر شمولاً ومنهاجه أكثر رصــانة، مما لدى تلميذه.

ومن الغريــب أن غــزوة «الحديبية»، كانت أول عنوان في كتاب الزهري، وقد أسهب فيها، بينما اختصرها عروة، بنزول الرســول ﷺ في الحديبية، قاصــداً الاعتمار، وإيفــاده عثماناً المتحدّر من عشيرة الرجل القوي (أبوسفيان) إلى مكة، لمفاوضته بشــأن العمرة، فانتهى به الأمر إلى الاتفاق أو الصلح المعروف باسم الحديبية. ولــم يُضف أكثر من ذلك، إلــى أهمية الأخير، وانعكاســه الإيجابي على الصــراع مع الوثنية، محققّاً أول نصر سياســي على أعداء الإسلام، وممهداً بالتالي لانهيار منظومة الشرك.

لقد مــال عروة غالباً إلــى الاختزال، حتى

في بنود الصلح، أو لعل هذه وصلت إلينا بالتواتر كذلك، مع العلم بأن الزهري يستهل مادة الحديبية، بإسناد خبرها الأول إلى عروة، وقد جاء فيه: «عبدالرزاق بن معمر، قال: أخبرني الزهري، قال: أخبرني عروة بن الزبير... خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية...»، إلى نهاية الحديث بصيغته الكاملة، من دون إغفال أبرز نتائجه، بأن الإسلام في مأمن لعشر سنين من أي عدوان قريشي.

ولم يعد بعيد «العمرة»، ما يحول دون مخاطبة ملوك المرحلة من هذا الموقع، موجّهاً إليهم «كتباً» تدعوهم إلى الإسلام... هذه الكتب لم يكن في بال الرسول ﷺ أن تُحدث تغيّراً ما في نفوس هؤلاء، إلا أنها في أبعادها الاستشرافية، ظلت تتفاعل في وعي المرحلة، ممهدة لتحوّلات جذرية، تجلّت إرهاصاتها في سرية مؤتة وغزوة تبوك.

والواقع أن مغازي عروة والزهري لم تتسم بالشمولية، إذ الأول اقتصر على ذكر ست عشرة غزوة، والآخر حذف منها خمساً لتستقر على اثنتي عشرة، وما عداها كانت أخباراً لا تمتّ بصلة إلى المغازي. ومن هذا المنظور، فإن الوحيد الذي تصدى برصانة وإسهاب لموضوعة المغازي، هو الواقدي، وقد بلغ مجموع ما صنّفه ثلاثاً وثلاثين غزوة، مندرجة على نحو تفصيلي في مجلدات ثلاثة.

إنه كتاب متميّز في مجاله، وقد يعود ذلك إلى طبيعة المرحلة التي عاصرها، حيث شهدت تطورات انقلابية في السياسة والعلوم والاتجاهات الفكرية. فقد وُلد الواقدي في المدينة، وأمضى نحو نصف قرن فيها، وأصاب من العلم مكانة عالية، إلى نباهة جعلته قريباً من الناس والعلماء وذوي النفوذ، لاسيما يحيى بن خالد البرمكي وزير الخليفة الرشيد الذي أعجب به وفتح أمامه أفقاً جديداً بالانتقال إلى بغداد، مقرّباً بعد حين من الخليفة المأمون، لتنطلق شهرته من هناك.

لقد عاش الواقدي جُلّ القرن الثاني الهجري، وقبله عاش عروة جُلّ القرن الأول، فيما الزهري كان مخضرماً واكب القرنين معاً. وقد فاق الواقدي سلفية وعُدّ من علماء عصره البارزين، فنُسب إليه - وفاقاً لمارسدن جونس محقق المغازي - ما يزيد على عشرين كتاباً في الفقه والسيرة والتاريخ والأدب، عدا كتابه الأكثر رواجاً، أي المغازي. ولسنا معنيين بحياته الشخصية في ما يتعلق بأهوائه وانتماءاته، وكل ما هو خارج هذه المقالة، فقد أجمعت الآراء على تقريضه، قاضياً رصيناً، ومصنّفاً نزيهاً، «ولاتزال كتاباته - والكلام للمؤرخ الفرنسي سورديل - حول عصر الرسول محمد ﷺ، تشكّل مصدراً وحجّة عند العلماء المسلمين». ويرى جونس، أن «من أهم الخصائص المميزة لمغازي الواقدي، هي النظام المتكامل للتواريخ». ويصف منهجه بأنه متكامل ونقدي ويخلص إلى أن مغازيه «أكمل وأتم مصدر محايد، لتاريخ حياة النبي في المدينة».

ولم يهمل الواقدي البعد الجغرافي في غزواته المفعمة بالتفاصيل التاريخية، هذا عدا الحرص على التوثيق، ولكن من دون التسليم بصحة السند، قبل تقويمة وإبداء رأيه في الرواية بوساطة مصطلحات خاصة به. كما يتتبّع حركة المجاهدين والمواقع، إلى الأعداد وخطط القتال وارتفاع نبرة الحماسة، متصادية مع آيات قرآنية، تشيع أجواء تحريضية على القتال وثقة بالنصر، ومنها هذه الآية من سورة الأنفال: ﴿**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

كان ذلك في موقعة «بدر»، وقد أسهب فيها الواقدي، مستلاً مادتها من عدد من الأخباريين ومنهم الزُهري. وإذا رجعنا إلى هذه الموقعة في مغازي الأخير، فلن نجد ما يتعدى الرواية الشائعة عن قافلة أبي سفيان واستنفار قريش في مكة، وتجهيز حملة قاربت من ألفي مقاتل، على رأسهم أبوجهل، ثم خرج بهم، تاركاً القيادة

لعتبة بن ربيعة، حيث سقط كلاهما في ساحة المعركة. أما المسلمون فلم يزيدوا إلا قليلاً على ثلاثمائة، وقد يحتاج ذلك إلى نقاش، إذ إن إخباريات المرحلة كانت تميل إلى المبالغة، خصوصاً في التفاوت بين أعداد القلة المنتصرة من المسلمين وبين الكثرة المنهزمة من الأعداء، لإظهار أن المؤمنين لا يقاتلون بسيوفهم فقط، وإنما تؤازرهم سيوف الله. وفي المحصلة تجنّب أبوسفيان - زعيم مكة - المعركة ونجا بالقافلة، بينما وهم أبوجهل، الرجل القوي بعده، بأن الفرصة حانت للقضاء على الرسول ﷺ ودعوته، فقُتل وتشتّت صحبه في كل ناحية، قبل تراجعهم مندحرين إلى مكة، مخلّفين عدداً كبيراً من القتلى وراءهم.

لقد أطنب الواقدي في أخبار «بدر»، واغلاً في تفاصيلها من الأسباب، إلى شهودها وشهدائها من المسلمين، إلى لوائح الأسرى والقتلى من المشركين، ما يدفعنا إلى التساؤل عن دقة مصادر الواقدي، وقد تيسّر له رصد هذه المادة المسهبة، خصوصاً أن تصنيفها حدث بعد نحو قرنين على وفاة الرسول ﷺ.

ومن اللافت أن الواقدي لم يقتبس أخبار «بدر» عن سلفه الزهري التي رواها بصورة مقتضبة، بينما وجد ضالته إلى حدٍّ ما لدى عروة، وكان متطابقاً معه وإن بصورة جزئية، مع رجحان في التفاصيل لمصلحة الواقدي الذي تتبّع الأسماء والأرقام لدى الطرفين، وأكثر من الاستشهادات القرآنية، بالإضافة إلى منهج أكثر سلاسة وإن شابه تُخمة المادة بعض الأحيان.

ولكن «بدراً» جديرة بالإطناب، فقد كانت فاتحة النصر العظيم على الشرك، حيث كُسرت شوكة قريش في هذه المعركة، وأصيبت معنوياتها في الصميم، إذ هزمت أمام قلّة من المؤمنين، وانسحبت فلولها، وليس في بال قادتها سوى الثأر، هذا الذي لم يحدث، فيما كانت الانتصارات تتوالى على جبهة المسلمين، من دون أن تعرقل اندفاعهم هزيمة «أحد»، وهي ليست واقعاً كذلك. ومن هذا المنظور أخذت «بدر» هذه الهالة لدى عروة والواقدي، لاسيما الأخير الذي أحاط بتفاصيلها من دون التسليم المطلق بصحة الرواية، ولعله من أوائل الذين مارسوا عليها النقد بمعيار ذلك الزمن ■

طرائف عربية

أحمق ثالث

حكي أن أحمقين اصطحبا في طريق فقال أحدهما للآخر: تعال نتمنَّ على الله فإن الطريق تُقطع بالحديث. فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها. وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً. قال: ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة؟! فتصايحا وتخاصما واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا أن يكون أول من يطلع عليهما يكون حكما بينهما. فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال: صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

(الزِّقُّ: وعاءٌ من جلدٍ يُجَزُّ شعرُهُ، للشراب وغيره)

رسالتان من شاعر الجندول علي محمود طه إلى حسين عفيف

نبيل فرج كاتب من مصر

عرفت حسين عفيف (1902 - 1979) شاعر قصيدة النثر في سنواته الأخيرة، وأجريت معه حوارات صحفية عدة، جمعتها بعد رحيله في كتاب صدر باسمه في المكتبة الثقافية سنة 1986. وخلال هذه اللقاءات مع حسين عفيف، التي كانت تتم في أحد مقاهي الدقي المطلة على الميدان، قريبا من بيته، أعطاني نسخة مصورة من وصيته، وصفحات مخطوطة عن منهجه في كتابة الشعر المنثور، ورؤيته للإبداع. وفي آخر لقاء مع حسين عفيف قدم لي وأنا أودعه هاتين الرسالتين اللتين تلقاهما من الشاعر الكبير علي محمود طه، شاعر الجندول، في سنتي 1940 و1941، يشكره فيهما على إهدائه ديوانيه الجديدين «الأغنية» و«العبير».



تتمثل أهمية هاتين الرسالتين في إطلاعنا على هذا التعامل الرفيع بين الشعراء، فرغم أن حسين عفيف كان في هذا التاريخ في بداية حياته الشعرية، لم يكتب عنه أحد، وكان علي محمود طه في قمة شهرته، تنفد دواوينه التي يعاد طبعها مرات، ويحتفي به النقد والنقاد في مصر والأقطار العربية، إلا أنه حرص على أن يقدم لحسين عفيف بخط يده الشكر على هديته. ومثل هذا الخلق لا أظن أن أحداً من الأسماء اللامعة في هذه الأيام يلتزم به، في ما عدا نجيب محفوظ، الذي كان - رحمه الله - يكتب خطابات الشكر لكل من يرسل إليه كتاباً، بل كان يرد بقلمه على كل رسالة تصله، حتى لو كانت من أسماء نكرة.

ولا تقتصر أهمية هاتين الرسالتين على هذا المعنى الأخلاقي، ولكن ترجع هذه الأهمية أيضاً إلى ما تتضمنه من عبارات نقدية لا يكتبها إلا ناقد متخصص، تنبئ عن ثقافة فنية تمتع بها شاعر الجندول علي محمود طه، يرتبط فيها الجمال بالفن، والواقع بالخيال، والحقيقة بالأوهام، وتعد فيها الموسيقى عنصراً ثابتاً تميز به شعر هذا الشاعر الغنائي الكبير، الذي جمع في قصائده بين الفطرة والحرفة. ويبدو أن عدم التزام علي محمود طه تقاليد الشعر العربي كان بمنزلة الأرضية المشتركة التي التقى عليها الملاح التائه مع حسين عفيف شاعر قصيدة النثر، إضافة إلى اشتراكهما في افتتانهما بالمرأة. وإلى جانب الشعر الوجداني والوطني الذي صدر لعلي محمود طه في خمسة دواوين، فقد كتب عديداً من المقالات في الدوريات



علي محمود طه

صديقي العزيز الشاعر النابغة الأستاذ حسين عفيف

تلقيت بمزيد الغبطة مؤلفك الجديد "العبير"
فاستوقفني شعره وأطربني تنغيمه وما زلت
أقول في شعرك الحلو الرخيم وقد أسلفت
البرهان على تقديري لرفيع فنه وبدائع حسنه
فلتهنأ يا صديقي بعبيرك الساطع الفواح
ولتهنأ به عشاقه روحك الصافي وأوديت
النبيل وودتي لك

علي محمود طه
١٩٤٩/٢/١٢

علي محمود طه

عزيزي الشاعر الثائر الأستاذ حسين عفيف

طالعت في أغنيتك البديعة شعرا منثورا
كله عذوبة وكله فن وجمال. تخطر فيه الموسيقى
اضطرارا رخيا وتتألف فيه الألفاظ بين العاطفة
الحية المتدفقة نغمات متوافقة. هو أسلوبك
في الصورة الذي أبدعته. وطريقتك الخاصة
التي أرجو أن تصل بك الى المزيد من الفن و
الجمال لتتحفنا بروائعك فأشكر لك هديتك
ولك محبتي ومودتي

المخلص
علي محمود طه

لبنان في ٢٠/٦/١٩٥٠

الصحفية عن الشعراء الأجانب الذين تعرف على أعمالهم، مثل بول فيرلين، شارل بودلير، جون ماسفيلد، الفريد دي فيني، وجمع كتاباته عنهم في كتابه «أرواح شاردة» الذي صدر في طبعتين متتاليتين في 1941و1942، وكتب علي محمود طه بخط يده على النسخة المهداة إلى طه حسين: «إلى الكاتب العالم الأديب العظيم الأستاذ الجليل طه حسين بك تحية صادقة وتقديرا لأثره في المدرسة الحديثة». ويلفت النظر في هذا الكتاب اطلاع علي محمود طه الواسع على الشعر الفرنسي والآداب العالمية، ووقوفه على مذاهبها الفنية، وترجمته الشعرية لبعض قصائد منه، قدمها بفهم دقيق لمواطن الجمال في الفن الخالد.

علي محمود طه (1902 - 1949) شاعر من طراز رفيع، صاحب قيثارة ونغمات متقنة السبك لا تضارع، شعاره الحب، ورسالته الجمال، له قاموس لغوي خاص، يصوغ كلماته في أساليب عصرية وخيال خصب، لا يلتزم فيها الشكل التقليدي للقصيدة العربية ويبني الجديد على القديم. وعلى الرغم من التطور الكبير الذي شهده الشعر العربي منذ رحيل علي محمود طه، فلا يستطيع ناقد أو مؤرخ لتاريخ الشعر العربي أن يتجاهل شاعر الجندول، أو يغض النظر عن أثره، وكان أكثر ما يمس قارئه هو شعور الشاعر الحاد بالحيرة بين المادة والروح، والخير والشر، وامتزاجه بالطبيعة.

والرسالتان التاليتان وثيقتان أدبيتان تشيران إلى طبيعة ذلك الشاعر الكبير الأخلاقية والإنسانية.

نص الرسالة الأولى:

عزيزي الشاعر الثائر الأستاذ حسين عفيف...

طالعت في أغنيتك البديعة شعراً منثوراً كله عذوبة وكله فن وجمال، تطرد فيه الموسيقى اطراداً رخياً وتؤلف فيه الألفاظ بيد العاطفة الحية القوية نغمات متوافقة، هو أسلوبك أيها الصديق الذي أبدعته وطريقتك الخالصة التي أرجو أن تصل بك إلى المزيد من الفن ومن الجمال لتتحفنا بروائعك، فأشكر لك هديتك ولك محبتي ومودتي.

المخلص علي محمود طه

القاهرة في 2 يونيو 1940

نص الرسالة الثانية:

صديقي العزيز الشاعر النابغة الأستاذ حسين عفيف... تلقيت بيد الغبطة مؤلفك الجديد «العبير»، فأسكرني شميمه وأطربني تنغيمه، وماذا أقول في شعرك الحلو الرخيم وقد أسلفت البرهان على تقديري لرفيع فنه وبديع حسنه. فلتهنأ يا صديقي بعبيرك الساطع الفواح، وليهنأ به عشاق روحك الصافي وأدبك النبيل، ودمت لأخيك.

علي محمود طه

12 فبراير 1941 ■

طرائف عربية

سكوت

لقي غلام أعرابي أبا العلاء المعري، فقال له: مَنْ الشيخ يكون؟ قال المعري: أنا أبوالعلاء المعري شاعركم المعروف. فقال الغلام: أهلاً بالشاعر الفحل ذي القول الجزل، والرأي الفصل، أنت القائل في شعرك:

وإني وإن كنت الأخير زمانه

لآت بما لم تستطعه الأوائلُ؟!

قال أبوالعلاء: نعم، أنا القائل ولا فخر. فقال الغلام: قول طيّب، وثقة بالنفس واعتداد، ولكن الأوائل وضعوا ثمانية وعشرين حرفاً هجائياً، فهل لك أن تزيد عليها حرفاً واحداً؟! فسكت أبوالعلاء. وقال بعد ذلك: والله ما عهدتُ لي سكوتاً كهذا السكوت!

القيمة الأخلاقيَّة لكتاب «المَلاحِن»

د. محمد علي عطا
أكاديمي من مصر

«المَلاحِـن» هـو كتاب من تأليف العلامة الأديب اللغوي ابن دُرَيد الأَزْديّ (ت321هـ)، صاحب كتب: «الجمهرة»، و«الاشتقاق»، و«الأمالي»، و«صفة السرج واللجام»، و«المطر والسحاب»، و«المجتنى»، وغيرها من الكتب. و«المَلاحِن» معجم من معاجم المعاني يقع في 17 ورقة، تتضمن 185 جملة مورّاة، تشمل ألفاظاً لها معنى قريب يعرفه الجميع ومعنى غير شائع لا يعرفه إلا لغوي، فكأنها لغز من الألغاز، مثال تلك الكلمات: كلمة «أعلمته» فلها معنى شائع يعرفه العامة وهو أعلمته الخبر، ولها معنى بعيد وهو شققت شفته العليا، وكلمة «كلب» لها معنى شائع يعرفه الجميع وهو الحيوان المعروف، ولها معنى بعيد وهو المسمار في قائم السيف، وكلمة «الفهد» لها معنى شائع عند العامة وهو الحيوان المعروف، ولها معنى بعيد لا يعرفه إلا المتخصص وهو مسمار في وسط رحل الدابة، وهكذا.



الاهتمام به قديماً

حظي هذا الكتاب بالاهتمام منذ القدم، حيث اهتم الرواة بروايته كما في فهرست ابن خير الإشبيلي (ت575هـ)، (1/325-326)، حيث ذكر أربعة طرق لروايته. ولخصه السيوطي (ت911هـ) في «المزهر» (1/445-447). كما نسج المؤلفون على منواله كما سيأتي.

تحقيقه ونشره

نشر وليم رايت الكتاب في ليدن عام 1859م، ونشرته المطبعة السلفية، وطبعه المستشرق هينرش توربكة في جامعة هيدلبرج عام 1882م، معتمداً على مخطوطة غوته، ونشر بمصر عام 1323هـ، وحققه أبوإسحاق إبراهيم اطفيّش الجزائري، ونشر مرة بتحقيقه في المطبعة السلفية عام 1347هـ، ومرة أخرى في دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407هـ = 1987م، ثم حقّقه د. عبدالإله نبهان، تحت عنوان «الملاحن معجم تراثي في الدلالات غير الشائعة للألفاظ»، فقد أضاف لاسمه عبارة توضيحية تبين موضوعه، ونشر أولاً في وزارة الثقافة بدمشق عام 1992م، ثم في مكتبة لبنان، ط1، عام 1996م.

هدف الكتاب

ذكر ابن دُرَيد في مقدمته هدفه من تأليفه، فقال: «هذا كتاب ألّفناه ليفزع إليه المجبَر المضطهد



علــى اليمين، المكـرَه عليه فيعارض بما رســمناه ويُضْمر خلاف ما يُظهر؛ ليســلم من عادية الظالم ويتخلّص من جنَف الغاشم».

ويفهم من هذا الكلام أن هدفه نبيل وهو إيجاد مخــرج للمظلوم المكره علــى اليمين، وهذا الهدف قد يصدق على من يحلف: «والله، ما ســألت فلاناً حاجــة قط»، يريد بالحاجة ضرباً من الشــجر له شــوك؛ فقد يكــون حلفه لنفي علاقته بشــخص تســتريب فيه الســلطة أو الحاكم ويريد المتهم أن ينفي صلته به، ويصدق هذا أيضاً على من يحلف: «والله، ما رأيت فلاناً قط ولا كلمته»، يريد برأيته: ضربــت رئته، وكذلــك في حلف الحالــف: «والله ما أعلمــت فلانا ولا أعلمنــي»، و«والله ما أخذت مــن فلان خُفًّا ولا نعــلاً»، يريد بالخف خف الإبل وبالنعــل القطعة الغليظة مــن الأرض، و«والله، ما أخذت من فلان جُبّة ولا لبستها»، يريد بالجُبّة جُبّة السِّــنان وهي الموضع الذي يُدخَل فيه رأس الرمح، و«والله، ما كنت ساعياً قط ولا أصلح لذلك»، يريد بالســاعي الذي يلي الصدقــات، و«والله ما دخلت لفلان بيتــا»، يريد بالبيت القبر. والحالف: «والله، مــا لي في هذا الكتاب خطٌّ»، يريد بالخط سِــيْف البحر؛ أي شاطئه.

صدقه في هدفه

ولكننا نصدم في هذا الهدف النبيل حين نجد فــي الكتاب ما يخالفه، بل يعكســه إلى مســاعدة الجانــي على الكــذب وعلى اســتباحة الأعراض وعلــى الخروج من تنفيذ حد الله عليه، ومثال ذلك قول الحالــف: «والله ما لفلان عنــدي جارية ولا اغتصبته عليها»، يريد بالجارية المعنى البعيد الذي لا يعرفه إلا ضميره وهو السفينة، فهل يحلف هذا الحلــف إلا من اغتصب جاريــة بالفعل، ويريد أن يخــرج من التهمة؟ وقس على ذلك قوله: «والله، ما كسرت لفلان ضرساً ولا سنًّا»، يريد بالسِّنّ قطعة من العشــب تتفرق في الأرض أو الثور الوحشــي، وبالضرس قطعة من المطر تقع متفرقة في الأرض، وقول الحالف: «واللــه، ما ظلمت فلاناً ولا غيره»، يريد ما ســقيته الظليم وهو اللــبن قبل أن يروب، وقول الحالف: «والله، ما أخذت من فلان حلياً ولا رأيتــه»، يريد بالحلي ضرباً من النبت ترعاه الإبل، وقــول الحالف: «والله ما رأيت له أتانا ولا أخذتها منه»، يريد بالأتــان صخرة في بطن الوادي، وقول الحالــف: «والله، ما أخذت له دجاجة ولا فرُّوجاً»، يريــد بالدجاجــة الكبة مــن الصــوف وبالفروج الدّرّاعــة، وقول الحالف: «واللــه ما أخذت لفلان بقرة ولا ثــوراً»، يريد بالبقرة العيال الكثيرة ويريد بالثور القطعة العظيمة من الأقط، وقول الحالف: «واللــه، ما ضربــت لفلان بطناً ولا ظهــراً»، يريد بالبطن المنخفض من الأرض، ويريد بالظهر المرتفع من الأرض، وقول الحالف: «والله، ما مسست ألية فلان»، يريد بالألية أصــل الإبهام، وقول الحالف: «والله، ما كشفت لها قناعاً، ولا عرفت لها وجهاً»، يريد بالقنــاع الطبق وبالوجه القصــد، وكثير من مادة الكتاب علــى هذا المنوال، منها الكلمات رقم: 90، 126، 134، 137، 150، 167، 173، 177، 182.

وقد لمّح لذلك - دون استقصاء - محقق الملاحن د.عبد الإله نبهان (ص19)، حيث يقول: «فزعم أنه ألفه ليفزع إليه المجبَر المضطهد على حلف اليمين فينجو من جنف الظالم وحيفه؛ أي إنه قدّم ســبباً دينيًا شــرعيًا لتأليفــه، ولا أحب أن أنفي ما زعمه وإن كنت أرجح أن غايته الأساســية إنما هي غاية تعليميــة الغرض منهــا الرياضــة اللغوية، وحفظ المزيد من مفــردات اللغة، وحفظ المعاني المعجمية الأخرى لكثير من الألفاظ المشــهورة بمعنى واحد بين الناس».

كما نبّه د. شــرف الديــن الراجحي في كتابه «محمد بن دريــد وكتابه الجمهرة» (ص159، 220) إلى هذا الأمر، وربط بين صنع ابن دريد وما عرف في الفقه بالحيل الشرعية التي وقف ضدها بعض الفقهاء، فقــال: «ومجمل القول أن كتاب ابن دريد في الملاحن يشــبه مســألة الحيل فهو يتساهل أو يتسامح ويتحايل على اللغة للميل إلى معنى آخر».

دورته التراثية

ينتمي هذا الكتاب إلى دورة تراثية صغيرة هي دورة فن الملاحن، ألّف فيها:

-المفجّع البصري (ت327هــ) كتاب «المنقذ من الأيمــان»، ولــم تبق منــه غير نصوص فــي خزانة

الأدب (336/3) وفيه أنه ترجم لمحمد بن اليحمدي، و(117/3) وفيه ذكر للغري وهو موضع بالكوفة، وفي معجم البلدان (247/3) وسماه «المنقذ من الأيمان في أخبار ملوك اليمن»، وفيه حديث عن قصة الملك شمر وفتحه سمرقند، وفي (440/3) ذكر أنه وضعه على مثال الملاحن لابن دريد، وفي هذا الموضع ذكر للصين ومن نسب إليها.

- أبو العلاء المعري (ت449هـ) في بعض نصوص «الصاهل والشاحج» (ص222).

- ابن فارس (ت 495 هـ) ألف كتاب «فُتْيَا فقيه العرب»، حقّقه د. حسين علي محفوظ، ونشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد 33، يوليو 1958م، ص443، وما بعدها، والجزء الثاني نشره فيها في العدد 4 ديسمبر 1958م، ص633.

- الحريري (ت516هـ) في مقامته الثانية والثلاثين؛ الطيبية.

- الكلاعي محمد بن عبد الغفور (ت550هـ) في فصل من كتابه «إحكام صنعة الكلام»، وسمّاه المورّى (ص188).

ورغم أن اسم كتاب المفجّع البصري يوحي بأنه سارٍ على منهج ابن دريد نفسه في الحلف على شيءٍ يجهله المستمع ويقصده الحالف، فإن النصوص القليلة التي وصلتنا لا تدل على ذلك، ففكرتنا عن منهجه مشوشة.

أما أبو العلاء المعري (ت449هـ)، فقد أدار الأمر في «الصاهل والشاحج» (ص 222-224) على حكاية تاريخية عن سمات أهل البيت وأفعالهم، مثل: «وكان علي عليه السلام يرحم الأرملة، ويبر اليتيم، ويضرب بحد سيفه أم الصّبيين، ويقطع يد الفيل على السّرَق... إلخ».

أما كتاب ابن فارس (ت495هـ) فصوغ كلامه أنبل من صوغ ابن دريد، حيث استخدم الكلمات في أسلوب شريف، فقد ساق ابن دريد «الملاحن» على لسان حالف يحلف ليخرج من العقوبة، بينما تخيل ابن فارس لغويًا يسأل فقيهًا سماه «فقيه العرب» بألغاز لغوية فيجيب بلا تردد ملاحظا المعنى البعيد المراد لا المعنى القريب، ثم يشرح ابن فارس المعنى البعيد الذي فهمه الفقيه، مثال ذلك: «قيل لفقيه العرب: هل يجب على الرجل إذا أسهد الوضوء؟ فقال: نعم، والإسهاد أن يمذي الرجل».

بينما قلّد الحريري (ت516هـ) ابن فارس (ت495هـ) في مسألة المستفتي والفقيه الأريب، ولم أقف على كتاب الكلاعي. فكل كتب هذه الدورة التراثية تقريباً صاغت الأمر صوغاً شريفاً.

وخلاصة الأمر أن الإمام الأديب اللغوي ابن دريد تنكّب الجادة في كتابه وتعجّل في صوغه على نحو أخرج غالب محتوى كتاب «الملاحن» إلى منحى غير أخلاقي ربما يساعد ذوي الأخلاق المنحرفة على الخروج من الحدود، وكان يمكن أن يتخير له صيغة شريفة كما فعل مَن بعدَه ■

طرائف عربية

خبر وعبر

وقف قس بن ساعدة الإيادي خطيباً فقال: أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، كل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، رضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يا معشر إياد أين الآباء والأجداد؟ وأين الفراعنة الشداد؟ وأين من بنى وشيد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول منكم أجلاً؟ طعنهم الدهر بكلكله فترك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية عمرتها الذئاب العاوية!

كلا بل هو الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود.

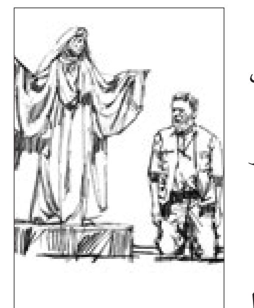
قصص قصيرة جداً

عبدالكريم المقداد
قاص وناقد سوري مقيم في الكويت

ذاكرة للبيع

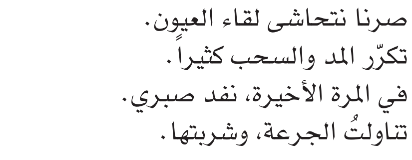
«للبيع: ذاكرة متوهجة لمفكر في مجالي السياسة والتاريخ. يجيد، إضافة إلى اللغة العربية، اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وله تجربة رائدة في مجال الكتابة...».
كان الإعلان بارزاً وجاذباً على الصفحة الأخيرة من الجريدة. ماذا ينقص تاجراً ناجحاً مثلي غير ذلك.
على الفور، اتصلتُ بصاحب الإعلان، واتفقنا على كل شيء.
لا أنكر أنني صرت أرى عوالم جديدة ما كنت أتخيّلها،
لكن الطامة الكبرى أنني ما عدت أنام.
هدّني الأرق، تراجعتْ صحتي، فبعتها.
اليوم، وبينما كنت أطالع الصحف،
صدمني خبر انتحار من اشتراها.
أفاد الخبر أيضاً، بأنه بعد تحريات وتحقيقات لجنة حماية المستهلك، تبين أن البائع الأصلي لم يصرح بأن الذاكرة تعود لسوري كان شاهداً على كثير من المجازر خلال الثورة!

حيرة



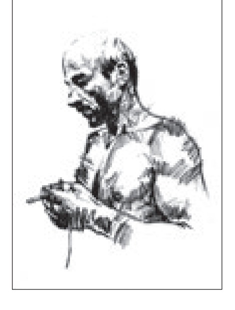
كانتْ في منتصف المسافة،
حين أطلق الأخ النار على أخيه،
ثمّ... على نفسه.
صرخت الأم بقوّة.
لكنها لبثت في وقفتها أكثر من المتوقع.
حارت إلى أيّ منهما تهرع أولاً.

عطش



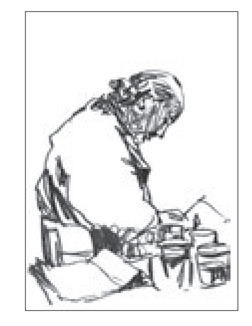
تهنا في طريق العودة.
جبنا الصحراء في كل الاتجاهات، حتى نفد البنزين.
هدّنا العطش، ولم يتبق معنا إلا جرعة ماء.
ببطء وخفر، أمدُّ يدي إليها، ثم أسحبها.
تماماً، كما تفعل هي.
صرنا نتحاشى لقاء العيون.
تكرّر المد والسحب كثيراً.
في المرة الأخيرة، نفد صبري.
تناولتُ الجرعة، وشربتها.

ظل



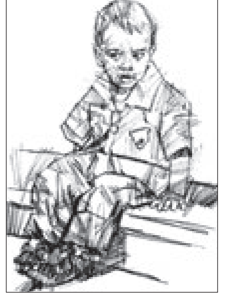
هويتُ بالصخرة على جمجمته، ولم يصب بأذى!
بالمسدس واجهته، في المرة الثانية.
كان يستند أمامي إلى الجدار مباشرة،
فأفرغتُ المخزن في رأسه.
لكنه لم يتأثر!
لست مجرماً. ولا أحب الأذية.
فهل تجنيتُ عليه، والمعلومات التي كان يتخم بها تقاريره لهم، ما كان يعرف بها إلا ظلي و... زوجتي؟!

أحلام



هدّني الأرق. أتحايلُ على طير الناس، فلا أظفر به إلا قبيل هنيهات من موعد التحاقي بالعمل.
وبينما كنت أتقلّب كعادتي، تعثّرت يدي أمس بخيط في وسادتي.
رحتُ أتسلى بفتله، وشدّه، فتمدد، واستطال!
وحين انتبهتُ، فاجأني ما علق به من صور، راحت تتتالى كلما سحبته:
بقايا بيوت وشظايا، مطر أحمر، مركب جانح، قمر مشروخ، طفل يتسول،
جثث متفسخة، طائر يشخب دماً، أطراف صناعية...
حين أفاقت زوجتي على شهقاتي كنت قد كوّمتُ أمتاراً من الخيط على أرض الغرفة.
صعقتْ لما رأتْ، ثم صارتْ تساعدني في شد الخيط حتى انتهينا منه بعد أكثر من ساعة.
لففتُ كومته، بدمائها وروائحها النتنة، في كيس، ورميتها في حاوية القمامة في الخارج.
نمتُ يومها كما لم أنمْ قبلا.
لكن ما أثار دهشتي حين نزلت للالتحاق بالعمل تلك العيون المحمّرة لجيراني.
كاد بعضهم يتعثّر بقدميه. ومنهم من كان يحاذيني ولا يراني.
لم أسمع «صباح الخير» من أيّ منهم في ذلك الصباح!

قرد



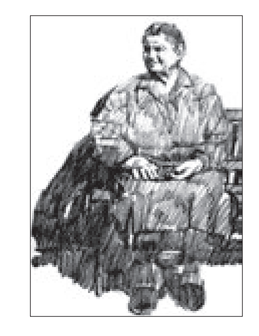
ليت الحال وقفت عند حدود القصات الغرائبية، والصبغات العجائبية،
فقد وصل بها الأمر أن جعلتني زبوناً دائماً لعيادات التجميل.
المرة الأولى الأنف، والثانية الخدود، والثالثة الشفاه... والعاشرة...
لم يغظني، حين تخطيتُ الأربعين، أنني ما عدت أعرف نفسي في المرآة، قدر ما أغاظني أنها ما عادتْ تطيقني:
- كيف أعيش مع قرد؟!



وخز

ماذا أفعل بهذا الولد؟
كان يجنّني ولم يدخل المدرسة بعد!
صدمني قبل فترة بسؤاله:
بابا، مَن يمسك بالسماء فلا تقع علينا؟
خفت أن أجيبه حتى لا تتناسل أسئلته، فشاغلته بإصبع من الشوكولا.
قبل أيام، وعندما فاجأتنا السماء بمطر غير متوقع، بادرني:
من يرشّنا بالماء بابا؟
كتمت غيظي، وشاغلته ثانية.
اليوم، كدت أختنق بلقمتي حين فاجأني على العشاء:
بابا.. ماذا فعلتَ وأمي حتى خرجتُ من بطنها؟!

عكس الاتجاه



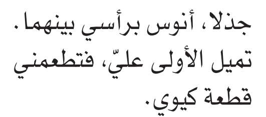
طائـرات تلقـي المـوت بعشـوائية. الدمـار في كل مكان.
الكل يركض كما يوم الحشر، إلا هي.
عجوز تتبدّى من بين غبش الدخـان. تـدب بعكازهـا كالسلحفاة عكس الاتجاه.
وجه عتيق، صارم، ولامبالاة أسطورية.
بعكازها تزيح رؤوساً مفصولة، وأطرافاً مبتورة، وتواصل الزحف.
ملفوفة بالدخان والغبار والموت تتقدم إلى حيث يفرون.
في وسط سـاحة المدينة، التي وصلتها بعد جهاد مرير، غرستْ عكازها.
ببطء، ويدين واهنتين، واصلتْ الغرس.
الذهول أعاد الفارين، فتحلّقوا حولها.
توقفتْ، وراحت تحاكي عيونهم بصمت صاخب.
لحظات، وبدأ سباقهم إلى العكاز، يمتّنون غرسه.

قناص



لم أقنص اليوم إلا خمسة، لكنني لـم أتمالك نفسـي حين رأيتهـا وأنا في طريق العودة.
طفلـة كانت تجرب المشـي على حافة السطح في الدور الثالث.
حين قنصتها، هوت كعصفور.
ما إن اقتربتُ من البيت، ورآني، حتى ترك ولدي أصحابه وطار ليحط على صدري.
احتضنتـه قليلاً. وحـين صعب عليّ احتضـان الاثنين، أنزلته وأبقيت على البندقية.
لابـد أن زوجتي كانت تنتظرني بشـوق، لكن لا أدري لمَ حدث ما حدث؟
فما إن فتحتُ الباب، ودخلتُ، حتى سـدّدت نحو رأسي، وقنصتني!

طعنة كيوي



جذلا، أنوس برأسي بينهما.
تميل الأولى عليّ، فتطعمني قطعة كيوي.
تغـار الثانيـة، فتميل أكثر، وتطعمني قطعة أخرى.
مهرجـان من الدلال لم ينته إلا عند آخر قطعة كيوي.
هـذه تصرّ على أن تطعمني إياها، والأخرى تلحّ على أن يكون ذلك من نصيبها.
لا أدري كيـف تلاطمـت الغيـرة حتـى وصلـت إلـى السكاكين؟
الأولى هـدّدت بطعني إذا لم يكـن إطعامي القطعة من نصيبها.
الأخرى لوّحت بسكينها، وتوعدت إذا لم تحظ بذلك.
لا أدري سـيدي المحقـق، فأنـا لـم أصـح إلا هنا في المستشفى!

طرائف عربية

ثلاثـــــة

مـرض أحـد حكماء العرب ولكنه أمـر بألا يؤذن لأحد مـن زواره بالدخول عليه، فلما شُـفي أنكـر عليه أصحابه ذلك فقال: عـوادي ثلاثة: صديق وعدو، وثالـث ليس عدواً ولا صديقـاً، أمـا الصديـق فإنه يتألم لرؤيتي مريضـاً، وهذا ما لا أرضاه لـه، وأما العدو فإنه يشمت بي وهذا مالا أرضاه لنفسي، وأما الثالث فلا حاجة به ولا بي لزيارته!

قصص على الهواء





قصص لأصوات شابة تنشر بالتعاون مـع إذاعــة «مونت كـارلـو» الدولية *

لماذا اخترت هذه القصص؟

عرض واختيار نبيل سليمان - كاتب وروائي من سورية

من السـودان تتقدم قصة عوض كمال «فخ النصوص» إلى المرتبة الأولى من بين خمسة عشـر قصة دخلت السـباق في هذه الدورة من برنامج «قصص على الهواء». وإذا كان بين هذه المجموعة خمس قصص عاجزة عن الدخول في السـباق، وهي: «موت حتى إشـعار آخر - لن يمـوت الحلم - من كوة القمر - وسـعينا لتفتيت عصابة الكلاب المتشـردة - صوت الآذان»، فثمة قصص أخرى تتنافس بجدارة مع القصص الخمس الفائزة، منها «القصاص - المسمار». أمـا القصص الفائـزة فهي بالترتيب: «فخ النصوص - بابنا - زيـارة - ربيع رمادي - خراف وخرافات».

● المرتبة الأولى: «فخ النصوص» لعوض كمال - السودان

تبدع القصة على أكثر من مستوى، وربما كان أولها المستوى اللغوي. فعدا عن المكنة البادية في اختيار المفردات وصوغ الجمل القصيرة المتوفزة، تأتي اللعبة الفنية المتميزة والذكية المتمثلة بتشـغيل اللغة كفاعل سـردي، فلا تعود إهاباً وحسب، بل تصير جسداً سردياً إن صحّ التعبير. وهكذا نرى الشـخصية القصصية «هي» تختبئ خلف «الاسـتعارات الكلامية»، أو تتحدث عن مدينتنـا التـي ترفل في «خدع الحداثة اللغوية». وبين «هي» والشـخصية الأخرى «هو» تفصل «هوة تعبيرية»، وكلّ يرسـم الآخر من منظوره. وعلى مسـتوى البناء، تنهض القصة ببسـاطة، ولكـن بإحكام وإغـواء لافتين. فبعد الفقرة الأولى الوجيزة - وكل مـا في القصة بالغ الإيجاز والتكثيف - التي يشـتبك فيها هو وهي، يكون لكل منهما فقرته التي يتحدث فيها عن الآخر، إلى أن تأتي الخاتمة بلقطات سـريعة للنادي ولـ «هو» ولـ «هي»، وتوفي القصة قولها المأثور في أن الذكورة لاتني تشرخ الأنوثة.

● المرتبة الثانية: «زيارة» لعبدالعالي النميلي - المغرب.

هي أيضاً قصة بالغة التكثيف، ومحكمة البناء، وفيها يشتق السارد من شخصيته شخصية،

* تُنشر القصة الأولى الفائزة في هذا العدد، بينما تنشر بقية القصص الفائزة على موقع مجلة العربي وتُبث في إذاعة «مونت كارلو الدولية» على مدار شهر أغسطس 2016.

بالأحرى، تتلبسه شخصية الرجل الغريب المنكسر الذي يبحث عن فكرة أو صورة شاردة، ليكتب في كراســته. وسوف توقظه الريح من سهومه وأخيلته ليرى القصيدة التي تشبه أسطرها آثار قدمي طفل على الثلج. وكما ينبغي أن تكون قفلة القصة القصيرة محكمة، تتقفل قصة «زيارة» بالثقوب السوداء الشعثاء على صفحة الثلج «كأنها أعين دنيا منقرضة تحدق إلي بمرارة».

● **المرتبة الثالثة: «بابنا» لسامي عبد الستار مسلم - مصر**

جاءت هيئة القصة في ســطور تنادي الســطور الشــعرية، وعبرها يــروي الراوي بضمير المتكلــم تفاصيــل حارة من واحد من صباحاته: لقاء الجار عم ســعيد، الإفطار، الصمت الذي يشــي بالموت، الــذي يفجر الأخيلة والهواجس، ومنها أن يقتحــم أحدهم البيت ويرمي من فيه بالرصاص. وهذا الصدى للرعب العميم يتعزز في مخاطبة الراوي للباب، ويتوج بالشاشة التي تبث الرعب، لكأننا نموت من أجل الموت.

● **المرتبة الرابعة: «ربيع رمادي» لسميرة عواد - سورية**

في مدينة قطّعت الحرب أوصالها تلجأ طفلة إلى الساردة، لكن المدينة ترفض ذلك، فترحل أسرة الساردة بالطفلة إلى مدينة ناجية من الحرب. ولكنّ ماردين ملتحيين يخطفان الطفلة في هذه المدينة، فالشرّ مستفحل، ولم يبق إلا النظر إلى السماء والأمل بزمن مختلف.

● **المرتبة الخامسة: «خراف وخرافات» لسعيد بودبوز - المغرب**

تنافس القصة الأخيرة سابقتها على المرتبة الرابعة، لولا أن العنوان غير موفق، وما يتلامح في اللغة أحياناً من تفاصح. أما ما يميز القصة الخامســة، فهو لعبة الأســطرة التي تشــبك الماضي بالحاضر، وبالأحرى تجعل للزمن مستويين متباعدين، وبهما تلتبس الوقائع وشخصيات الراوي والراعي وابنته إلى أن تأتي القفلة البديعة والمحكمة، بانطلاق الراعي من البوابة بسرعة هائلة، ودخوله في الحائط، ثم اختفائه من دون أن ينهار الحائط أو يظهر فيه أي أثر.

وبعد: ألا يحق لي أن أفرح بهذه الباقة من القصص البديعة والواعدة بكتّاب للقصة القصيرة التي تشكو ندرة من يكتبونها؟

«فخ النُصوص»

عوض كمال - السودان

هو يختبئ خلف ابتسامته المُتْقنة، وهي تختبئ خلف الاستعارات الكلاميّة، تفصل بينهما هوة تعبيرية ليس لها قرار. فرس ومهرة يخبّان جنباً إلى جنب، دون أن ينتبه أحدهما للآخر، أو يعترف بوجوده. الصمت يجتر الذكريات من أسفل قاع المدينة ويضعها في صدارة المشهد اللغوي، أمامهما مباشرة على الطاولة، فيعودان إلى نقطة البداية، مخلوقين ضعيفين مكبلين إلى ماضيهما. «نحن عبيد لماضينا»، قال فيلسوف صيني ذات مرة. في سطوة حضور الماضي كأن الحاضر والمستقبل طفلان شَريدان يسألان الناس من حق الله، هامش مُفْرَغ على صدر ورقة بيضاء، شيء هش طري ساذج.

هو يتساءل عن السبب الذي دفعه للمجيء، لأنه بلا شك لم يأت لكي يبتسم. هي تحلل الكلمات، ما وراء الكلمات، الابتسامة الخرقاء، ارتعاش يديه على الطاولة، والصمت القلق الذي يلفهما كسوار حول معصم. انتشلهما نادل المقهى من الورطة، وقدم لهما حروفاً ملونةً للخروج من المأزق الكلامي.

هي متطلبة جداً، بالأصح تعيش في عالم مواز، لا تشبه كلماتها كلماتي، لا أدري ماذا أفعل معهاً، ما الذي أتى بي إلى هنا أساساً؟ أنا غريب في هذا المكان، في وضع شاذ ومربك، مثل نخلة وحيدة وسط غابة استوائية. أنا شاب غبي في كل الأحوال. إذا كنّا سنفترق فلنفعل ذلك كأناس متحضرين يجلسون في مقهى متحضر وسط مدينتنا التي ترفل في خدع الحداثة اللغوية. لا بكاء ولا زعيق ولا ضجة. فقط شخصان سارا مع بعضهما شطراً من الدرب، ثم مضى كل إلى حال سبيله. هذه هي الأصول وقوانين اللعب. كانت تمثيلية ركيكة النص على كل حال. رغم ذلك، ورغماً عني، أعتقد أن عينيها تخصاني بطريقة ما، تنتميان إليّ، إلي عالمي. فوجدتني أقول لها رغماً عن لغتي وعالمي والغابة الاستوائية التي تحاصرني وزوار المقهى الذين مَلّوا هذه الدراما المكرورة:

- لكن... أُحبّك.

هو لا تعنيه الفراديس، لأنه قادم من زمان قديم جداً، لم تُخْلق فيه الفراديس بعد. لا أدري ماذا يعجبني فيه، ربما خوفه عليّ. هذا ليس كافياً. لا أعرف. هو شخص غريب على كل حال، رمادي، لا تغريه النهايات السعيدة. وكثيراً ما يتلصص على شظايا لغتي. هو أناني. لا أريد الخوض في هذا الموضوع، لكنه أناني بصورة لا تُحتمل. دائماً يتكلم عن دراسته، أمه، حبه للموسيقى، انتصاراته، ماضيه، ومستقبله. وأنا شيء من أشيائه، إرث مضمون في قبضة اليد. لم يكن هنالك «نحن»، دائماً كان الأمر متعلقاً به «هو». رغم ذلك، أريج الياسمين وزنابق الصباح واصفرار الشمس عند الأصيل لا يعنيني بقدر ما يعنيني ارتباك عينيه حين ينظر إليّ. حينها لا أجد أرضاً تسعني، أنسى هذه الهواجس، وأقبل هذا الوضع الغريب على علاته. على كل حال الحب وحده ليس كافياً، صديقتي تُذكرني باستمرار. لا أعرف. لست متأكدة من شيء. نفدت مني البصيرة والذخيرة. أقول له وأنا أتحرر من قسوة الصمت وعباءة الاستعارات السوداء وحمى الابتذال العاطفي:

- أُحبُّكَ... لكن.

فاجأهما النادل الحشري بوجهه الطفولي وابتسامته المخبأة جيداً في جيب قميصه. هو اختبأ في سخرية النادل الذي كان ينفض آنية السجائر. هي قفزت واختزلت نفسها في أكواب العصير التي يجمعها النادل. ومنذ ذلك الحين لم يرهما أحد، إلّا نادل المقهى سيئ الحظ، الذي أصبح في حيرة من أمره ■

ذكرى رحيل أمي

تأليف: تجيا بينغ وا

ترجمة: مي عاشور - مترجمة من مصر

عندما يكون شخص على قيد الحياة، نكون منشغلين بأشياء كثيرة، لدرجة أننا لا نفرِّق بين النهار والليل، ولكنه بمجرد أن يرحل، تتراكم الأيام وتمر ببطء. حَسبت، فوجدت أنه بعد عشرين يوماً ستحل الذكرى الثالثة لرحيل أمي.

قبل ثلاث سنوات، كلما كنت أعطس كنت أقول هذه الجملة دائماً: «من يشتاق إلي؟»، كانت أمي تُحب المزاح، فكانت تستطرد قائلة: «من يشتاق إليك؟ أمك تشتاق إليك!». خلال هذه السنوات الثلاث كنت أعطس بكثرة، وخاصة عندما يفوتني وقت تناول الطعام، أو أسهر طويلاً، وبمجرد أن أعطس، كنت أتذكر أمي، وأؤمن بشكل قاطع أنها مازالت تهتم بشأني.

عادة كنت أسمع فجأة أمي تناديني بشكل جلي واضح، وأنا منهمك في الكتابة، تعودت أن ألتفت برأسي صوب اليمين بمجرد سماع صوت ندائها؛ في الماضي كانت أمي تجلس على سرير الغرفة الموجودة ناحية اليمين، كانت لا تتحرك، أو حتى تصدر صوتاً بمجرد أن أنكب على الكتابة، فقط كانت تتبعني بعينيها، وعندما يمر عَليّ وقت طويل، كانت تناديني، ثم تقول: «هل بوسعك أن تنتهي من كتابة رموز العالم كله (1)؟ اخرج لتتجول قليلاً».

الآن، كلما سمعت صوت أمي تناديني، أضع القلم وأسير صوب تلك الغرفة، يجول بخاطري أن أمي قد حضرت من دي خوا (2) إلى شي آن (3)؟

بالطبع كانت الحجرة خالية من أي شيء، ورغم ذلك كنت أقف لوقت طويل، محدثاً نفسي:

قد عادت أمي، ثم خرجت مرة أخرى إلى الشارع لتشتري لي الفلفل الأخضر والجزر اللذين أحب تناولهما، أو ربما هي تمزح معي، فاختبأت متعمدة داخل تلك الصورة المعلقة على الجدار، أضع البخور في المبخرة الموجودة أمام الصورة، وسرعان ما ينطق لساني جملة واحدة: «أنا لست متعباً».

كانت أمي امرأة عادية، وضعت لفافات القدمين (4)، لم تكن متعلمة، وسجل حالتها المدنية مازال في القرية، ولكن أمي كانت مهمة للغاية بالنسبة لي. مر وقت طويل جداً، فعلى الرغم من أنني لم أعد أعيش في قلق مستمر على مرض أمي، فإنه لم يعد هناك شخص يكثر التنبيه والتوصية على هذا وذاك؛ إذا كنت سأسافر إلى بعيد، وكذلك عندما يكون معي أكل وشراب طيبين، لا أدري إلى من أهديهما.

سكنت أمي تلك الحجرة في بيتي بـ «شي آن»، لم أحرك أياً من أثاثها، كل شيء بقي كما كان عليه، ولكنني فقط لم أعد أرى ظل أمي، كنت أقول لنفسي مراراً وتكراراً بحسرة: إن أمي لم تمت، فهي عادت لتسكن بيتها القديم في القرية فحسب. صيف هذا العام حار جداً ومشبع بالرطوبة القاتمة، مما سيجعل أمي تستيقظ كل ليلة، أفكر وأنا شارد الذهن، أنه يجب علي استبدال مكيف جديد بالموجود في حجرتها، بعدما أستعيد وعيي وأفيق من شرودي، أواسي نفسي وأطمئنها أنه لابد أن يكون سكن أمي الجديد في القرية رطباً. بمرور الأيام، أخذت تقترب الذكرى الثالثة لرحيل

أمـــي، ومن العادات المتعارف عليها في القرية أن تُقام مراســـم للذكرى، أعددت البخور، الشموع، الزهور والفاكهة، وعدت إلى قرية دي خوا، ولكن كان علي الذهاب إلى المقابر فور وصولي هناك، أخبرتني الحقيقة أن أمي قد رحَلت؛ أنا على وجه الأرض وهـــي في باطنها، هي رحلت وأنا باق في الدنيـــا، أم وابن صعب أن يلتقيا مجدداً. انهمرت دموعي فجأة، وانتحبت باكياً ■

---

* تجيا بينغ وا هو واحد من أشهر الكتاب الصينيين المعاصرين، ولد عام 1952 في مقاطعة شان شب، بدأ نشر أعماله عام 1974، تخرج في قسم اللغة الصينية في جامعة شي بي عام 1975، وحصل على جوائز عدة آخرها جائزة ماو دون للأدب عام 2008.

(1) الرموز: تستخدم الصين الرموز في الكتابة لا الحروف، والرمز في الصينية يساوي كلمة.

(2) دي خوا: هي مسقط رأس الكاتب.

(3) شـــي آن: xi an مدينة تقع في مقاطعة شانشـــي شـــمال غرب الصين، لها أهمية تاريخية وثقافية كبيرة جداً، وهي واحدة من عواصم الصين السبع القديمة.

(4) فـــي الصـــين قديمـــاً، كانـــت الفتيات تضعن لفافات القدمين في ســـن مبكرة جدا، وذلك لتظل أقدامهـــن صغيرة ولا تنمو، وكان يُعتقد أنها من مظاهر الجمال حين ذاك.

«الزيتـــون»

تأليف: جانج كانج *

ترجمة: يوسف فرغلي - مترجم من مصر

«سـأنتزع الشـتاء من هنا، ثم سأرد إليك الربيع مرة أخرى»... هاينه.

تلـك الغابـة الكثيفة من أشـجار الزيتون كانت تقف منتصبة على التل الأسـمر الداكن، بدا وكأن هناك سـحباً رمادية معلقة فوق قمم الأشجار. على الرغم من أنه فصل الشتاء، فإن الأشـجار كانت خضراء مورقـة، ثم خلف تلك الأوراق الخضراء الداكنة كانت هناك الأغصان الرفيعة التي امتلأت في فصل الخريف بحبات الزيتون المدببة، ولكنها كانت قد قطفت جميعاً ولم يتبـق شـيء، ألا يوجد حتى حبـة زيتون واحـدة؟ أردت أن أجـوب جميع أنحـاء غابة الزيتون بحثاً عنها.

ولكننـي أعرف أنني لـن أجده مهما أطلت البحث، «لأنني لم أر وجهه ولم أسمع صوته من قبل، فقط سمعت صوت خطواته الرشيقة وهو يمر من أمام منزلي»، فأنى لي أن أذهب وأبحث عنه في الحقيقـة؟ أنا حتى لا أتذكر ملامحه، كان فـي ذاكرتـي المزدحمة يبـدو كجدول ماء صغيرٍ ينحدر من بين قمم الجبال، وقد اختفى عميقاً تحت أشـجار الغابة حتى لا يكاد ضوء الشمس ينفذ إليه، لوهلة قصيرة فقط يمكنك أن تـرى لمعان صفحة المـاء، ولكن لا يمكن أن تعـرف من أين أتى الماء أو إلى أين سـيمضي؟ أحيانـاً يبدو وكأنه قد اختفـى من حياتي إلى الأبد، لكن في ومضة من ومضات ذاكرتي غير المتوقعـة أراه واقفاً أمامي بكل وضوح. أريد أن أنساه ولكني لا أسـتطيع، على الرغم من أنني لا أعرف اسمه حتى هذه اللحظة.

همت على وجهي في تلـك الغابة النابضة



بالحيـاة، وتذكرت طعم الزيتـون الذي تناولته في السنوات السـابقة، تلك الحبات الصغيرة الجافة الخضـراء بطعمها الحلو اللاذع، الذي انساب من فمي إلى داخل أعماق قلبي.

- «خذيهـا»... كانت يـده الكبيرة ممدودة أمامي، وبدا كأن هناك شـيئاً يتدحرج داخلها، لا أريـد أن أنظر إليها فقد كنـت منهمكة في البكاء بحرقة. كانت كتفي تهتز من شدة البكاء، تسـاقطت دموعي وبللت الوشاح الأحمر حول عنقي ثم سقطت على أرضية غرفة الماكياج.

- «خذيها»... كرر قائلاً، كانت يده ممدودة بصبر أمامي. أردت تجاهله فأنا لم أكن أعرفه، يبدو أنـه أحد الدارسـين الهـواة الجدد في فرقة الإذاعة المسـرحية. هل يريد أن يجعلني مادة للسـخرية لكي يضحك عليَّ هو ورفاقه؟ فلنفرض أنني أخطأت في إلقاء الشـعر اليوم على خشـبة المسـرح، فكيف يلقي باللوم علي! فقد أعطاني المخـرج القصيدة بالأمس فقط؟

«الزيتون»

استمررت في البكاء وكأني أريد أن يعرف كل أعضاء الفرقة ما وقع عليَّ من ظلم.

- «أيتها الفتاة الصغيرة، إن دموعك هذه مالحة وهذه الثمرة التي في يدي لاذعة، لكن دموعك هذه لن تصبح حلوة الطعم...».

ماذا قال؟ كان صوته هادئاً رزيناً.

رفعت رأسي، فرأيت شاباً رفيعاً طويل القامة، كان يرتدي قميصاً ابيضَّ لونه من كثرة الغسل. كانت في راحة يده بعض حبات خضراء بيضاوية من الزيتون.

- «زيتون أخضر»... هززت رأسي في نفور من طعمه المر.

- «تعتقدين أن طعمه مر أليس كذلك؟»، رفع كتفيه ثم أطلق تنهيدة. معظم الناس لا يحبون تناول الأشياء ذات الطعم المر، وأنت أيتها الفتاة الصغيرة لا تحبين ذلك أيضاً... ولكن هل يمكن الفصل تماماً بين الحلو والمر؟ فعندما تتناولي حبات الزيتون يبدو طعمها مراً ثم ما يلبث أن يصبح حلواً، طعمها يتغير... هل فهمت؟».

أثار ذلك فضولي، دفعت بتردد حبة زيتون داخل فمي، يا له من أمر عجيب، لقد تغير طعمها حقاً، فطعمها أفضل من طعم الدموع المالحة. لماذا كنت أبكي؟ يا لي من فتاة حمقاء، ألن يتغير إلقائي أنا أيضا إلى الأفضل عندما ألقي القصيدة في المرة القادمة؟ أخذت أمضغ حبة الزيتون بينما أنظر إليه، خرجت ابتسامة من بين دموعي، ابتسم هو أيضا مثل أخ كبير حنون.

بعد انتهاء العرض، أقلتنا سيارة حتى باب محطة الإذاعة، كانت الإذاعة تبعد عن بيتي محطتين بالحافلة، وفي كل مرة كنت أسير بمفردي عائدة إلى المنزل.

- «ألا تخافين أيتها الفتاة الصغيرة؟»، قفز من السيارة متوجهاً نحوي.

- «وكيف لا أخاف؟ الوقت متأخر جداً، إنها بعد العاشرة بقليل».

- «من الجيد أن طريقنا واحد إذن».

أخذت أسير بجانبه بخفة ومرح، وكنت أتمتم بإحدى الأغاني وقد نسيت تماماً ما كنت فيه من حزن، لقد كان ذلك الزيتون جيداً. ولكن لماذا أصبح متجهماً وصارماً هكذا؟

- «القصيدة التي ألقيتها اليوم كانت تتكون من ستة عشر بيتاً، لقد أخطأت في قراءة ثلاث كلمات ونسيت جملة كاملة».

أصابني الذهول.

- «لقد أخطأت في قراءة كلمة «حجرة الدرس» وكلمة «العنكبوت»، فأهل الجنوب عادة لا يفرقون بين المقاطع الصوتية المتشابهة».

أخذت أردد وراءه النطق الصحيح بوجه عابس.

- «كيف لي أن أتذكر كل هذه الكلمات؟».

- «ابحثي في القاموس، ابحثي عن كل كلمة في القاموس»، قال بنبرة صوت مرتفعة.

لم أقل شيئاً، نفذت رياح الشتاء الباردة إلى الوشاح الذي أرتديه، انحنيت ملتقطة إحدى أوراق الأشجار، كانت شفيفة مثل شبكة رقيقة، وقد علق على جانبيها بعض البذور، بدت وكأنها حبات لؤلؤ صغيرة.

- «ولكن، عندما كنت تلقين الشعر كان إحساسك قوياً وهذا ما أحبه»... أضاف قائلاً.

طارت ورقة الشجر مع الرياح مثل قارب صغير يبحر إلى المجهول، وبقيت البذور في يدي.

سأنتزع الشتاء من هنا، ثم سأرد إليك الربيع مرة أخرى... أخذ يقرأ الشعر بصوت منخفض، اعتلته هيبة وجلالة مثل أمير في إحدى القصص الخيالية، كان إلقاؤه للشعر مثل مقطوعة موسيقية جميلة ورشيقة أسرت قلبي، ونغماته المنضبطة أحاطتني من كل جانب. في ذلك الطريق الموحش، بدا وكأن الشتاء البارد قد رحل وأخذت الفراشات تتراقص بخفة ورشاقة فوق المروج الخضراء.

- «هاينه، هل تعرفينه؟ هذه إحدى قصائده».

هززت رأسي، أيعقل أنه يريد أن يكون شاعراً مثل هاينه؟



- «ماذا تريدين أن تفعلي عندما تكبرين؟»... سألني فجأة.

- «أريد أن ألتحق بمدرسة ثانوية جيدة، وأن ألتحق بجامعة مشهورة»... أجبت إجابة نموذجية، بالطبع لم أجرؤ أن أخبره أنني معجبة بإحدى أشهر الكاتبات وقتها.

- «مثلي تماما، أنا أيضا أريد أن ألتحق بأفضل جامعة، ولكنني دائماً ما أفشل في ذلك»... ابتسم وأكمل قائلاً «ولكن لا داعي للقلق، فسوف ألتحق بالجامعة في العام المقبل، عندها سوف أدعوك لتناول الحلوى... اتفقنا؟ أما إذا فشلت في ذلك فلا داعي للقلق، تماما مثل الزيتون، هناك من يعتقد أن طعمه مر وهناك من يعتقد أن طعمه حلو، فيختلف الشعور بالحلو والمر من شخص لآخر».

في ذلك المساء، لم يتسن لي الوقت لأفكر في ما قال، فما إن رأيت أبي وأمي ينتظراني عند مدخل الحارة حتى أسرعت بسعادة نحوهما، ونسيت أن أقول له وداعاً. في الأسبوع التالي والأسبوع الذي تلاه، كان يقول لي «هيًّا نسير معاً فطريقنا واحد»، كنا في كل مرة نسير ونقرأ الشعر، وكان يصحح لي النطق في كل مرة، وما نلبث حتى نصل إلى مدخل حارتنا الصغيرة، حيث ينتظرني أبي وأمي، كنت في كل مرة أسرع نحوهما بشغف ولهفة، وفي لحظة أنساه تماماً، وما إن أصل إلى البيت حتى أتذكر أني لم أقل له وداعاً، ولكن يبدو أنه لم يغضب، ففي كل مرة كان يسير معي ويتحدث بطريقة تختلف عن الآخرين، ولكن ماذا كان يعمل، وما اسمه؟ في ذلك الوقت يبدو أني لم أفهم عادات البالغين في التواصل والتعرف إلى الأصدقاء، فدائماً ما كنت أنسى أن أسأله.

وبعد مدة طويلة، كان يوم السبت، ولم يكن برنامجي قد بدأ بعد، أخذت أتجول بحرية

في أروقة الإذاعة. فجأة سمعت صوت عزف البيانو قادماً من إحدى الغرف المغلقة، لقد كان لحن الأغنية المفضلة لي «من يعزف المزمار الذهبي؟»، دفعت الباب لكي أرى، ولدهشتي كان هو من يعزف، كان يعزف بتركيز شديد. دلفت بخفة إلى الداخل ووقفت أستمع، أخذت أستمع وأستمع ثم بدأت بالغناء مع اللحن: «زهور البرقوق بيضاء مثل السحاب، وزهور الخوخ حمراء مثل شمس الغروب.....».

كان بعض الشباب يسيرون في الخارج وألصقوا وجوههم تجاه زجاج نافذة الغرفة، قال أحدهم بسخرية ولؤم: «انظروا... الفتاة الجميلة تغني والعريس يعزف البيانو......».

كانت الأغنية قد انتهت للتو، سألته بفضول شديد: «ماذا يقولون... هل يستطيع الذئب حقا أن يعزف البيانو؟ إذا كان الذئب يعزف فأنا لن أغني!» (العريس والذئب النطق نفسه في اللغة الصينية)، احمر وجهه فجأة، نظر إلي لوهلة ثم نهض بسرعة وأغلق لوحة مفاتيح البيانو وخرج، كانت مفاتيح البيانو مازالت تتراقص حيث عمّ اللحن السعيد أرجاء الغرفة، وفي لحظة اختفى كل هذا، صمت مطبق، لم يتبق سواي، وقفت هناك في حيرة وخوف.

وعندما خرجت في المساء لم يسر معي، يبدو أن صوت إغلاق لوحة مفاتيح البيانو قطع ما كان بيننا، حزنت لبضعة أيام ولكن لحسن الحظ انشغلت بدروسي وأخذت أستعد لامتحان نهاية العام، ولأسابيع عدة لم أذهب إلى محطة الإذاعة، وكنت قد نسيت ذلك الأمر تماماً، وبعد انتهاء الامتحان، أصبت بالزكام وظللت هكذا حتى منتصف أغسطس عندما تسلمت خطاب القبول، عندها فقط ذهبت بكل سعادة ومرح في أحد أيام السبت إلى محطة الإذاعة.

أخذت عيناي تلتفتان في كل الاتجاهات بحثاً عنه، أريد أن أخبره أنني التحقت بأفضل مدرسة ثانوية في المدينة. وماذا عنه؟ هل مازال غاضباً مني؟ هل التحق بأفضل جامعة أم لا؟ لقد قال إنه يرغب في الالتحاق بكلية الأوبرا قسم الإخراج، إذا لم يكن هنا فلا بد أنه قد التحق بها وذهب إلى بكين، ولكنه قال إنه سوف يدعوني لتناول الحلوى.

- «هل نجحت؟ بأي مدرسة التحقت؟» أخذ الجميع يسألوني في وقت واحد.

- «نعم نجحت، التحقت بمدرسة جيدة»... أجبتهم بلا اهتمام.

- «خذي!» أعطاني لفافة من ورق.

- «لقد غادر وترك لك هذه الحلوى».

- «هل ذهب إلى بكين؟»... سألت بسعادة.

- «ذهب إلى شينجيانج ليلتحق بالجيش... فشل في الالتحاق بالجامعة للعام الثالث على التوالي، لقد كانت درجاته في الأدب واللغات والمسرح جيدة، وفي كل مرة يشارك في الامتحان كان من ضمن الثلاثة الأوائل، لكن الجامعة لم تقبله، «بدا وكأن قلبي قد سقط في بحيرة متجمدة: «لماذا؟ لماذا لم يقبلوه؟».

- «لأن والده... أنا لست متأكداً»... غادر ولم يكمل.

فهمت، خرجت بصمت، أردت أن أبكي. فكرت في نفسي، هل ينتظرني مصيره نفسه في المستقبل؟ لقد سار معي مرات عديدة ولكنه لم يقل لي جملة واحدة عن نفسه، يبدو أنه نظر إلي كأغبى فتاة في العالم، فأين لي أن أذهب وأبحث عنه الآن؟ أنا لا أعرف اسمه حتى.

دخلت بصمت إلى تلك الغرفة التي كان يعزف فيها البيانو، فتحت لفافة الورق ولكن لم يكن بها حلوى، كان بها بضع حبات زيتون خضراء كانت لها رائحة مميزة. كانت هناك قصاصة ورق صغيرة على الزيتون كتب عليها: «سأنتزع الشتاء من هنا، ثم سأرد إليك الربيع مرة أخرى».

ليس عليها اسم أو عنوان، وهكذا رحل، رحل إلى مكان لا يعرفه أحد، فكيف لي أن أذهب وأبحث عنه؟ فأنا لن أراه مجدداً.

بكيت، انهمرت دموعي على وجنتي وتساقطت على الأرض، لا أدري لماذا؟ لكني شعرت بالحزن والأسى، آه يا قلبي الطفولي

الذي لم يجرح من قبل، شعرت لأول مرة بالتعاطف العميق مع أحدهم، وشعرت بالخوف على مستقبلي، ولكن لماذا يحب تناول الزيتون؟ تلك الثمرة الخضراء مرة الطعم، ماذا قال عن الحلو والمر؟ إن الناس تختلف في التفريق بينهما، وإن الحلو والمر كلاهما يتغير، يا له من شخص غريب.

بكيت طويلا من أجله ومن أجلي أنا أيضاً، لقد قال سابقاً إن الدموع المالحة لن تتغير إلى الطعم الحلو، ولكن لماذا ثمرة الزيتون أول ما تنبت لا تكون حلوة الطعم؟ ربما إن كانت كذلك لأحبها الصغار والكبار، أردت أن أبكي أيضاً من أجل الزيتون.

أخذت أتجول داخل تلك الغابة الكثيفة من أشجار الزيتون بحثاً عن ذلك الغصن الذي ربما قد ترك بالمصادفة ثمرة زيتون صغيرة، بدا وكأنني أريد أن أبحث عن «الماضي»، ففي السنوات اللاحقة عاملني القدر بمثل ما عامله تماماً، فقد رمى بي خارج المهد الطفولي الدافئ. بالطبع لم ألتحق بأي جامعة جيدة، فمثله تماماً صممت على ترك المنزل وذهبت بعيداً. خلال تلك السنوات والأشهر الطويلة الشاقة، كنت دائما أفكر فيه، أفكر في قميصه الطويل الباهت، وأفكر أيضاً في ثمرة الزيتون.

أحياناً أعتقد أنه اختفى تماماً من حياتي، ولكن لا أدري في أي لحظة، كان يبدو مثل مياه الغدير الصغير اللامعة، قادماً من آلاف الدروب والتموجات بين صخور الجبال، ثم يلمع أمامي في لحظة، ثم يكمل طريقه فرحاً إلى قلب الغابة الكثيفة. عندها عرفت كيف أن شخصاً يبدو عادياً يقول كلاماً غير عادي، عادة ما يكون له تأثير غير عادي على حياة أحد ما. لقد ظل قابعاً في إحدى زوايا مخازن ذاكرتي سنوات عديدة، ولكن في لحظة ما عندما تقابل الظرف والموقف عندها فقط تفهم حقاً ما معنى كلامه، حتى ولو نسيت تماماً من أين أتت تلك الجملة أو حتى نسيت من يكون ذلك الشخص الغريب.

كان دائماً لدي الرغبة في أن أبحث عنه، كنت أسرح بخيالي أنه الآن مخرج ممتاز، يُخرج أكثر المسرحيات درامية، قادماً من شينجيانج إلى مسارح بكين. سأكون وسط الجمهور أشاهد المسرحية، أشاهد وأشاهد حتى أبكي مثل الأطفال، عندها سيقول لي: «أيتها الفتاة الصغيرة، إن دموعك هذه مالحة وهذا الزيتون مر الطعم، ولكن دموعك لن تتغير إلى الطعم الحلو».

ربما ثمرة الزيتون العجيبة، التي يتغير طعمها من المر إلى الحلو، هي التي تجعلنا نوقف أحزاننا ودموعنا، ونسير من الغرفة الضيقة المظلمة إلى الفضاء الرحب الواسع، وهي أيضاً التي تجعلنا نقضي أياماً بلا شمس بحثاً عن الضوء المنشود. لقد فهم هذا المنطق منذ ثمانية عشر عاماً مضت، يا له من محظوظ، ربما هو في الأصل منطق بسيط ولكن لا يفهمه عديد من الناس أو ربما لا يرغبون في أن يفعلوا مثله.

في النهاية، وجدت تحت إحدى أشجار الزيتون الهزيلة ثمرة زيتون مدببة داكنة اللون، كان جلدها مجعداً، فلن يمر وقت طويل حتى تتحلل إلى طين وتذوب في الأرض، ولكنها ستظل سرمدية، فقط ستترك خلفها بذرة زيتون صلبة، ثم ماذا يوجد بعد؟

سأنتزع الشتاء من هنا، ثم سأرد إليك الربيع مرة أخرى،... كم أرغب في أن أتذوق مجدداً ذلك الزيتون الأخضر الذي يجمع بين المر والحلو ■

---

* ولدت الكاتبة الصينية جانج كانج، ولدت عام 1950 بمدينة هانشو، وكان أول أعمالها قصة قصيرة بعنوان «المصباح»، نشرت عام 1972 بملحق جريدة شنغهاي، حازت روايتاها «الصيف» و«ضباب الصباح الخفيف» جائزة الإبداع في كتابة القصة القصيرة عام 1980، ومن أشهر أعمالها أيضاً «الحق في الحب» 1979 و«الأضواء الشمالية» 1981، وقد انضمت إلى رابطة الكتاب الصينيين عام 1980.



مذاق التاريخ المعماري القديم



حلوة المذاق ومرةُ الحياة!

بثينة حمدان
إعلامية وكاتبة من فلسطين

بين جبلي عيبال وجرزيم عاش سكانها، وثلاث ديانات هي الإسلامية والمسيحية والسامرية.... يفوح منها عطر خاص يحكي تاريخها العريق مثل زيت الزيتون، والثري بالزعتر الساكن فيها والمنطلق بكرم لغيرها، والشهي مثل حلوياتها ومأكولاتها الشهيرة...هي فلافيا أنابوليس في عهد الرومان، وجبل النار كناية عن ثورة سكانها على المحتلين من فرنسيين وإنجليز وإسرائيليين، و«ملكة فلسطين غير المتوجة» لامتلاكها كل مقومات العاصمة الاقتصادية، وهي «دمشق الصغرى»، التي تشترك معها في كثير من صفاتها ولهجتها ومأكولاتها وحلوياتها، لارتباطهما بخط سكة حديد الحجاز، الذي يصل بين دمشق والمدينة المنورة. هي مدينة نابلس - كما سميت في العهد الإسلامي - التي صعدتُ فيها إلى القمة ونزلت إلى القاع، فكان «ضجيجها» هادئاً متسامحاً في كل طبقاتها الجبلية في تمازج بين مذاق المدينة الحلو، ومرارة ما يقوم به الاحتلال من تدمير لمعالمها.



استيقظت مبكراً، لأذهب إلى توأم دمشق التي ولدت فيها، ففي نابلس فقط أستطيع تذوق الحلاوة الطحينية تماماً كالتي في سورية، حيث طفولتي وعائلة والدتي قبل رحيل أغلبهم بسبب الحرب. أقترب من نابلس فأستنشق ربيع سورية الحقيقي، أسمع لهجتها الممتدة إلى الشام، أتبسّم لوجهها السمائي، مع شوق للزلابية ورغيف المشبك المحشو بمربّى اليقطين، أقترب من أجمل مذاق للبهارات، وأقوى عطر للزعتر، ثم أغتسل بالصابون النابلسي وأرتدي ثيابي وأنطلق. لست مغرمة بالطعام (أرجو عدم إساءة فهمي)، لكنني أعتقد أن الطعام هو الذي



يرغبني ليس إلا! معادلة استثنائية، حلّها ليست بداناتي، فأنا رغم عشقي للحلويات نحيفة باختصار.

مزاج الطريق «المستقيمة»

من مدينة رام الله وسط فلسطين إلى مدينة نابلس شمالاً بمسافة خمسين كيلومتراً، لكنها مع الحواجز تستغرق من ساعة وخمس وأربعين دقيقة فأكثر وفق المزاجِ الاحتلالي، انطلقت في طريق مستقيمة شكلاً وعوجاء واقعاً، لمرورها بأسوأ الحواجز في الضفة الغربية وهما حاجزا زعترة وحوارة، حيث الإغلاقات المستمرة



تل بلاطة



كنيسة بئر يعقوب

واكتظاظ مئات السيارات منتظرة إفراج قوات الاحتلال، ليتسنّى للحامل الوصولٍ إلى المشفى في الوقت المناسب والمرضى أيضاً، وللموظفين والطلبة والعمال الذهاب إلى أعمالهم. وما إن وصلت إلى حدود المدينة حتى وجدتها فتاة ثائرة بين جبلي عيبال وجرزيم الشاهقين، تفوح منها رائحة الصابون النابلسي، بهية مثل حلاوة كنافتها الشهيرة، فتاة قد تكون ابنة الشام في ملامحها والميول السورية للهجتها، فتمتد مرحبة مؤَهِّلة مُسهِّلة.

استقبال اللجوء

قبل أن يصبح الزائر جزءاً من العمران المترامي بين الجبلين، عليه أن يشاهد أولاً مخيم بلاطة إلى اليسار الذي أُسس عام 1950 بتعداد خمسة آلاف نسمة، وعلى مساحة 167 دونماً وصلت اليوم إلى 460 دونماً، حيث يعيش فيه ثلاثة وعشرون ألف نسمة، ومنهم لاجئون من اللد والرملة وقرية كفر قاسم المعروفة بمذبحتها وطيرة دندن والمجدل وغيرها.

ومثل كل المخيمات تبدو المنازل متراصة بوحي الماضي حين كانت مجرد خيام، أما الخيمة الكبيرة فهي بالتأكيد نادي المخيم المعروف اليوم باسم مركز شباب بلاطة، الذي ينظم اليوم مباريات كرة قدم حصل خلالها على جوائز منها كأس المملكة وكأس فلسطين، ويحتضن كافة أوجه النشاط الثقافي والرياضي والكشفي لأطفال وشباب المخيم، وأغلقته قوات الاحتلال مرات عدة لدوره النضالي، ولاسيما في الانتفاضة الأولى، وكان أطولها إغلاقه في الفترة بين 1982و1992. مواجهات كثيرة تقوم بين جنود الاحتلال وأطفال وشباب المخيم، وأصيب منهم أخيراً محمد السعودي في أكتوبر 2015 في قدمه واعتقلته قوات الاحتلال وحولته



شوارع البلدة القديمة

للاعتقال الإداري، الذي هو أحد الأسباب الرئيسة لإضراب الأسرى عن الطعام، فالإداري يعني اعتقالاً بلا مبرر قانوني ولا محاكمة لوجود ملف سري لدى المخابرات الإسرائيلية، فيبدأ الاعتقال ويتجدد بلا محددات زمنية. ولايزال الأسير السعودي بلا علاج والمماطلة مستمرة.

في المدينة أيضاً مخيم عسكر الذي أُسس تزامناً مع بلاطة على مساحة 209 دونمات أضيف إليها 90 بسبب اكتظاظه الشديد، حيث يقطنه أكثر من سبعة عشر ألف لاجئ. فيه تناولت أجمل وجبة «مفتول» مطبوخة بأجنحة دجاج فقط... فقيرة من اللحم لكنها غنية بالحب والكرم، والمفتول بحبيباته المصنوعة يدوياً من الطحين أعدتها يدا لاجئة تراءت لها اللد وحيفا ويافا فتداخلت الشهية بالاشتهاء للعودة، حفرت الوجبة الفلسطينية الخالصة ببساطتها كل أحلام اللاجئين في المخيم وخارجه، وهي العودة، ولا شيء غيرها.

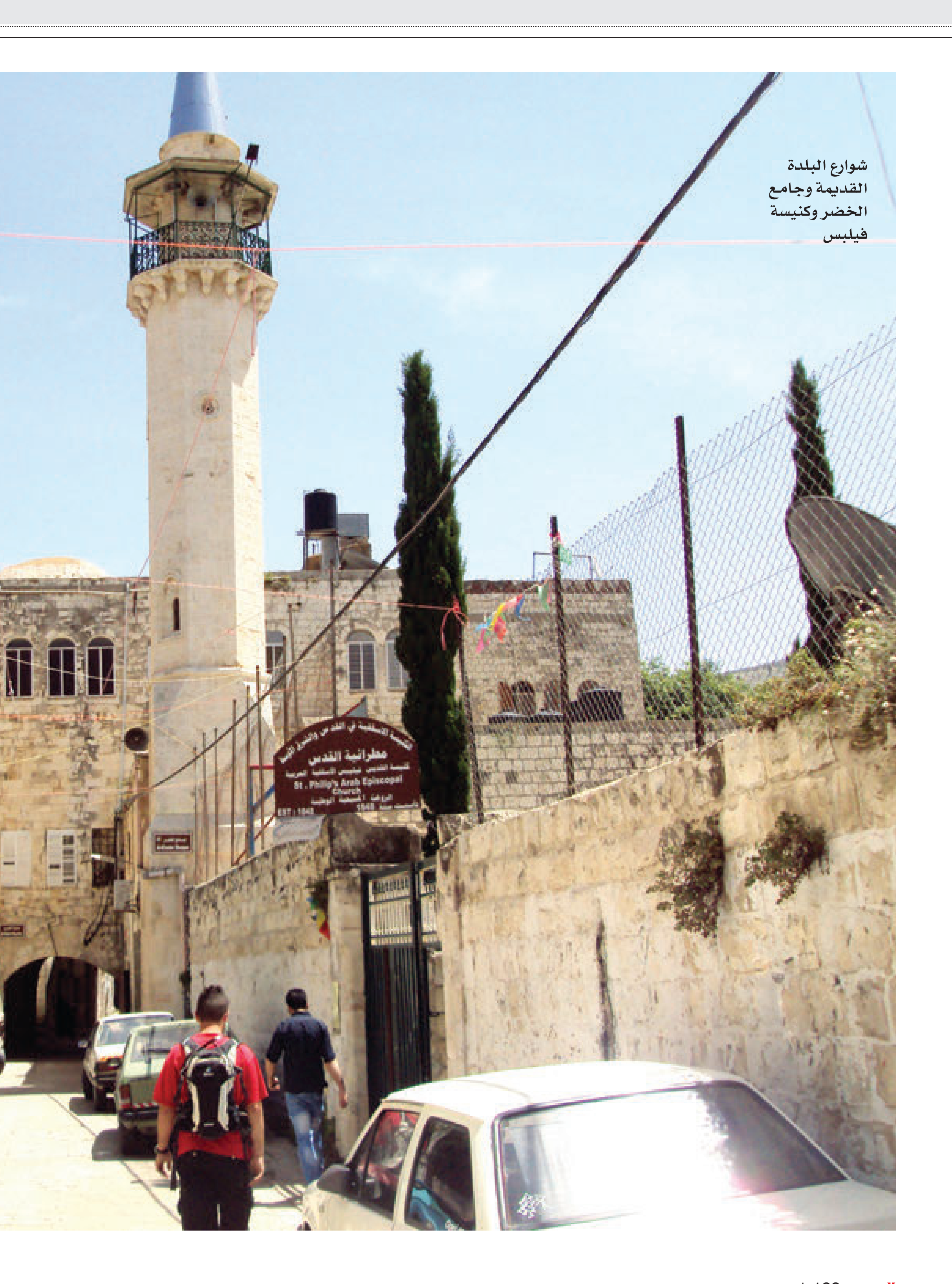
إلى «بيت فلسطين»

كان لقائي الأول في «بيت فلسطين» وهو قصر رجل الأعمال الفلسطيني منيب المصري (مواليد 1934)، الواقع على قمة جبل جرزيم، حيث مساحة تمتد إلى أربعمائة دونم يتوسطها بناء مكون من ثلاثة طوابق مساحة الواحد منها ألف متر، يفتح البيت أبوابه للزوار، فُتحت البوابة الإلكترونية، واجتزتُ حدائق وأشجاراً إلى اليمين واليسار، إلى أن أوقفني الشاب محمد، الذي يعمل في القصر، ذهبنا مباشرة إلى «جناح الكون» حيث يجلس المصري ومجموعة من الشباب والصبايا القادمين من مدينة الناصرة داخل أراضي الـ 1948، أحدهم رسم صورة للمصري وحدثوه عن جوانب نشاط مؤسستهم.

في هذا الجناح كان مخطط الكون كله حولنا... كيف نشأ وتطور وكواكبه والطبقات



تل بلاطة



شوارع البلدة القديمة وجامع الخضر وكنيسة فيلبس



الأرضية وقطع أثرية وأحفورية، أخبر المصري خريج قسم الجيولوجيا من جامعة تكساس الأمريكية «العربي» أنه جمع مكونات البيت الضخمة من قطع أثرية وبلاط وأبواب على مدى أربعين عاماً، وشحنها في 145 حاوية إلى فلسطين، البناء ملوكي على الطراز القديم، فيه يعيش مستمتعاً بكل ما استطاع اقتناءه من شتى بلاد العالم.

لكل غرفة في البيت اسم يدل على معلم فلسطيني، والأبرز الأجنحة الأربعة، فبعد جناح الكون أخذنا محمد إلى جناح الأركيولوجيا أي علم الآثار، حيث دير بيزنطي عثر عليه في أثناء الحفر فحافظ عليه وتم ترميمه ليصبح أحد معالم القصر، وفي أرضه فسيفساء جميلة، ثم صالون الذاكرة الذي يوثق التجربة الفلسطينية منذ عام 1917، حيث أسماء كل القرى المدمرة الفلسطينية ورسومات لفنانين فلسطينيين تحكي عن المجازر والانتفاضتين وأهم الأعلام الفلسطينية والعربية، وطبعاً بحثت عن اسم قريتي «عنابة» ووقفت والتقطت صورة معها، تجولنا في أرجاء القصر، ودخلنا جناح الموانئ السبعة، في إشارة لموانئ فلسطين التاريخية.

على عرش الخديو

وفي إحدى الغرف لفت انتباهي أقدم آلة تصوير في العالم، إلى جانبها هذا الكرسي الأخضر والذهبي المزركش، الذي يعد وجوده في القصر أمراً جائزاً، لكن أن أجلس عليه في قفزة من شخصيتي اللاجئة، التي تدّعي الكتابة والإحساس هو اللافت! إنه عرش الخديو إسماعيل بحد ذاته، في البداية جلست مسكينة مستكينة قبل أن أتنبه وألتقط صورة أخرى وأنا فاردة ذراعي مدعية ما هو أكبر من إحساس الملوك بل ويتعداه إلى أباطرة وسلاطين العالم، فلحظات العز للاجئ لابد من اغتنامها بكل جمالياتها. وفي حديقة القصر، أشار لنا المصري إلى أنه يستقبل شهرياً نحو خمسين شخصاً على مدار العام عدا العرائس



الدير البيزنطي



الدير البيزنطي في بيت فلسطين، قصر منيب المصري

والعرسان الذين يأتون لالتقاط صور تذكارية قبل الزفاف. انتهت الزيارة بصورة جماعية معه، وكان هو على موعد لزراعة بعض الأشجار مع طلبة الجامعة في وادي الباذان، وهو منطقة سياحية تشتهر بالينابيع والطيور المقيمة والمهاجرة كالهدهد والسنونو وغيرهما، وفيها آثار تعود للعهد الآشوري، وهي أحد أبرز الأماكن السياحية لرحلات طلبة المدارس في فلسطين.

«السُمَرَة»... وليس الصهاينة!

قرب القصر على قمة جرزيم منطقة يعيش فيها «السمرة» أو «السامريون»، وهم طائفة يهودية لا تؤمن بوجود هيكل سليمان في القدس كما يدعي الإسرائيليون، وقبلتهم هي جبل جرزيم حيث يقطنون، وهم أصغر طائفة دينية في العالم وعددهم 750 فرداً، أكثر من نصفهم يعيشون على قمة جرزيم. وتعاني الطائفة من مشكلة الزواج حيث يمنع الزواج من خارجها، وتشير الإحصاءات إلى وجود شابين لكل فتاة، لذا يدرج عندهم زواج البدل أي تزويج أخوين معاً لأختين من عائلة أخرى.

في أبريل يحتفلون بعيد الفسح (بالسين) فيرتدون ليلاً الأبيض وتبدأ مراسم ذبح القرابين فيختلط الدم باللباس. تعتبر الطائفة أن اليهود كانوا شعباً واحداً لكن بعد موت النبي سليمان عليه السلام انقسموا وأصبحوا أبناء «إسرائيل» الذين لم يتركوا فلسطين أبداً، أما اليهود الذين أقاموا دولة إسرائيل فهم يهود فقط، كانوا قد خرجوا وعادوا إليها بجيل جديد ولغة جديدة لا علاقة لها بـ«إسرائيل»، كما أن هناك كثيراً من الاختلافات بين توراة اليهود وتوراة السامريين.

في هذه المنطقة يأتي السياح للتعرف على الطائفة ومتحفها ومعبد جوبيتر الذي أقامه الرومان، الخاص بالسامريين، نلتقط صورة



جانب آخر من الدير البيزنطي

جميلة تطل على معالـم نابلس من أعلى نقطة فيها.

هنا حفر النبي يعقوب... وارتوى المسيح

نحو انحدار الجبل الشديد، اتجهت ومررت بـين بيـوت المدينة التـي تملأ الجبلـين، إلى بلدية نابلس، فهناك التقيـت بالأصدقـاء زيد الأزهري من بلدة سبسـطية المحاذية للمدينة، وعلاء الهمـوز الذي اعتاد قضـاء وقـته أيام السبت متجولاً بعيداً عن ضغوط العمل، حصلنا على بعـض المعلومات من البلديـة عن المدينة، ثم انطلقنا إلى بئر يعقوب حيث شـرب سيدنا عيسـى عليه السـلام الماء من المـرأة السامرية رغم أنـه يحرم على هذه الطائفـة الاخـتلاط بغيرهـم، مر المسـيح بالمكان قادماً مـن بيـت المقـدس متـجـهاً إلى الجليل.

وَلَجنا الكنيسـة إلى البئر بعمـق 40 متراً، التـي حفرها سـيدنا يعقـوب عليه السـلام عـندما جاء إلى المدينة.

أخبرنـي عـلاء أن الكنيسـة بنـيت لأول مـرة من قبل الملكة هيلانة والـدة قسـطنطين إمبراطـور رومـا آنذاك، لكنهـا هدمت مرات عدة، واليـوم يتولاهـا الأب فلامينوس، الذي كان يجلس في حديقتها حين وصلنا وشـاهدنا قبره الذي أعده الأب على أمل أن يدفن فيه في حديقة الكنيسة التي أفنى حياته فيها، وهي في عهده حظيت بالرعاية المشهودة.

ويبـدو أن وجود القبر فيهـا يعود لما قامت به قـوات الاحتلال الإسـرائيلي حين اقتحمت الكنيسة عام 1967 وذبحت رئيسها الأرشمندريت فيليمينوس.

إجمالاً عانى المسـيحيون وتم تهجـيرهم



جناح الكون في بيت فلسطين

من قبل الاحتلال فبقي منهم 250 شخصاً فقط في المدينة، ومع ذلك يحافظ السكان على الإرث المسيحي والكنائس العديدة الموجودة فيها.

شكيم... الكنعانية

كان الذهاب إلى تل بلاطة الواقع بين جبلي جرزيم وعيبال يعني الذهاب إلى أقدم موقع أُسست عليه نابلس أو شكيم، أي المرتفع كما أطلق عليها العرب الكنعانيون الذين أسسوها أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. على هذه التلة كانت البداية، وتقول الأدبيات إن المسيح عليه السلام مر بالمنطقة التي هُجِرَت في إحدى الفترات فأسس الرومان مدينتهم فلافيا أنابولس قبل أن تصبح نابلس في الحكم الإسلامي. شربنا كوباً من الشاي بالنعناع، وشاهدنا في الموقع فيلماً تاريخياً عنه وتاريخ المدينة، تجولت وعلاء وزيد في المكان شاهدين على الحجارة القديمة، أشار علاء إلى البوابة الشرقية للتل، وما بقي من بواباته المستندة إلى بقايا أعمدة ضخمة، تميز الموقع بوفرة المياه، لذا كان مسرحاً ميسراً للحياة والاستقرار وتأسيس المدينة، ومن نقطة حددها علاء استطعنا التقاط أفضل صورة للمكان.

بالليمون... فهمنا التاريخ والحضارات

في هذا الطقس الحار، مررنا بمقهى الحموز وهو لأقارب علاء، وهناك افترقنا فغادر زيد مضطراً للعودة إلى بلدته البعيدة عشرة كيلومترات استعداداً لليلة مقدسية تراثية تقام فيها، كان عصير الليمون بالنعناع تحت الظل كافياً ليشحذ همتنا لمتابعة الجولة في البلدة

القديمة، التي أُسست سابقاً في تل بلاطة، وبعد أن دمرها الرومان بسبب تمرد سكانها، بنيت غربه البلدة القديمة عام 71م، للبلدة بوابتان رئيسيتان، عبرنا من بوابتها الغربية أي من جهة كنيسة القديس فيلبس الأسقفية وبجانبها تظهر مئذنة جامع الخضر، الذي بني على أرض تبرعت بها الكنيسة، فصار الناس يربطون الجامع بالكنيسة والكنيسة بالجامع ليدللوا على مكانها، وهكذا فُتِح لنا عالم البلدة القديمة في المدينة التي تعيش فيها ثلاثة أديان؛ الإسلامية والمسيحية والسامرية. سرت في شوارعها فتذكرت شوارع البلدتين القديمتين في الخليل والقدس.

تحدث علاء عن وفرة المياه، ففيها خمسة وثلاثون سبيلاً للمياه، شاهدت عدداً منها والمارة يشربون وعابري السبيل يستمتعون بها، وعند منزل علي جاد الله (أبو حسام) توقفنا، وهو يشبه بيوت الشام في تصميمه، والساحة التي تتوسطه، كانت بساطة الحياة أيام زمانٍ تختصر في حالة حددها «أبو حسام»، قائلاً إن سلة البيض في دكان الحارة كانت تكفي الجميع.

جلسنا في غرفة تضم مقتنيات أثرية جمعها «أبو حسام» وهو أمر طبيعي لشخص يعيش داخل بلدة محاطة بسور من المباني القديمة وست عشرة بوابة منها بوابتان رئيستان، يجد قطعاً قديمة حوله ويشعر بقيمتها ليس إلا، بل وصار يحب شراءها واقتناءها، فهذا «البيرو» كانت تستخدمه النساء قديماً للتزيّن ووضع عطرها والكحل العربي وفساتينها وربما الذهب. وصدف أن الدرج الأخير استحال فتحه إلى أن تم ذلك عام 1965 وفوجئ «أبو حسام» بكرتونة من مكعبات السكر. قد تكون حبات السكر لفتاة مراهقة أو عروس كانت تسترق لحظات في غرفتها في أثناء التزين فتتناولها.

في المنزل بعض أشغال «أبو حسام» اليدوية مثل مجسم القدس من الفخار بإضاءته الجذابة، وما إن غادرنا حتى جاءت مجموعة من طلبة


مشهد عام لجبال نابلس



في مصبنة البدر

المــدارس، فأي مكان في هـــذه البلدة هو محط للسياحة وللتعلم.

القصور داخل السور

كانت رائحتها تملأ خطواتي داخل هذه البلدة، أنتظر لحظة رؤية قصر آل طوقان، إحدى عائلات نابلـس القديمة، حيث عاشــت وأصبحت الأديبة والشــاعرة فــدوى طوقــان، حاولــت البحث في تفاصيل رواياتها «رحلة جبلية... رحلة صعبة» وكيف كانت نظرة ابن الجيران لها نهاية قصة ذهابها إلى المدرسة على سبيل العقاب وبداية مشوارها الأدبي على يد أخيها الشاعر إبراهيم طوقان.

تعــرض القصــر للتدميــر مــن قـــوات الاحتـلال كمــا تعرض لهذا عديــد من المنازل والقصور والمســاجد والكنائس في البلدة. بني القصر قبل ثلاثمــائــة عام على نمط الحصن المنيع، في إشــارة إلى الصراعات على السلطة بــين عائلات المدينــة، وهو مبني علــى النمط الحلبــي، لأن جذور آل طوقان تعــود إلى حماة في سورية.

القهوة والزعتر... الرائحة النفّاذة للغاية

عنــد دكانة «قهــوة بريك» وقفنــا، أخذتني الرائحة، ولأنني لســت «مدمنة» قهوة، جذبتني رائحة البهارات والزعتــر أكثر، الزعتر هنا هو ذهب فلسطين الأخضر وتنتشر زراعته شمالها بما مســاحته 5500 دونم، أنتجت العام الماضي 11 ألف طن منه، تشــتهر نابلس به، استنشقته وكأنني أمر علــى كل طفولتي التــي كانت في الغربــة تفتقد وتنتظر أي زائر من فلســطين أو بلاد الشام ليحضر الزعتر، وأنا الطفلة النحيفة التي تعيش وتنمو عليه. كان المكان يمتلئ بالزوار،



مع عائلة أبي حسام

لاسيما الأجانب، جلست مع المالك باسل بريك (1962)، الذي تعمل عائلته في المهنة منذ عام 1936، جلسنا في زاوية تراثية وحدثنا كيف تطورت خبرة العائلة، لاسيما في مجال العطارة والأعشاب الطبية فصارت تمازج بين الخبرة والدراسة، لديهم نحو 90 صنفاً من البهارات. وأكد لمجلة «العربي» أن البلدة قديمة تتعرض لاقتحامات كثيرة ضمن محاولات لإضعاف الحركة التجارية فيها.

إلى الياسمينة وأريو

عشرون ألفاً يعيشون في البلدة القديمة، التي تضم سبعة أحياء، منها حارة الياسمينة التي نسير فيها حالياً، يغلب على حجارة البلدة الطابع المعماري الإسلامي ما عدا الروماني والبيزنطي والعثماني، وهناك نقوش مملوكية على بوابات بعض مساجدها، مثل: الصلاحي الكبير، وجامع الساطون الذي يعود بناؤه لفترة حكم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وطبعاً لا يكتمل المكان إلا بالحمامات التركية، التي يعمل منها اثنان من أصل أحد عشر.

صابونة... الزيت والحليب

لكثرة زراعة الزيتون شمال فلسطين، اشتهرت نابلس بصناعة الصابون من زيت الزيتون، وبمروري وعلاء بإحدى المصابن (أي مصنع الصابون)، التقينا شامخ بدر مالك مصبنة البدر، الذي أخبر «العربي» بأهمية وفرة المياه لبناء المصابن، وهو ما تمتاز به البلدة القديمة، وعرّفنا على آلية صناعته، وفتح لنا مخازنه تحت الأرض الممتلئة بزيت الزيتون، التي كانت سابقاً مثل البنك يحفظ الناس زيتهم فيها ولاسيما الفائض،

مجسم القدس صناعة «أبوحسام»



صورة تذكارية مع منيب المصري



كنيسة بئر يعقوب

الذي يستخدمه ملاك المصابن إذا احتاجوا في صناعة الصابون، حينها يعطون للناس حقوقهم من أرباح المصبنة. وأكد لنا شامخ أن الصابون يعتمد في مكوناته على أجود أنواع الزيت وهو زيت العصرة الأولى مع مادة قلوية تحدث التصبن، وحديثاً تطورت الصناعة وأضيفت عناصر أخرى للصابون مثل حليب الماعز، الذي يساعد في تجديد خلايا البشرة، وأنتج أيضاً الصابون السائل، عدا عن قطع الصابون الصغيرة محفور عليها أسماء العروسين.

بين سكر المدينة ومرارة الحياة

هكذا يحتفظ كل بيت فيها بسكره على هواه، حتى العروس تحمل مكعباتها معها، لكنهم من جهة أخرى وقفوا ومازالوا في وجه أقوى جيوش العالم، بدءاً مما فعلوه حين هاجم نابليون بونابرت أسوار عكا وكانت نابلس طريق الرجوع، فقاموا بإشعال الجبل بما فيه من خيام عسكرية ليفر الجيش الفرنسي. هذه نار المقاومة، لذلك لُقِّبت بجبل النار، أما نارها اليوم فهي نار الاحتلال الملتهبة من جراء ما يقوم به بفصل المدينة عن قراها الست والأربعين بعشرات الحواجز العسكرية، وقصف لمدارسها وأسواقها ومعالمها الأثرية، ففي البلدة القديمة كانت الجرافات المدرعة تفتح الطرق الضيقة فيها فتجرف معها بيوت المواطنين، وحتى عام 2004 تم ترميم أكثر من 3700 بيت مسجل لدى بلدية نابلس، وفي تقرير لجنة تقصي الحقائق التابعة للأمم المتحدة لعام 2002 بعد عملية «الدرع الواقي» لجيش الاحتلال، جاء فيه أن نابلس كانت من المدن الأكثر تضرراً في ممتلكاتها، ولاسيما البلدة القديمة بما فيها مبان ذات أهمية ثقافية ودينية وتاريخية، وأن الاحتلال لم يكن يمهل السكان وقتاً لحمل أمتعتهم ■

جانب من التراث الموسيقي العربي
«تاريخ الموسيقى والغناء في الكويت»

غنام الديكان
فنان وموسيقي من الكويت



يحتل موضوع الموسيقى والغناء عند شعوب العالم حيزاً كبيراً من الاهتمام، وذلك لأهمية الغناء والموسيقى بين الناس على مختلف فئاتهم وطبقاتهم كجزء من الموروث الوجداني الذي يتم التعبير عنه فنياً، بدءاً بأغاني الأطفال وصولاً إلى الكبار من مرددين ومنشدين، في شتى المواضيع من تراتيل العبادات إلى أغاني الحرب والهجاء والغزل والمديح، بين جميع الأعمار والفئات والطبقات تقريباً, حيث تبين الدراسات النظرية مدى العناية بهذا الموضوع.

أكدت مصادر الموسيقى والغناء عند العرب قبل الإسلام، حضور ألوان الغناء في كثير من المناسبات الاجتماعية، كالزواج وغيره، أو في ترانيم العبادات في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام.

ومن المؤكد أن الشعر، وهو ديوان العرب، هو أساس الغناء في الجزيرة العربية، حيث كان يعتمد عليه عليّة القوم والقبائل في التعبير الفني، فكانت القبيلة تحتفل بمولد شاعر من أبنائها (وتقيم الولائم وتغني النساء على المزهر كما يصنعن في الأعراس) احتفاءً بظهور فرد من الموهوبين ممن سيتولى الدفاع عنها ويوثق مآثر وبطولات أبنائها.

مقام الشاعر الاجتماعي

كان للشاعر مقامه الاجتماعي السامي في كل مكان، سواء في بلاط الحيرة أو في قصور آل غسان أو في سوق عكاظ أو في خيمة البدوي (كانت كثرة من المغنين والشعراء من طبقة الملوك والأمراء في أيام الجاهلية مما يلفت النظر).

والشاعر موسيقي أكثر منه ناظماً وقيل إنه كان يستأجر موسيقياً (مغنياً) يغني أبياته الشعرية مثلما يستخدم راوية يرويها عنه، وفي بداية ظهور الإسلام ونشر دعوة النبي محمد ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، وانشغالهم بنشر تعاليم الإسلام السامية، انحسر الاهتمام بالغناء والموسيقى، نسبياً، في تلك الفترة.

أما الشعر فلم يفقد مكانه، فقد كان الشاعر حسان بن ثابت أشبه بشاعر النبي ﷺ الرسمي، وواحداً من أقوى من ذاد عن النبي والإسلام، وقام بمواجهة الأضداد وسحق عادات التكبر والترفع عن العامة. وبعد فتح مكة دخل كثير من المناوئين إلى الإسلام، وكان من بينهم كثير من الشعراء والمغنين.

وبعد فترة استقرار الإسلام في مكة والمدينة، ظهرت بعض الأراجيز والأغاني، قيل إن بعضاً من الصحابة أعرض عنها ومنهم من استهجنها ومنهم من أقبل على سماعها.

كما تروي كثير من المصادر أن النبي ﷺ أوصى بالغناء للزفاف، إذ إنه قال لعائشة حينما زفت عروس أحد الأنصار: «أبعثتم معها مَن يغني؟ قالت لا، قال أما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم غناء الغزل». وكذلك في بعض المناسبات التي عايشها ولم يحرم الغناء فيها، وهنا يرى البعض أن هذه أنواع محددة من الغناء وليس للغناء على عواهنه.

جدل طويل

لعل واحداً من أعقد مواطن الجدل في الفكر الإسلامي وأشدها ابتعاثاً للحيرة، موقف الدين الإسلامي من الموسيقى، وكأن الجدال لم يتوقف بين الفقهاء والمشرعين في سماع الموسيقى، فمنهم من أرجعه إلى الشعر وسوّغ إباحته في الدفاع عن وجهة النظر الإسلامية في مواضيع تدعم توجه المسلمين في جميع المناسبات والتوجهات، ومنهم مَن رأى غير ذلك.

الأسانيد التي تبيح السماع

إن الأسانيد التي تبيح «السماع» لا تقل قوة عن أضدادها، وإن لم تكن بكثرتها، وقد جاءت الكثير من المؤلفات التي اهتمت بهذا الشأن، وطرحت بأسانيدها من الأحاديث إضافة لآراء مهمة لهذه المواضيع. وبين أيدينا كتاب أصدره متخصص بالموسيقى، قدم فيه من وجهة نظره كمسلم وموسيقي حاصل على مؤهل عالٍ، وهو د.حمد الهباد، في كتابه «المختصر في حكمِ النغم والوتر»، كثيراً من الأحاديث وشرح علاقة الموسيقى بالمسلمين، وبيّن مدى إباحة الغناء والموسيقى في كثير من المواضع، معتمداً على المراجع الموثقة.

بداية علم الهارموني

الهارموني harmony، اصطلاح يطلق على مجموعة من الأصوات الموسيقية من آلات موسيقية أو أصوات بشرية تؤدي أكثر من لحن في وقت واحد وبشكل متناسق، وفق مهارة المؤلف الموسيقي أو الموزع، والهارموني له أشكال عدة أشهرها المستخدم في العزف الأوركسترالي السيمفوني orchestra symphony، فمنه «الكونشرتو



العرضة البحرية

concerto»، و«الكاونتربوينت counter point»، أو الطِّباق في الموسيقى، وهو العلاقة بين الأصوات التي تعتمد بعضها، على بعض، ومع ذلك تستقل في الإيقاع والمعالم وتستخدم الآلات الوترية والنحاسية والخشبية.

وقد كتب كل من الفارابي (في القرن العاشر) وابن سينا (القرن الحادي عشر) عن المسافات الموسيقية باعتبارها بداية علم الهارموني الذي ارتقى بالموسيقى العالمية، كما كتبا عن تناغم وتداخل الأصوات «النغمات» كشرح بُعد الدرجتين الأولى والثالثة كمسافتين متفقتين، حيث سبقا العالم الغربي الذي يستقي موسيقاه وعلم الهارموني ونظرياته بالذات، عن كثير من الفلاسفة والعلماء العرب.

وقد أتت إسهاماتهما بين إسهامات عدد كبير من العلماء والفلاسفة العرب، بدءاً من الفيلسوف يونس بن سليمان الكاتب (المتوفى سنة 148هـ - حوالي 765م) ومعه أربعة وثلاثون عالماً وفيلسوفاً من بينهم: الخليل ابن أحمد، الكندي، ابن المنجم، المسعودي، الرازي، الأرموي، إسحاق الموصلي، وغيرهم كثير، ولعل آخرهم أبو زيد عبدالرحمن الفاسي المتوفى سنة 1096هـ، حوالي1685م، حيث أسهموا في طرح كثير من النظريات التي ارتقت لاحقاً بالموسيقى العالمية.

وقد أشار د. يوسف شوقي لهذه الحقيقة بقوله: «لقد حمل د. هنري فارمر Dr. Henry farmer لواء الدعوة لنا نحن العرب، وأخذ على عاتقه وحده تعريف العالم المعاصر بما تدين به نظرية الموسيقى في أوربا للمعرفة العربية، وعمل مخلصاً على شد انتباه العالم إلى الفلاسفة العرب وعلمائهم، الذين كانت لهم كتابات في الموسيقى أثرت في معارف الإنسانية».

كما أكدت د. سمحة الخولي الفكرة نفسها، حيث كتبت تقول: «ونحن نرتكب خطأ تاريخياً لا يغتفر إذا أغفلنا عظماء الفلاسفة والمفكرين والمسلمين من العصور الوسطى، فهم الذين سبقوا علماء الغرب من الألمان والفرنسيين والأمريكيين في العصر الحديث، بما تركوه لنا، وللغرب ذاته، من تراث علمي وفلسفي يتناول الموسيقى، ونخص بالذكر منهم الكندي والفارابي وإخوان الصفا وابن سينا والأرموي وغيرهم، وإن كانت الموسيقى لا تمثل إلا واحداً من مجالات بحوثهم الواسعة،



فرقة المعيوف الشعبية

التي اطلع الغرب فيها لأول مرة على جوانب الفكر اليوناني القديم».

المؤتمر الأول للموسيقى العربية

عُقد مؤتمر الموسيقى العربية الأول في القاهرة عام 1932 لتدارس الموسيقى العربية تحت رعاية الملك فؤاد ملك مصر آنذاك، في أروقة معهد الموسيقى العربية، الموجود حالياً في شارع رمسيس، وذلك بعد بضع سنوات من تأسيس معهد الموسيقى العربية تحت رعاية الملك فؤاد الأول عام 1929م، وقد ضم المؤتمر موسيقيين من مصر والشام وتركيا وبعض المندوبين الأوربيين.

وقام بالدعوة إلى المؤتمر عام 1932 الفنان محمد أحمد الحفني تحت الرعاية الملكية، وكان الحفني قد أتم دراسته للموسيقى في ألمانيا. وكان الهدف من الدعوة إلى المؤتمر الحفاظ على التراث الموسيقي والغنائي، خصوصاً بعد وفاة أعلامه الكبار مثل المنيلاوي عام 1911، وصالح عبدالحي عام 1912، وسيد درويش عام 1917، وهم مجموعة من رموز الفن والأعلام الذين خلفوا موهبة الغناء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ الفنان عبده الحامولي، الذي كان يغني في قصور الخديو إسماعيل.

وبُحث في المؤتمر السُلَّم العربي الموسيقي وعلاقته بالسُّلَّم الموسيقي الغربي، والمقامات، والإيقاع، وقدمت فيه محاضرات عن طرق تدريس الموسيقى وتاريخها.

كما اهتم الحاضرون باختيار الأعمال الموسيقية المصرية والعربية التي يجب الحفاظ عليها كتراث يحفظ للأجيال القادمة. وكانت مصر حاضنة للموسيقى، وعرفت بتقدير المتعاملين فيها، وخصوصاً تلك النخبة منهم التي ذُكرت في «كتاب الموسيقى الشرقي» للأستاذ محمد كامل الخلعي، الذي حفظ كثيراً من نصوص ومقامات، وكان مشهوراً ومحبوباً حين ذاك، وعند الرجوع إلى دور الموسيقى بمصر قبل المؤتمر، فقد كانت تزخر بالموسيقيين والمغنيين الذين تخصصوا في ألوان من الغناء الشرقي، أهمها «الموشحات»، ودور الرواد منهم في تأليف النصوص والألحان والغناء المتقن. (انظر كتاب الموسيقى الشرقي الذي وصف فيه المؤلف نقلات المقام بين الدرجات الموسيقية



فرقة تلفزيون الكويت

وأسـمائها الشـائعة قديماً من تأليف الموسيقار محمد كامل الخلعي، ذيلّه د.حسين فوزي).

الموسيقى بين مصر والكويت

مما يؤسف له أنه لم تكن هناك صلة في ذلك الوقت بين الموسـيقيين في مصـر والكويت، وقد كتب في ذلك د. يوسف الدوخي:

«ومـن غريـب الاتفـاق أن يتعايـش الفـرج والحامولـي في عصر واحد، وأن يحملا مشـعل الفن كل حسب درايته واتساع مداركه. ومن غريب الأقـدار أن يتوفيـا في عام واحـد وكأنهما على موعد مع القدر.

فعبده الحامولي (1845 - 1901) ما إن تخرج في الفن على يد أستاذه حتى علت مكانته وطفقت شهرته البلاد، وأتيح له السفر إلى إسطنبول أكثر من مرة، اسـتغل فيها موهبتـه ليضيف إلى ألوان الغناء ألوانـا طريفة. وعبداللـه الفرج (1836 - 1901) نشـأ في الهند، وكانت له يد في الرسـم والتصوير، وبرع في دراسـة الموسيقى، فصنع من تلك الدراسة ألحاناً تداولها عازفو الخليج».

لذلك أخذت الأغنية العربية تسـير، عموما، نحـو مفترق الطـرق لاقتفائها جميع الأسـاليب المتبعة في الغناء العربي القديم.

«مركز رعاية الفنون الشعبية 1956»

لعـل أهم ما قامت بـه حكومة الكويت ممثلة في وزارة الشـؤون الاجتماعية والعمل هو إنشـاء مركز رعاية الفنون الشعبية، الذي يعتبر ثاني مركز للفنون الشـعبية بعد مصر في منتصف خمسـينيات القرن الماضـي، حيـث أولت الـوزارة عناية علميـة وفنية بالتراث الشـعبي الحي، وقام المركز بتسجيل مختلف أنواع الفنون من وسـائل التسجيل المختلفة الصوتية والفوتوغرافيـة والسـينمائية، كمـا جمـع الآلات الموسيقية والأزياء، وأشرف على تأسيس المركز الفنان رائد الموسيقى والمسـرح الأول حمد عيسى الرجيب (1924-1998م)، ولحسن الحظ أن يكون بين من كان لهم دور الريادة في المركز الأستاذ صفوت كمال، الذي يعد واحداً من الشخصيات المميزة في علم الفلكلور، وله أهمية بـين كثيرين من الأسـاتذة بهذا الجانب، وكان من الشخصيات التي لها دور الريادة.

وانضـم لهذا المركـز الأول بالخليج نخبة من الشـخصيات الأدبية، مثل: أحمد العدواني، أحمد البشر. وقد شكلت مجموعة من اللجان على النحو التالي:

- لجنة الموسيقى والفنون الشعبية.
- لجنـة المسـرح: زكـي طليمـات، محمـد النشمي.

- لجنة الفلكلور والتراث الشعبي: صفوت كمال.

- لجنة الموسيقى والفنون الشعبية: وكان في عضويتها من الفنانين حمد الرجيب، سعود الراشد، أحمد الزنجباري، أحمد باقر، ومبارك الميال. كما انضم لها من الفنانين الشعبيين والنهامين راشد صالح الجيماز وغيره من الجيل القديم، ثم الأخوين دوخي، وهما المطرب عوض الدوخي والشاعر الملحن يوسف الدوخي محمد التتان، وجاء من جيل الشباب شادي الخليج وعبدالحميد السيد وإبراهيم الصولة وغيرهم. وتقاطر الفنانون والموسيقيون وشعراء الأغنية وكتّابها والهواة أيضاً على هذا المركز.

وتعد لجنة الفنون الشعبية من أهم اللجان التي بدأت الكويت بعدها تخطو إثر خطى الدول العربية في الحفاظ على موروث عامة، والموسيقى الغنائية بصورة خاصة، وبدأ التطوير الموسيقي الحثيث، متزامناً مع دراسة ما كان يقدمه الفنانون المؤسسون للفن في الكويت والخليج، وما تركوا من تراث لدى أبناء الخليج، لتبرز بعد ذلك ألوان من الموسيقى والغناء العربي بهذه المنطقة كغناء شعبي من دون آلات موسيقية، أو التي تعتمد على آلات موسيقية محدودة مثل آلة العود بشكل رئيس، والكمان إن وجدت، والآلة الإيقاعية الشهيرة في أثناء غناء ألوان الصوت الثلاثة التي جاء بها عبدالله الفرج (1836/1900م)، الذي يعتبر مؤسس الصوت في الخليج العربي، وتلاميذ مدرسته مثل: الفنانين خالد البكر وأخيه يوسف، وإبراهيم اليعقوب وأخيه، إضافة إلى عبداللطيف العروج. وكان هذا اللون من الغناء هو فن الصفوة ومن الفنون المحببة للعامة، كما كان للفنان الشيخ محمد بن فارس (1895/1935م) والفنان ضاحي بن وليد، دور الريادة في غناء وألحان الصوت البحريني.

الموسيقى الشعبية في الكويت

نظراً لثراء الموسيقى الإيقاعية في منطقة الخليج العربي بصورة عامة والكويت بصورة خاصة، وهذا لا يعني الإقلال من أهمية الإيقاعات في سائر أرجاء الجزيرة العربية والوطن العربي،



الفن الشعبي الأصيل

لكن لضيق المساحة وتكثيف الموضوع، سأركز على الكويت. ففي الكويت والخليج توجد ضروب إيقاعية مزدوجة متداخلة تداخلاً يشابه إلى حد كبير التوزيع الهارموني، وهذا توزيع هارموني فطري، ومن هنا يكتسب قوته وتأثيره. وهذه النوعية لم نسمع أو نقرأ عنها في الإيقاعات المعروفة في الوطن العربي كإيقاعات الموشحات، فقد اقتصرت في وظيفتها على تقوية الإيقاع وتنظيم حركة اللحن. وأبدع الفنان الشعبي في تنظيم هذه الإيقاعات على درجات مختلفة. فجعل لكل آلة إيقاع تسمية ولها مشتقات، ومهمة خاصة، وضروب تختلف في ما بينها مكونة إيقاعاً واحداً... «وتكثر الآلات الإيقاعية أو تقل في الغناء الجماعي وفقاً لعدد الأصوات التي تؤدي الغناء... وما تناسب معها فتشكل بذلك القالب الغنائي».

ولدينا الآن هذا الإيقاع الذي تؤديه آلات عدة:

أولاً: خط اللحن «الغناء».

ثانيا: خط الطارات، وهو الإيقاع الأساس.

ثالثاً: آلة «الطبل الخماري» الشكل الثابت.

رابعاً: «الطبل اللاعوب» للتصرف والزخرفة.

خامساً: آلة «الطويسات» للزخرفة الإيقاعية: وهي حادة الصوت يسمعها جميع المؤدين.

ويتبع هذه الطريقة من قوالب الغناء الكثير التي تؤدّى باستخدام عدة آلات إيقاعية.

وقد تستبدل بـ«الطارات» أي الدفوف «الجحال» أي الأواني الفخارية وذلك في غناء الحدادي «البحري».

ولهذا يلاحظ أن أكثر أنواع الغناء اعتمدت على آلات الإيقاع منذ القدم لتغطي نقص الآلات النغمية، وهنا يحرص الفنان الشعبي، على تعدد آلات الإيقاع، وتعدد درجاتها الموسيقية، فمنها ما يأخذ شكل الباص ومنها الدرجات المتوسطة والحادة، إضافة للتصفيق المزخرف والأدوات النحاسية مثل الصاجات الصغيرة والنحاسية (الطاسات) والهاون، وبعض الأواني الفخارية التي لا تؤثر فيها عوامل الطبيعة من رطوبة على الجلود بالنسبة للدفوف وغيرها.

كما توظف الإيقاعات والتصفيق في كثير من أغاني العمل، وهي إيقاعات صعبة ومعقدة تردد في أثناء غناء البحارة عند الإبحار بالسفن الكبيرة لمسافات طويلة للهند وإفريقيا وغيرهما، تغنى لتوحيد الجهد في أثناء رفع الأشرعة وإنزالها، وكذلك عند الاستعداد لرسو السفينة والتجديف، وكذلك أغاني الترفيه.

ألحان الصوت

من العجيب أن ألحان الصوت التي عرفت في منطقة الخليج العربي كقالب من الغناء الرئيس لم تكن معروفة قبل انتشار وسائل الإعلام أو قبل بث الإذاعات في الكويت والبحرين ودول الخليج. أما غناء الصوت، فهو الغناء الكلاسيكي في الكويت والبحرين بشكل خاص، وفي دول الخليج بشكل عام.

إيقاع الصوت: هو الذي يؤدى بمصاحبة آلة العود الرئيسة وآلة إيقاعية صغيرة تحمل باليد وينقر بالأصابع عليها باليد الأخرى وهو على ثلاثة قوالب من الإيقاع.

أولاً: الصوت الشامي، وهو رباعي الإيقاع 4/4.

ثانياً: الصوت العربي، وهو سداسي الإيقاع 6/4.

ثالثاً: «الصوت الخيالي»، وهو مركب إيقاع الرباعي 12/8، وهذا النوع الذي تَغلُب على نصوص ألحانه مواضيع أخف على السامع، وإذا رددت ألحانه غناءً من دون آلة إيقاع المرواس يسمى «ختم، وتؤدّى أغانيه عادة في نهاية السمر وبمواضيع من الوعظ أو النصيحة والطرافة كعجوز الشعر. وتعتمد ألحان الصوت على النص الفصيح أو نص الشعر الحميني الذي كان معروفاً وشائعاً في غناء الموسيقيين لألحان الصوت الثلاثة.

القوالب الغنائية الشعبية الكويتية

إن الألحان الغنائية الشعبية في الكويت، كثيرة بأسمائها متعددة بألوانها ضمن قوالب معينة أو محددة. ولكل قالب إطاره الخاص به



الأخوان الفنانان: الملحن يوسف المهنا والمطرب عبدالمحسن المهنا

من حيث تركيبه الإيقاعي وجمله اللحنية الملتزمة إلى حد ما بتفعيلة الإيقاع وكذلك بأوزان من شعر الفصحى أو العامية.

وبمعنى أوضح يكون لكل قالب ألوانه التي تميزه عن غيره من الألوان الغنائية، وله اسم يستدل من خلاله على هدف هذا النوع أو الإيقاع... ويتكون اللون الغنائي عادة من ثلاثة عناصر:

أولاً: الإيقاع، وهو الذي يحدد سير النغمات ضمن موازير (حقول) متساوية (كما أشرنا سابقاً... من إيقاعات بسيطة أو مركبة).

ثانياً: اللحن، ويخضع اللحن في الأغنية الشعبية للمضمون الذي تعبر عنه، فمثلاً لحن أغنية الزفاف وضعه الفنان الشعبي للتعبير عن الفرحة، بكلمات مناسبة، مثال، لا إله إلا الله - عليك أسعيد، كما وضع لحن العرضة التي هدفها التغني في زمن السلم بأمجاد الماضي وما فيه من بطولات ومآثر يتم فيها عرض الرجال والسلام استعداداً للحرب. والغناء هنا يكون بما يتناسب أيضاً مع هذا المضمون من حيث الحماسة في اللحن.

ثالثاً: أوزان الشعر... إن كثيراً من أوزان



آلات ايقاعية مختلفة: الطبل البحري والطوسه والهاون وزير الماء والجرة الفخارية

الشعر الشعبي مرتبطة بألوان معينة في الغناء، وشاعت عند الشاعر الشعبي الغنائي نصوص السامري ونصوص الخماري أو الأصوات، وكذلك نظم «الزهيري».

كما شاعت أسماء شعراء أجادوا فيها مثل:

1 - الشاعر الفنان عبدالله الفرج (1836/1901م) صاحب الإبداع والأغنية العربية المستمدة من التراث العربي «الأصوات»، أغاني الصوت، إضافة لإبداعات أخرى.

2 - الشاعر الفنان محمد بن لعبون (1797/1831م) مجدد الغناء الحضري والبدوي.

3 - الفنان جوهر اللنقاوي (1870/1950م تقريباً)، صاحب أول فرقة تجمع البحارة.

الإيقاعات في الموسيقى الكويتية

كما هو معروف لدى المتعاملين في حقل الموسيقى، تتكون إيقاعات الموسيقى الكويتية من عنصرين جوهريين، هما: الصوت والزمن.

والصوت في عرف الطبيعيين موضوعه دراسة الأصوات عامة، أما في عرف الموسيقيين فموضوعه دراسة الأصوات التي تقبلها الأذن وترتاح لها النفس وقد حددت بـ «النغمة» أو «الدرجة الصوتية» حين صدور الصوت (غناءً) من الأصوات البشرية أو (عزفاً) من الآلات الموسيقية.

وتنقسم الأصوات البشرية إلى قسمين رئيسين، هما:

- أصوات النساء والأطفال.
- أصوات الرجال.

وينقسم كل من هذين القسمين إلى أنواع:

أولاً: أصوات النساء والأطفال:

1 - يسمى النوع الأول منه: الندى، واصطلاحه الموسيقي سبرانو، وهو للأصوات الحادة.

2 - يسمى النوع الثاني: الرنان، واصطلاحه الموسيقي كونترالتو، وهو لأصوات النساء الغليظة.

ثانياً: أصوات الرجال

1 - يسمى النوع الأول منه «الغليظ»، واصطلاحه الموسيقي «باص».

2 - يسمى النوع الثاني منه «الصادح»، واصطلاحه الموسيقي «تينور».

3 - هذا بالنسبة للأصوات حسبما جاء في كتاب د. محمود الحنفي «الموسيقى النظرية».

وتنحصر الآلات جميعها في ثلاثة أنواع:

1 - النوع الأول: آلات ذات أوتار وتسمى الآلات الوترية كالرباب والعود.

2 - النوع الثاني: آلات ينفخ فيها وتسمى آلات النفخ كالناي أو المزامير.

3 - النوع الثالث: آلات ينقر عليها وتسمى آلات الإيقاع.

وقسمت أصوات هذه الآلات كتقسيم الأصوات البشرية السابق ذكرها، سبرانو للأصوات البشرية السابق ذكرها، سبرانو أول وسبرانو ثان، وكونترالتو للأصوات الحادة.

والباص التينور الأول والتينور الثاني للأصوات الغليظة، وقبل التطرق إلى آلات الإيقاع، لابد أن نتعرف على الإيقاع وأهميته في الموسيقى.

الإيقاع:

يسمى في الموسيقى الأوزان أو الضروب أو الأصول، وهو الوزن الذي يحدد سير النغمات، كما هي الحال بالنسبة لبحور الشعر، حيث إن لكل بحر تفعيلاته الخاصة يسير عليها المنظوم من الكلام، ثم الإيقاعات المركبة، وهي انقسام الزمن الواحد إلى ثلاثة أزمنة.

مثال: مركب الثاني، ينقسم كل زمن منه إلى ثلاثة أزمنة صغيرة فيصبح بدل (1 - 2 - 3 - 3 -)، وقد شاع هذا النوع من الإيقاعات المركبة بالخليج والجزيرة العربية بأكملها، ويتبعه من الإيقاعات الشعبية في الكويت «إيقاع الدزة» المستعمل في «أغاني الزفاف» منه هذا اللحن: عليك أسعيد... لا إله إلا الله.

ومثال آخر من اليمن على هذا الوزن الإيقاعي (مركب الثنائي) مع الفارق في الضروبات. عن الإيقاع السابق هذا المثال: ألا يا طير يا الخضر.

وقد أبدع الفنان الشعبي في تنظيم هذه الإيقاعات، فجعل لكل آلة إيقاع تسمية ولها



الفنان غريد الشاطئ



فرقة الفنون الشعبية الكويتية

مشتقات، ومهمة خاصة، وضروب تختلف فيها بينها مكونة إيقاعاً واحداً.

«وتكثر الآلات الإيقاعية أو تقل في الغناء الجماعي وفقاً لعدد الأصوات التي تؤدي الغناء.. وما تناسب معها فتشكل بذلك القالب الغنائي».

آلات الإيقاع

- الطار أو الطارة وجمعها طيران أو طارات:

هو أكثر الآلات الإيقاعية الشعبية انتشاراً وأهمية بين أهل فن الغناء الشعبي والطابع الترفيهي. وقد أجاد العزف (الضرب) عليه كثير من الفنانين الشعبيين، وتفنّنوا باستخراج «الدُم»، وثلاثة أنواع من «التك».

والصفقال يضيف للغناء الحيوية وحث المشاركين لزيادة التطريب كما يتصرف الكثير من «ضاربي الطار» في الإيقاع ارتجالات لملء الفراغات والزخرفة.

- الطبل البحري الكبير:

هو آلة إيقاعية أساسية لأكثر أنواع الغناء وخصوصاً (الغناء البحري) - الراس - الشمالي. (ثم عملية الشباح) ويحتل هذا الطبل مكان الصدارة وقد قسمه الفنانون الشعبيون إلى نوعين أو مهمتين كما أشرنا سابقاً.

الأول: «طبل الراس» كما تسميه البحارة. ويعتبر من أهم الطبول وقد سمي بهذا الاسم لضربه «دُم» الأساس ضمن الأشكال الإيقاعية الموجودة في الطقم الواحد «أو الوزن».

الثاني: «الطبل الخماري» يصاحب الطبل الأول في أكثر الفنون الغنائية البحرية. بعد أن يشد الطبل الخماري على درجة صوتية أعلى من درجة الطبل الكبير «طبل الراس» للحصول على صوتين مختلفين.

الثالث: «المرواس»، وجد المرواس ليصاحب آلة العود في غناء «الأصوات» فصغر حجمه يجعل الدرجة الصادرة منه (بعد عملية الشباح) لا تطغى على صوت آلة العود، حتى وإن وصل عدد المروسين بين 4 و6 أفراد، وإن كان أفضل عدد للمروسين في أثناء غناء الصوت ثلاثة، بحيث يقتصر إيقاع أحدهم على الإيقاع الأساسي، والاثنان الآخران يقومان بـ«التشريك» وهي الزخرفة الإيقاعية التي أدخلها البحارة لمصاحبة الطبل الكبير والحجلة والهاون في أثناء غناء الحداديات.

قوالب الغناء والموسيقى في الكويت

القالب أو «الفورم» هو أساس الغناء والموسيقى، والقوالب عبارة عن شعر ولحن وإيقاع، وهي العناصر التي يتكون منها أنواع القالب الغنائي والألحان، مثل: قالب السامري، قالب غناء الخماري، وعلى ضوء ذلك تصاغ الأغاني.

الموسيقى الآلية، أي التي تعتمد على الآلات الموسيقية، مثل البشارف والسماعيات والدولاب، ولكن أنواع القوالب والغناء لم تكن معروفة عند الموسيقيين في العالم العربي حتى ظهور الأغاني المطبوعة على أشرطة الكاسيت التي انتشرت بعد طبع ألبومات غنائية للفنانين العرب بصورة عامة والفنانين في الخليج بصورة خاصة، حيث برز الغناء الكويتي والسعودي واليمني، والجزيرة العربية بصورة خاصة.

وفي سبعينيات القرن الماضي، غنى بعض الفنانين الكبار في العالم العربي مجموعة من هذه القوالب، مثل: قالب الصوت الذي غناه المطرب الكبير عبدالحليم حافظ، وهو صوت «ياهلي» كما غنى قالب الصوت مجموعة من الفنانين المطربة فايزة أحمد، وديع الصافي، نجاة الصغيرة، المطربة صباح، وغيرهم، من الشام والعراق وهم الأكثر معرفة بالغناء في الكويت.

أما الغناء الأشهر شعبياً في دول الخليج، وبصورة خاصة دولة الكويت ودولة البحرين، حيث برع فنانو هذين البلدين بالأصوات، فهو غناء النخب من الأشخاص بنصوص شعر عربية فصيحة ونصوص من الشعر الحميني. كما أنه الغناء الشعبي المحبب للبحارة ويؤدى بطريقة شعبية بالعزف على آلة العود والمراويس والتصفيق المزخرف ■

البحث العلمي والتطوير...
الأنواع والمستلزمات والمعوقات

د. يوسف يعقوب السلطان
خبير واستشاري في سياسات العلوم والتكنولوجيا
واستراتيجيات البحث العلمي - الكويت



غدا البحث العلمي من أهم عناصر التقدم الصناعي والرغد الحياتي للمجتمعات، لاسيما مجتمعات الدول المتقدمة، التي أولت البحث العلمي وأوجه نشاطه المختلفة شتى أنواع الدعم والإمكانات بعد الحرب العالمية الثانية. إن دالة الإنتاج (Production Function) لها علاقة مع ثلاثة عوامل: رأس المال (Capital) والأرض (Land) والعمالة (Labour).

هذه المعادلة لم يكتب لها النجاح والتطبيق الأمثل إلا بعد إضافة عامل رابع يتعلق بالتكنولوجيا والمعرفة التكنولوجية (Technology and Technological Know – How) والتي تتعلق وتتطور، من خلال البحث العلمي والتطوير (Research and Development – RD).

وحيث إن تركيبة الاقتصاد والنظم السياسية تتباين بين الدول المتقدمة والدول النامية، فإن مؤسسات البحث العلمي والتطوير تكاد تكون في معظم الدول المتقدمة مستقلة وبعيدة عن وطأة البيروقراطية الحكومية – عدا المؤسسات التي تبحث في مجالات الدفاع والأمن – إذ يعتمد معظمها على القطاع الخاص وشركات الإنتاج. أما في الدول النامية، فإن معظم، إن لم يكن جل، مراكز البحث العلمي تكاد تكون مركزية، إذ إنها تموّل وتدار وتشرف عليها الحكومات (بشكل كامل). ولا مراء أن لكل واحد من هذين النظامين سلبيات وإيجابيات، إذ يعتمد تطور المجتمع والاستفادة من نتائج البحث العلمي على ميزان السلبيات والإيجابيات.

ويعتمد نجاح وتعثّر مؤسسات البحث العلمي والتطور على عوامل عدة، منها:

- الدعم المادي.
- القوى العاملة.
- المفهوم والتقدير السياسي والنظرة الاجتماعية لدور الأبحاث في تطوير المجتمع.
- تشريع سياسات للبحث العلمي.
- توافر المعلومات العلمية والتكنولوجية.
- إيجاد قنوات لتطبيق نتائج البحث العلمي في مختلف المؤسسات وقطاع المجتمع.

لا جدال في أن للبحث العلمي وتطبيقاته التكنولوجية دوراً ضليعاً في تطور ورفاهية المجتمعات. وعليه، يمكن اعتبار إجراء البحوث العلمية مقياساً لتقدم الدول ونموّها الاجتماعي والاقتصادي والصناعي. فالدول التي تخطط لتطبيقات مخرجات البحث العلمي، لا عجب في أنها تتبوأ الصدارة في مجالات عدة، بل وقد تسيطر على مجريات الأمور العالمية.

يرتبط البحث العلمي وتطبيقاته بالتنمية الوطنية والإعمار ارتباطاً وثيقاً لا يمكن فصله، إذ إن الدول المتقدمة صناعياً بارعة في ترسيخ هذا التزاوج والاستفادة منه لأقصى مدى.

وعلى ضوء ما سبق نرى أن الدول المتقدمة لا تخطو خطوة في أي مجال إلا بعد دراسة مستفيضة وبيّنة، وهذا ما يجعلها مستقرة اجتماعياً واقتصادياً وعلمياً، أو بمعنى آخر، إن البحث العلمي يشكّل جزءاً لا يتجزأ من منظومة تنميتها الشاملة، وعلى نقيض ذلك نجد أن الدول النامية ترتجل عشوائياً ودونما منهج محدد الحلول للمشكلات التي تواجهها والتي تكون بعيدة جداً عن الأسلوب العلمي الموضوعي.

إن توجيه البحث العلمي إلى أغراض التنمية في الدول النامية تقابله مشكلات وتحديات تنبع من أن وعي ومفاهيم التنمية في هذه المجموعة مازالت تحبو، أو أن التخطيط لها يتم بطرق ووسائل عشوائية أو ارتجالية أو مقلّدة لنموذج من الدول الصناعية المتقدمة، قد لا يكون موائماً لهذه المجتمعات، وفي دول أخرى لا يكترث صانعو القرار السياسي بذلك.

لذا ينتكس نشاط البحث العلمي في هذه المجتمعات نتيجة لهذا التخبّط أو غياب التخطيط، لتغدو ممارسات ونتائج الجهود، لا تمس، أو تنبع من، أو تتواكب مع، احتياجات المجتمع وأسس التنمية. وقد لا ينظر إليها كأبحاث علمية رصينة أو ذات مردود اجتماعي واقتصادي. كما قد يتساءل البعض عن أهمية مؤسسات البحث العلمي لمجتمعاتها، وقد يعلل بعض الباحثين أن مثل هذا التجافي والتباعد بين البحث العلمي والتنمية في الدول النامية ستتجم عنه أبحاث ليست ذات صلة بالتنمية الوطنية، إذ يسعى من خلالها الباحثون إلى النشر في دوريات علمية عالمية بغرض الترقية أو حضور محافل علمية عالمية فقط.

تعريف البحث العلمي

هو الدراسة العميقة والحقيقية لمشكلة من المشكلات التي تواجه المجتمع وقطاعاته المختلفة

فــي أي ميــدان من ميادين العلــوم الطبيعية والتكنولوجية والهندسية والطبية، وفي أي فرع من فروع المعرفة الإنسانية، وذلك باتباع أساليب علميــة مقننة، معتمدة على التخطيط والمنهجية العلمية الصائبة.

وحــري بالذكــر ألا تقتصر جوانب نشــاط البحــث والتطويــر والدراســات العلميــة على قطاعــات علمية بحتــة، مثل: البتــرول والبيئة والتلوث والمياه... إلخ، إذ إن مشكلات اجتماعية أخرى مثل انتشــار المخدرات، وجنوح الأحداث، والطلاق والعنوســة... إلخ، هي أمور تهم صانع القرار السياسي أيضاً.

أنواع البحث العلمي

إن البحث العلمي، وإن كان يصبو إلى تحقيق أهداف عدة تطرّقنا لها آنفاً، إلا أن لهذا النشاط أنواعاً عدة تختلف حسب مواقع إنجازها ونوعية وكمية الصرف عليها والهدف من ممارستها.

ونســتعرض في ما يلي أنواع البحث العلمي المتعارف عليها عالمياً:

1 - أبحاث أساسية وأكاديمية
(Basic & Academic Research)

تهــدف هــذه الأبحاث إلــى زيــادة المعرفة الإنســانية والكشــف عن الحقائــق والنظريات (العلــم من أجــل العلم) دون الاكتــراث بتطبيق النتائج، وتشــمل شــتى التخصصــات العلمية والاجتماعية والاقتصادية. ومما ســبق نستنبط أن البحــث الأساســي ينبع من رغبــة الباحث فــي اســتيعاب وتفهّم ظاهرة علميــة معينة، أو استكشاف أسرارها، وفي زيادة المعرفة بها، وما يتبع ذلك من نشر علمي أو إلقاء لمحاضرات في مؤتمرات علمية، حيث يؤدي ذلك إلى مســاندة الباحث عند التقدم لترقية علمية.

2 - أبحاث تطبيقية (Applied Research)

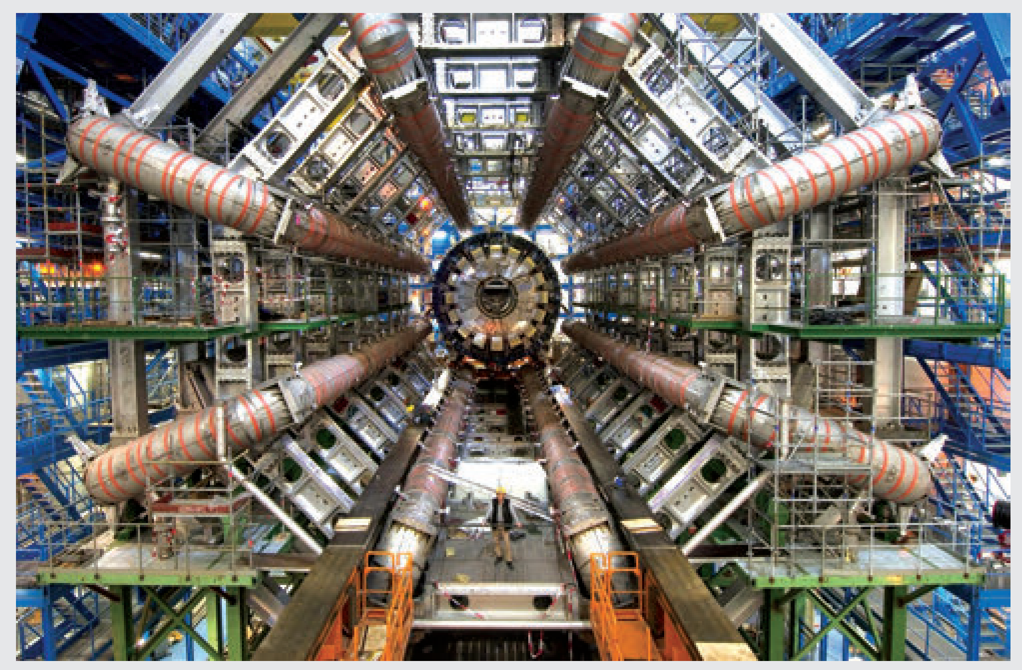
هي مجالات الأبحاث التي تتوق إلى اكتشاف حقــول وآفــاق علمية جديــدة تقتــرن بهدف تطبيقي مباشر، أو هي جوانب النشاط البحثي التي تســعى إلى ابتكار الحلول لمشكلات تجابه قطاعات المجتمع، أو قد تكوّن معضلة في عجلة التنمية والسبق والتطور.

وتجرى هذه الأبحاث عادة في مراكز ومعاهد متخصصة للأبحــاث التطبيقية. وفي كثير من الأحيان تكون طريقة إجراء الأبحاث التطبيقية معروفة بصــورة أو بأخرى، فبعد أن يتم تحديد المشكلة من خلال دراســتها وتحليلها من جميع النواحي، يتم اختيار أفضل الطرق والأســاليب العلمية لإجراء البحث، ويخصص الزمن المناسب والقــوى العاملة الكافيــة والمتخصصة، وترصد الميزانيــة المطلوبة ويتم تجهيز المعدات والأجهزة الضرورية لذلك.

يتم إجراء هذا النمط من الأبحاث للتوصل إلى نتائج يمكــن تطبيقها علمياً أو التوصل إلى نتائــج تثبت بصــورة قاطعة فــي موضوع معين سواء بالسلب أو الإيجاب، أو التوصل إلى زيادة المعرفة التكنولوجية وإلى دراســات جدوى فنية أو اقتصاديــة بحيث يكون لها في النهاية مردود اجتماعي واقتصادي على مسيرة التنمية كإنتاج مواد أو سلع جديدة.

3 - الأبحاث التطويرية
(Developmental Research)

هي جميع وجوه النشاط البحثي التي تهدف إلى تحســين منتجات ومــواد موجــودة وزيادة كفاءتهــا، أو تطويــر وتعزيــز آليــات الإنتاج أو الحصول على منتجات ومواد جديدة. ويُنفّذ هذا النمــط من الأبحاث عادة في معامل ومختبرات تابعــة لشــركات إنتاجية وصناعيــة، فكثير من المؤسســات والشــركات الصناعية الكبرى في الدول المتقدمة تملك المال والخبرات والباحثين والفنيين والقوى العاملة اللازمة لإنشــاء مراكز بحثية تابعة لها، وتكون مهمة هذه المراكز إجراء الأبحاث التطبيقية ذات العلاقة بأهداف ورؤى هذه المؤسســة الصناعية. إن جُلَّ هذه الأبحاث مخصص لتطوير وتحسين المنتجات التي تنتجها مصانع هذه المؤسســة بغية تحقيق الســبق في الأسواق، ومن ثم جباية أرباح أكثر، كما تقوم هذه



العلم يتعملق!

المراكز بإجراء الأبحاث للحصول على منتجات جديدة تصنع بعد ذلك وتطرح للاستهلاك.

4 - الاستشارات والدراسات (Consultation & Studies)

يعتمد هذا النوع من الجهد على اختيار أفضل الحلول أو المقترحات العلمية من بين ما هو متاح على الساحة العلمية ليتناسب مع طبيعة المجتمع أو قطاعات الخدمات والإنتاج. وفي كثير من الأحيان يعتمد هذا النشاط على أدوات مكتبية ومراجع إذا كان ذا طبيعة اجتماعية أو أدبية أو تربوية، مقارنة مع ما سلف ذكره من أبحاث، حيث يكون للمختبر دور مهم في ذلك.

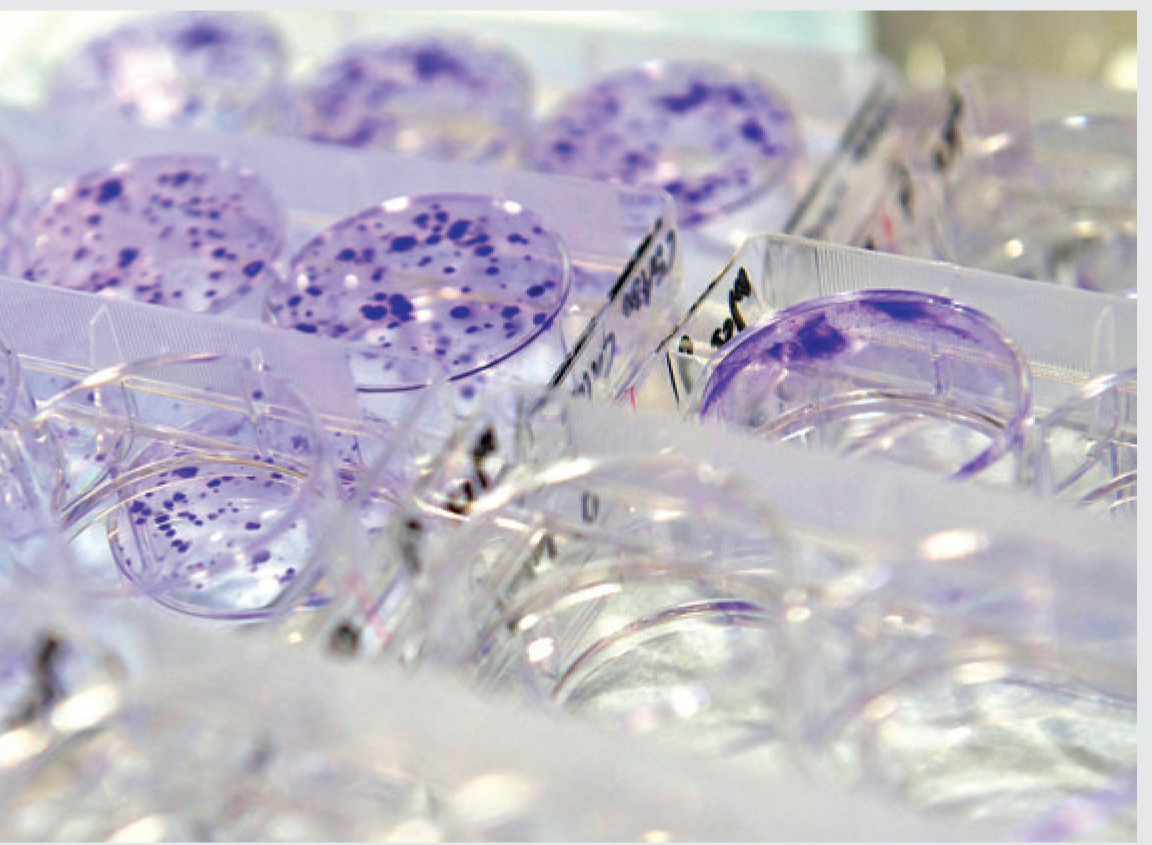
متطلبات ومستلزمات البحث العلمي

تكاد تكون متطلبات ومستلزمات البحث العلمي البشرية أو المادية أو المؤسساتية عامة لكل الدول، وإن تباينت أولويات البحث العلمي لديها، حيث تشكل تلك المستلزمات اللبنة الأساسية والركن المتين للنهوض بالبحث العلمي.

ونستعرض في ما يلي سرداً لأهم تلك المستلزمات:

1 - استقطاب القوى البشرية وتنميتها: تعتبر مصادر إعداد وتأهيل وتدريب الثروة البشرية، هي الفيصل بين التقدم والتأخر في عالمنا المعاصر. فلا يمكن أن يتحقق تقدم من دونها، ولذلك، فإن الاستثمار الأكبر يجب أن يوجه إلى كينونة رأس المال البشري لإعداد قوة العمل المدرّبة والمتخصصة والباحثة والمخترعة المبدعة.

إن مشكلة مصادر الثروة البشرية (الجامعات والمعاهد التطبيقية) في الدول النامية، التي يعتبر خريجوها باحثين علميين، أو قادة في الرأي والفكر والإنتاج والتوجيه في المجتمع، تتركز في إبطاء وتأخر بعض الدول النامية في مباشرة التعليم العالي والجامعي، وقد تكون المباشرة في طور الإعداد في البعض الآخر، بالإضافة إلى أن أول ما يلفت النظر في التعليم العالي والجامعي في هذه الدول، والأمر ينطبق على الجامعات العربية، أن سياسته تقوم على سياسة التعليم العام نفسه، من حيث أنظمة قبوله، وانتقال



المختبرات وعلب (بتري) تسعى إلى الحقائق

المتعلم من مرحلة إلى أخرى على أساس «المقدرة» وحدها، والمقدرة هنا هـي المقدرة على الحفظ وليس الابتكار. وتزداد المشكلة حدة بسبب قلة الأعداد الملتحقة بهذا النوع من التعليم، ما يؤدي إلى تسجيل طلبة في غير مواقع رغباتهم، أو إمداد سوق العمالة بكم فائض من تخصصات جامعية. أضف إلى ذلك أن بعض الخرّيجين لا يفضلون العمل في مجال البحث العلمي، ولاسيما في التخصصات العلمية والهندسية، على الرغم من أهليّتهم لذلك. ويعزى ذلك إلى عدم توافر الحوافز المادية، مقارنة بزملائهم في الدول المتقدمة. ويتطلب ذلك من هذه الجامعات أن ترسم سياسة جديدة لقبول الطلاب، ولاسيما في التخصصات الهندسية والعلمية، تهدف إلى اختيار أفضل العناصر التي يمكن أن تسهم في تنمية وإثراء البحث العلمي. كما يجب أن تتيح طرق التدريس فيها وأنظمة تقويمها الفرص لاكتشاف العناصر القادرة على مواكبة متطلبات وتحديات مهاراتها البحثية وقدرتها على التفكير والابتكار.

وعلى صانعي القرار السياسي في المجتمعات العربية دراسة وتحديد أسباب عزوف النشء عن التخصصات العلمية وإيجاد الحلول لذلك.

2 - توفير المناخ العلمي الملائم للعطاء والإبداع.

3 - تنظيم وإدارة البحث العلمي.

4 - تمويل البحث العلمي، ويعتبر هذا العنصر من أهم، إن لم يكن الأهم، في أعمدة مؤسسات الأبحاث.

5 - توفير خدمات المعلومات العلمية والتقنية.



6 - تشجيع النشر العلمي.
7 - تطبيق نتائج الأبحاث العلمية في قطاعات الإنتاج والخدمات المختلفة، ويتم ذلك بتأصيل الروابط مع قطاعات الإنتاج والخدمات.

معوقات البحث العلمي

يواجه البحث العلمي والتطور التكنولوجي، كأي نشاط علمي يتطلب رصد الموارد وحشد الطاقات، عديداً من المشكلات والعقبات التي قد تحد من انطلاقه وتحقيق ما يتوخى منه على الوجه الأكمل. وقد تتباين هذه المعوقات بين الدول المتقدمة والنامية، أو حتى بين مجموعة من الدول.

ونسرد في ما يلي بعضاً من هذه المعوقات:
1 - عدم مواكبة برامج الأبحاث وتطويرها لمتطلبات التنمية الشاملة.
2 - انعدام أو ضعف التفاعل بين الجامعات والمعاهد التطبيقية ومؤسسات الأبحاث.
3 - غياب التعاون بين قطاع الإنتاج والخدمات ومؤسسات الأبحاث.
4 - غياب التنسيق أو التنظيم الداخلي بين مؤسسات الأبحاث خلال السعي لتجنب بعض الثغرات، مثل: عدم وجود حوافز لدى العلماء الباحثين المهتمين بالبحث العلمي، أو عدم وجود آليات لتخصيص الموارد المالية للإنفاق على البحث العلمي، أو تخصيص الموارد البشرية والمالية بصورة عشوائية غير متقنة.
وقد ينعكس ذلك سلباً على مؤسسات التمويل، ويتمثّل بالدعم السخي لبرامج غير ذات أولوية للتنمية الشاملة.
5 - الوضع السياسي الملائم الذي يتوقف على تهيئة مناخ سياسي مشجع للعلم والتكنولوجيا والبحث العلمي يرتكز على عناصر عدة، أهمها: حسن القيادة والمستوى التعليمي للأعضاء المنتخبين في البرلمان، وماهية الحكومة والمميزات الاجتماعية والثقافية والمحيط السياسي القائم على ظروف محددة، رضا المجتمعات وقبولها بأهمية الأبحاث العلمية في التنمية المستدامة.
6 - عدم إلمام أو مشاركة القائمين بالبحث العلمي بخطط التنمية الوطنية.
7 - اعتماد المعايير السياسية والاجتماعية لتعيين القائمين على مؤسسات الأبحاث من دون الاهتمام الفعلي بالجوانب الأكاديمية والخبرة والتخصص، ما يحد من تطور هذه المؤسسات، إذ إن تعيين المناصب الأخرى داخل المؤسسة قد يتم بالأسلوب ذاته.
8 - عدم وجود سياسة معلنة للبحث العلمي، وترك هوية البحث العلمي ووجوه نشاطه وفق رؤية وأهواء القائمين على هذه المؤسسات، أو الاستعانة بمؤسسات وأفراد أجانب ليس لهم دراية أو إلمام بطبيعة المجتمع واحتياجاته.
9 - عدم اختيار فريق البحث أو الباحث لموضوعات مرتبطة بالمجتمع ذاته، وذلك لكون البحث طويل المدة أو لاحتياجه إلى موارد مالية

مناسبة أو الحاجة إلى أجهزة ومعدات قد لا تكون متوافرة. وفي بعض الأحيان قد يلجأ الباحث إلى تكرار بحث سابق له مع تغيير طفيف في الأرقام والأهداف والأساليب. وقد يؤول ذلك أحياناً إلى ضعف آلية ربط هذه المؤسسات بقطاعات المجتمع.

10 - في كثير من المجتمعات، أو بالأحرى في عديد من قطاعاتها، ولاسيما النامية، لا تستأثر مؤسسات البحث العلمي بدعم المجتمع، بل قد ينظر هؤلاء إلى هذه المؤسسات نظرة دونية، واضعين في الاعتبار التطور العلمي والتقدم التكنولوجي اللذين حظيت بهما المجتمعات المتقدمة، ومحاولة مقارنة ذلك بإنتاج وعمل المؤسسات الوطنية، ولذا فإن أي محاولة لتطوير هذه المؤسسات وتشجيعها تستند بصورة رئيسة إلى نظرة المجتمع الإيجابية لمؤسسات الأبحاث وتقديره للعاملين فيها، وإلى الأهمية القصوى لجهودهم في التنمية المستدامة.

11 - تعاني عديد من المؤسسات العلمية من غياب الاستقرار التنظيمي والتغيرات المتلاحقة والمتعاقبة في مواقعها وتبعيتها. وقد يقود غياب الاستقرار التنظيمي هذا إلى عدم إتاحة الفرصة الكافية لتنفيذ برامج الأبحاث، وعدم الاستقرار الوظيفي لدى العاملين فيها، أو يُعزى لقصور إدراك القائمين على هذه المؤسسات لمفهوم وسياسة وفلسفة البحث العلمي، مما يجعلهم يلجأون إلى هيئات أجنبية لإعداد برامج بحثية وطنية، وهذه الهيئات قد لا تكون على دراية كافية بمتطلبات التنمية في المجتمعات النامية.

عزوف الدارسين عن التخصصات العلمية

تطرّقنا آنفاً إلى أهمية البحث العلمي للتنمية، بيد أن هناك مشكلة تواجه التعليم الجامعي - وهو الرافض الأساسي للموارد البشرية - هي عزوف الدارسين عن ارتياد مجالات الأبحاث العلمية والعلوم التكنولوجية وازدياد إقبالهم على المجالات الأدبية والإدارية والفنون، وإن كانت لهذه التخصصات مساهمة في التنمية، لا ريب.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الجامعات تشهد التسرّب من التخصصات العلمية والتكنولوجية، ما ينتج عنه مسلمات سلبية تقع على الفرد والمجتمع على حد سواء، إذ سيواجه نقصاً حاداً في الكوادر المتخصصة في هذه المجالات، قد ينعكس سلباً على برامج التنمية الوطنية والتنمية المستدامة.

وقد يؤول السبب لعزوف الشباب عن ارتياد المجالات العلمية إلى:

- ضعف البنية التحتية للتعليم الأساسي، وانعدام البرامج التشجيعية للطلبة، والإقبال على الانخراط في مجالات الأبحاث العلمية والابتكارات، وكذا الافتقار إلى مراكز ومؤسسات تعنى بالبحث العلمي، وتضاؤل المخصص الحكومي للبحث العلمي.
- انعدام التنافس على التخصصات العلمية وغياب التحفيز أو تشجيع الإبداعات العلمية كما هو مألوف في رصد جوائز تشجيعية للتنافس في مجالات أخرى.
- تشهد الجامعات تغيير رغبات الطلبة في سنواتهم الأولى من دخولهم لكلياتهم التي اختاروها.

وقد يثير ذلك تساؤلات ودوافع عن هذه الأمور، أي لماذا يقرر الشباب الالتحاق بكلية ثم يعدلون عنها بعد أن تمر سنة دراسية من أعمارهم؟ هل هناك أسباب دعتهم لاتخاذ قرار ثم أدركوا بعد التجربة أنهم تعجّلوا في اتخاذه؟ لماذا لم يعطوا أنفسهم الفرصة الكافية للتعرف على إمكاناتهم الذاتية وعلى الكلية التي تناسبهم؟ هل هناك من يجبرهم على اتخاذ قرار غير مناسب؟ إن قرار التحاق الطالب بتخصص معين يتفق مع ميوله وإمكاناته وقدراته، لابد أن يبدأ قبل الالتحاق، وذلك كي يشحذ وينمّي تلك القدرات لديه، ومن ثم معرفة الكلية التي تناسبه. وهذا الأسلوب معمول به في العالم المتقدم حيث يتم تخصيص دراسات وامتحان قدرات لهذا الأمر.

- الدور الكبير الذي يلعبه التأثير الأسري في اختيار الأبناء التخصصات التي لا تتفق مع قدراتهم ومهاراتهم وذلك إرضاء لرغبة الأسرة،



كل شيء تحت المجهر

وأيضاً قد ينساق الطالب وراء رغبة أقرانه الذين يلتحقون بالكليات العلمية، ونظراً لارتباطه بهم، فإنه قد يختار الكلية ذاتها، وقد لا يوفق فيها، كذلك قد يتأثر الطالب بالنظرة الاجتماعية للكليات كالهندسة والعلوم الطبية، ما يجعله ينساق وراء هذه النظرة، ويختار كلية لا تناسبه ويكون مصيره الفشل والتحويل إلى كلية أخرى غير فنية أو علمية لاحقاً.

● تدني مستوى خريجي الثانوية العامة، إذ إن طبيعة الدراسة الأكاديمية في الكليات الجامعية تختلف تماماً عن الدراسة في المدارس التعليمية، حيث إن الطالب ينتقل من أسلوب التلقين إلى أسلوب البحث، وهو مسار جديد عليه، ولذلك على الطالب أن يتحمل في بداية الأمر حتى يتأقلم. ولكن في حالة عدم مقدرته على التأقلم ووصوله لحالة كراهية التخصص والمجال نفسه، فعليه ألا يتسرّع في اتخاذ القرار، وأن يستشير المتخصصين وذوي الخبرة في هذا الشأن قبل التحويل إلى كلية أخرى.

● محدودية فرص العمل أو توافر الفرص الأفضل لخريجي التخصصات الأخرى. وهكذا تظل المشكلة قائمة والشباب يعزفون وينأون عن العلوم، بل وقد ينزحون إلى الخارج للبحث عن فرص عمل، وعمن يحترم عقولهم المتميزة، وابتكاراتهم الجديدة. وقد يرى البعض أن التخصصات غير العلمية لا تتطلب منه المكوث في الجامعة لساعات طويلة، وأن التخصصات الأخرى قد تكون سهلة لحياتهم.

وحري بالذكر أن يتيقن صانعو القرار السياسي ومتخذو القرارات في مجتمعاتنا العربية والإسلامية إلى أهمية دور المرأة في عملية التنمية الشاملة، وأنها ركن راسخ لتحقيق الأهداف التنموية المستدامة، وأنها ركيزة أساسية لهذه الأهداف، وعليهم أن يقرّوا بأن للمرأة في جميع التخصصات والمجالات بؤرة يتفجّر منها الإبداع والابتكار متى أعطيت الفرصة وفتح لها المجال لذلك.

والمتمحّص لمسيرة العلوم والتكنولوجيا والبحث العلمي في مجتمعاتنا، يرى أن المرأة ساهمت مساهمة فاعلة في تحقيق برامج التنمية المستدامة، وفي تحقيق تطلعات وآفاق التنمية الاقتصادية الوطنية ■



الكشف عن آلة تكاد تجري عملية جراحية بلا مساعدة

الجراحة الروبوتية: من يمسك بالمبضع؟

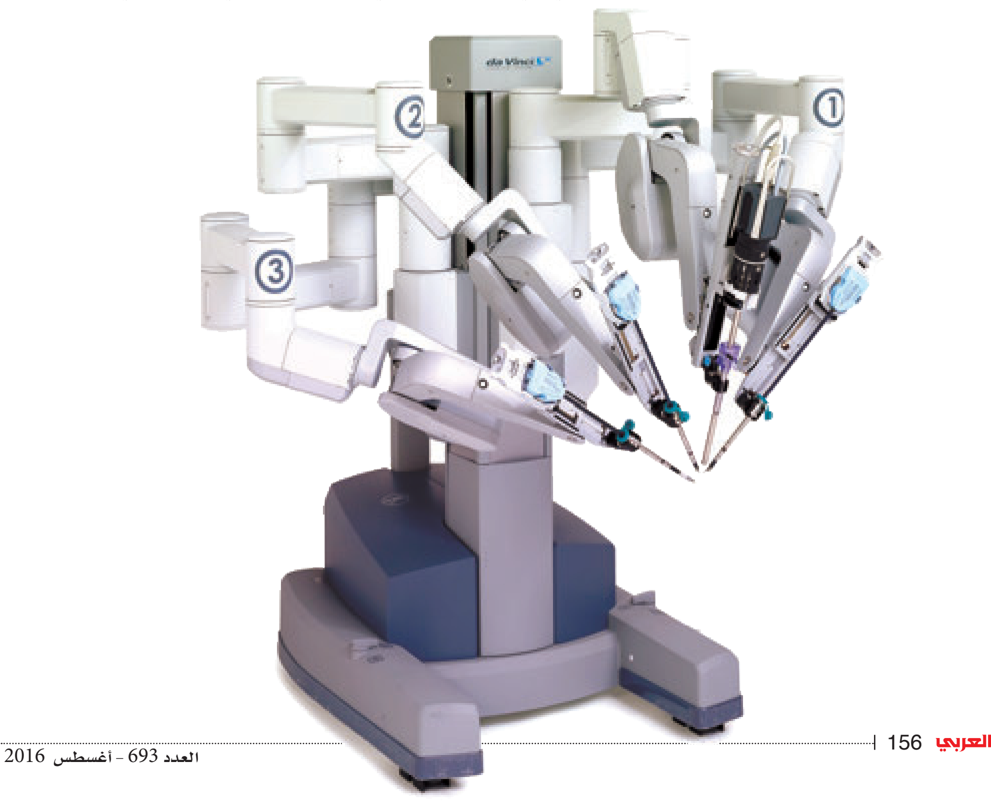
إعداد: طارق راشد كاتب ومترجم من مصر

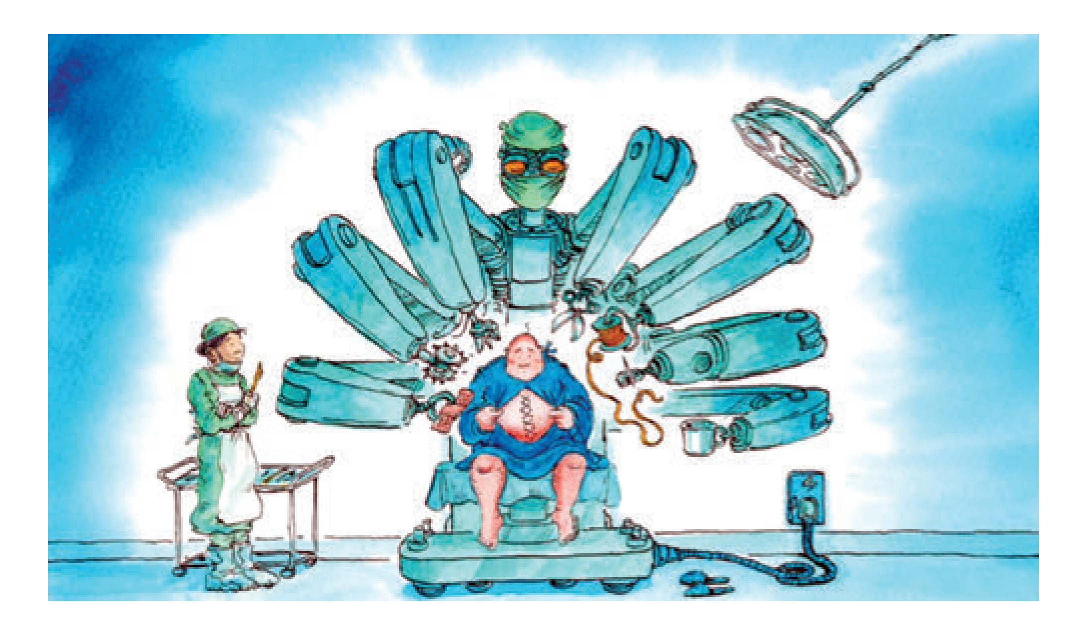
الآلات لا تشرب الكحوليات، ولا يصيبها التعب، ولا تضرب عن العمل. فكرة إجراء الروبوتات عمليات جراحية للمرضى من دون تدخل بشري فكرة جذابة بالنسبة لمديري المستشفيات، أما بالنسبة للمرضى، فالسؤال الحاسم هو: «أهي أفضل من الجراحين البشر؟». تنطوي العمليات الجراحية على كثير من البلبلة والتعقيد، ويمكن أن تتحول العملية الروتينية إلى مصدر تهديد للحياة في دقائق.

نتيجة لهذه الاعتبارات، نجد أن دور الروبوتات في غرف العمليات حتى الآن اقتصر إلى حد كبير على كونها لا تزيد كثيراً على أدوات دقيقة آلية يستخدمها الجراحون، وهذا بعيد كل البعد عن الكبائن الجراحية الذكية والمقصورات الطبية التي نراها في أعمال الخيال العلمي. لكن ورقة بحثية نُشرت أخيراً في مجلة «ساينس ترانسليشنال ميديسن» Science Translational Medicine المعنية بالطب الانتقالي من إعداد بيتر كيم Peter Kim، الجراح بالمركز الوطني لطب الأطفال في واشنطن العاصمة، وزملائه، تطرح فكرة روبوتات جراحة حقيقية تجري عمليات جراحية بأقل قدر من الإشراف البشري، في ما يعتبر خطوة أقرب إلى تحقيق ذلك الخيال العلمي. وعلى الرغم من أن هذه الروبوتات لم يُسمح لها بعد بممارسة عملها على البشر، فإنها تمكنت بنجاح من خياطة أمعاء الخنازير الصغيرة.

لكي يصنع الدكتور كيم وفريقه الطبيب الروبوتي المسمى اختصاراً «ستار» Star (روبوت النسيج الذكي المستقل) Smart Tissue Autonomos Robot، زودوا ذراعاً روبوتية بأداة خياطة جراحية متطورة ومستشعر للشدة لاكتشاف درجة شد الخيط الجراحي في أثناء العملية، وزودوا هذه الذراع بكاميرات يمكنها تكوين صورة ثلاثية الأبعاد 3D لإرشادها في أثناء استخدامها أداة الخياطة، وأيضا بجهاز تصوير حراري لمساعدتها على التمييز بين الأنسجة المتشابهة في الشكل. وسيطر الفريق على الذراع من خلال برنامج كمبيوتر طوروه بأنفسهم يحتوي على مجموعة تعليمات تتعلق بالغرز والعقد والمناورات، ما سمح للذراع بتخطيط وتنفيذ عملية تُعرف باسم «المفاغرة»، تشتمل على استخدام الخياطة في لحم جزءي أنبوب في الجسم.

قبل كل عملية من العمليات التجريبية، كان الفريق يعمد إلى تخدير الخنزير الصغير ويفتح بطنه ويكشف جزءاً من أمعائه الدقيقة، ثم يقطعه وينير المناطق التي ستتم خياطتها باستخدام صبغة فلورسنتية للمساعدة على إرشاد الذراع. قامت «سمارت»، تحت إشراف أحد الجراحين، بلحم أمعاء الخنزير الصغير بالخياطة من جديد. وفي العمليات الأربع التي تناولتها الورقة البحثية، قام الروبوت بتنفيذ حوالي 60 في المائة من الإجراء الجراحي دون تدخل بشري، وقام بتنفيذ البقية بمجرد تعديلات طفيفة في الغرز. لكن في الفترة التي انقضت منذ





أن قدّم الفريق النتائج التي توصل إليها للنشر، يقول الفريق إن «ستار» أتمت بنجاح العملية بكاملها دون مساعدة.

وإذْ قارن د.كيم وزملاؤه عمل «ستار» بعمل الجراحين ذوي الخبرة ممن يعملون بمساعدة الأدوات الروبوتية الموجودة ومن دونها، استنتجوا أن غرز «ستار» موزعة على مسافات أكثر انتظاماً، كما أن الأمعاء المخيطة أقل تسريباً. ولم يعان أي من الخنازير أي مضاعفات.

صحيح أن «ستار» استغرقت وقتاً أطول كثيراً مما يستغرقه الجراح البشري في خياطة الجرح، حيث بلغ متوسط زمن العملية 50 دقيقة، أما الإنسان فيستغرق نحو ثماني دقائق، لكن هذه الوتيرة ستزداد سرعة بكل تأكيد. وإذا لم تتمكن «ستار» أبداً من مضاهاة الجرَّاح البشري في سرعة العمل، فإن المنتج النهائي الذي تقدمه على ما يبدو، ويفوق المنتج البشري، سيقلل - إذا ما تُرجم إلى ممارسة إكلينيكية منتظمة - من معدلات إعادة إدخال المرضى إلى المستشفى.

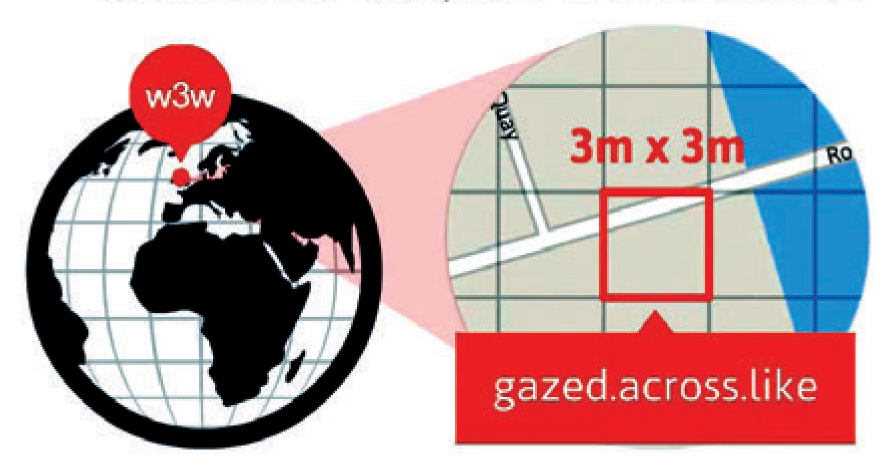
تظل «ستار» في الوقت الراهن مجرد أداة وليست فاعلاً مستقلاً بالمعنى الحقيقي، غير أن هذا الاستقلال على الأرجح ليس ببعيد جدّاً، حيث يأمل د.كيم، على سبيل المثال، أن تتمكن نسخة محسنة منها في القريب العاجل من استئصال الزائدة الدودية من دون أي مساعدة من الأطباء.

غير أن وجود «ستار» يسلط الضوء في الواقع على سؤالَيْن يُطرحان أكثر فأكثر في مجتمع يزداد فيه الاعتماد على الروبوتات يوماً بعد يوم، هما: «هل سيثق الناس بالروبوتات ويأمنونها على أرواحهم؟» و«من يتحمل المسؤولية القانونية إذا ما وقع خطأ ما؟».

ستتوقف الإجابة عن السؤال الأول على الأرجح على مستوى الإشراف الذي تخضع له هذه الآلات، فتحويل طائرات الركاب إلى طائرات من دون طيار لن يستغرق طويلاً على سبيل المثال، لكن المسافرين يطمئنون بفعل وجود طاقمِ رحلة، وبالتالي فمن المستبعد أن يحدث هذا قريباً. وسيصدق الشيء نفسه على الأرجح على الروبوتات الجراحية، مهما كان مستوى الجودة الذي تصل إليه. ورداً على السؤال الثاني، فإن المحامين يحومون بالفعل حول هذا الموضوع، حيث تعرضت شركة «إنتويتيف سيرجيكال»، صانعة الروبوتات الجراحية، التي تتخذ من مدينة صنيفيل Sunnyvale بولاية كاليفورنيا الأمريكية مقرّاً لها، لدعاوى قضائية يزعم رافعوها أن الجراحين لم يتلقوا تدريباً كافياً لاستخدام آلاتها، أو أن الروبوتات معيبة (وهي مزاعم تنفيها الشركة). ربما تتفوق الروبوتات على البشر في غرفة العمليات، لكن القضاء سيحدد أيضاً مدى سرعة انتشارها ■

خرائط الكلمات الثلاث...
نظام عالمي جديد لعنونة الأماكن

د. وحيد محمد مفضل
باحث وكاتب علمي من مصر



العالم كل يوم في جديد، وبواعث الثورة المعرفية والتكنولوجية الحادثة لا تكاد تخمد أو تنتهي، إلا ويظهر إنجاز علمي أو تقني جديد، يحفز هو الآخر على تواتر مزيد من الابتكارات والأفكار المبدعة والمفعمة بروح التنافس والرغبة في تحقيق السبق والريادة. وهذا ما ينطبق تماماً على ابتكارات إلكترونية وتكنولوجية كثيرة يصعب حصرها، لكن نخص بالذكر منها التطبيقات الخاصة باستخدام الخرائط الجغرافية ومحركات البحث الجغرافي المتاحة على شبكة الإنترنت، ونظم تحديد المواقع الجغرافية عموماً.

بعد أن كان الأمر قاصراً على محرك بحث جغرافي واحد فقط (خرائط جوجل) في العام 2005، تعج صفحات الويب الآن بعشرات المحركات المنافسة، التي يمكن بكبسة زر واحدة أن تفتح أمامك آفاقاً معلوماتية جديدة وخدمات عديدة وفريدة لم يكن يحلم أحدنا بمعاصرتها يوماً ما. ولتنظر مثلاً إلى خدمة تحديد حالة الطرق والازدحام المروري المتاحة على خرائط «ياهو» أو «بنج» أو «جوجل»، لتعرف كم من الوقت والجهد يمكن توفيره، وكم المعلومات التي يمكن الحصول عليها والاستفادة منها بوساطة هذه الخرائط.

واستكمالاً لهذا التوجه، يمكن القول إن العالم أضحى على موعد مع فكرة جديدة ومبتكرة لتحديد المواضع والجهات وترميز أو عنونة جميع المواقع والأماكن على مستوى العالم، بما في ذلك المناطق النائية والقرى المجهولة، بل وحتى الصحارى والأراضي الفضاء! وتتمثل هذه الفكرة في استخدام خرائط جديدة وترميز أو توليفة من ثلاث كلمات فقط لا غير، للتعبير عن عين العنوان أو المكان المقصود، وهذا عوضاً عن استخدام الإحداثيات الجغرافية أو تقاطعات خطوط الطول والعرض، وعوضاً أيضاً عن استخدام أنظمة العناوين المعروفة المتمثلة في الرموز البريدية أو أرقام صناديق البريد أو أسماء الشوارع، التي يصعب الوصول إليها في أحيان كثيرة.

ولقد بدأت هذه الفكرة - التي يعرف تطبيقها باسم خرائط الكلمات الثلاث أو What3Words- في الانتشار بشكل واسع في الآونة الأخيرة، بسبب ما تحظى به من مزايا، أهمها سهولة الاستخدام والتطبيق.

فكرة عمل النظام الجديد

تتمثل فكرة عمل نظام العنونة الجديد -المعروف باسم What3Words - في تقسيم سطح الكرة الأرضية إلى شبكة افتراضية متكاملة من 57 تريليون مربع صغير، تبلغ مساحة كل مربع 3 أمتار × 3 أمتار، ويعبر عن موقع كل مربع من هذه المربعات برمز فريد وثابت من ثلاث مفردات فقط، ويمكن الحصول عليها من خلال خرائط جغرافية معدة خصيصاً لهذا التطبيق.

وعمل على تطوير هذه الفكرة وتحويلها إلى تطبيق قابل للاستخدام مجموعة من الهواة في إنجلترا منذ العام 2013، حيث تم أخيراً إطلاق إصدار خاص بالهواتف الذكية لهذا التطبيق، فضلا عن موقع خرائط إلكتروني (https://map.what3words.com)، يشابه بشكل ما تطبيق «خرائط جوجل» وغيره من محركات البحث الجغرافية التي نعرفها، وإن تركزت مهمة المحرك الجديد في تحديد الكلمات الثلاث أو المفردات الخاصة بأي موقع أو مربع تريده على وجه البسيطة، والبحث كذلك عن أي موقع من خلال إدخال ثلاث كلمات سهلة الحفظ والكتابة.

كما يجري العمل حالياً على إطلاق نسخة باللغات العربية والإيطالية واليونانية من هذا التطبيق، فضلاً عن إصداراته الحالية الموجودة بتسع لغات، حيث يمكن لأي شخص استخدام التطبيق بأي لغة يفضلها، ومن المعلوم أن جميع الإصدارات تؤدي إلى النتائج نفسها من دون وجود أي فارق. وفيما يخص الإصدار العربي، فينتظر أن يتم إطلاق نسخته التجريبية خلال فترة قريبة، حيث يشير جايمي براون مدير برنامج اللغات بالشركة المطورة لهذا التطبيق، إلى أن هذه النسخة لن تكون ترجمة للنسخة الإنجليزية، بل عبارة عن إصدار خاص ومستقل ذاتياً بجميع مفرداته العربية، كما هي حال بقية اللغات، ما يمثل في حد ذاته عامل جذب لعموم الناس والمستخدمين في العالم العربي.

وكان الدافع الأكبر وراء ابتكار هذا النظام، هو صعوبة استخدام وتطبيق نظام الإحداثيات الجغرافية المكون من أرقام وحروف وإشارات في تحديد المواقع وعناوين الأماكن والمنشآت المختلفة بالنسبة لعموم الناس، نظراً لصعوبة

تذكر الستة عشر رقماً التي تمثل إحداثيات الموقع الواحد، التي تكتب عادة على شاكلة N 05. 18 17 25 ،E 39.12 31 51، بالإضافة إلى سهولة الخطأ عند كتابة هذه الأرقام أو عند إرسالها لشخص ما عبر الإيميل أو أي تطبيق آخر، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى الذهاب إلى موقع مغاير أو بعيد تماماً عن الموقع المقصود، على ما في ذلك من فقد للوقت والجهد والمال أيضاً. ومن هنا بزغت فكرة ابتكار نظام جديد مبسط يمكن استخدامه بسهولة من قبل الجميع، ويمكن أيضاً تعميمه وتبادل بيانات جميع المواقع والبقاع بوساطته من دون خطأ أو تعثر، وهو ما تحقق بالفعل من خلال إطلاق تطبيق خرائط الكلمات الثلاث أو What3Words.

ويعتبر نظام العنونة الجديد أدق كثيراً وأسهل في الاستخدام والتطبيق من بقية الأنظمة التقليدية الأخرى، المستخدمة في الاستدلال على العناوين وأماكن المنشآت وخلافه المتمثلة في أسماء الشوارع والرموز البريدية، كما أنه أكثر سهولة من ناحية التبادل والمشاركة مع الآخرين إذا قورن بنظام الأرقام أو الإحداثيات الجغرافية، لأن الكلمات عموماً أسهل كثيراً في الحفظ والتذكر من الأرقام. بيد أن هذا لا يعني إلغاء النظام الجديد للأنظمة القديمة المعمول بها في كل دولة، كما أنه لا يعتبر بديلاً لنظام تحديد المواقع العالمي باستخدام الإحداثيات الجغرافية (GPS)، كون الأخير نظاماً عالمياً لتحديد المواقع الجغرافية (وليس عناوين الأماكن)، وله تطبيقات مستقلة عديدة ومجالات استخدام محددة.

المزايا والمحددات

فضلاً عن سهولة الاستخدام والتطبيق، فإن تطبيق خرائط What3Words الجديد يتميز بأكثر من ميزة وخاصية أخرى، مثل اعتماده في إصدار الكلمات الثلاث على خوارزميات رياضية، وليس على الاختيار العشوائي للمفردات، ما يجنب إصدار كلمات طويلة أو صعبة النطق أو منافية للذوق والآداب.

كما تجنب هذه الخوارزميات إعطاء كلمات متشابهة لأكثر من مكان، وتعمل في الوقت نفسه على تخصيص الكلمات الأبسط والأكثر شيوعاً للمناطق الأكثر سكاناً، والكلمات الأطول للمناطق غير المأهولة، كونها أقل استخداماً. كما جرى تزويد خرائط النظام الجديد بقائمة من الكلمات والمفردات تصل في مجموعها من 25 إلى 40 ألف كلمة، تم اختيارها بعناية ودقة بحيث تكون سهلة النطق وبسيطة قدر الإمكان، وألا تتضمن أي كلمة غير لائقة.

ومن الناحية التقنية، فإن تطبيق What3Words الإلكتروني الخاص بالهواتف الذكية يتميز بصغر حجمه، حيث لا يزيد حجم البرنامج الخاص به على 5 ميجابايت، ما يعني إمكان تثبيته بكل سهولة على جميع الهواتف الذكية وجميع المنصات. كما يمكن لهذا التطبيق العمل من دون اتصال بالإنترنت، وهو ما يفيد في حالة ضعف البث أو انقطاع الاتصال بشبكة الإنترنت. كما توجد بالتطبيق خاصية تحويل الإحداثيات إلى ثلاث كلمات والعكس، وخاصية المشاركة التي يمكن من خلال النقر عليها إرسال الكلمات الثلاث الدالة على موقعك إلى أحد الأصدقاء سواء بوساطة الرسائل القصيرة أو البريد الإلكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي أو غيرها من التطبيقات المشابهة المثبتة على جهازك. لكن الميزة الأهم فوق كل هذا تتمثل في إتاحة هذا النظام للأفراد بالمجان، من دون أي تكلفة أو عبء مادي.

أما عن أبرز محددات أو عيوب هذا النظام، فتتلخص في افتقاد عناوين الأماكن والمواقع في الإصدار الحالي للبعد الثالث، نظراً لتضمين جميع المواقع فيه بشكل ثنائي الأبعاد، وهذا خلافاً مثلاً لنظام الإحداثيات الجغرافية، الذي يمكن أن يعطي فكرة عن قيم الارتفاعات، وخلافاً أيضاً لنظام العناوين البريدية الذي يزوّدنا برقم



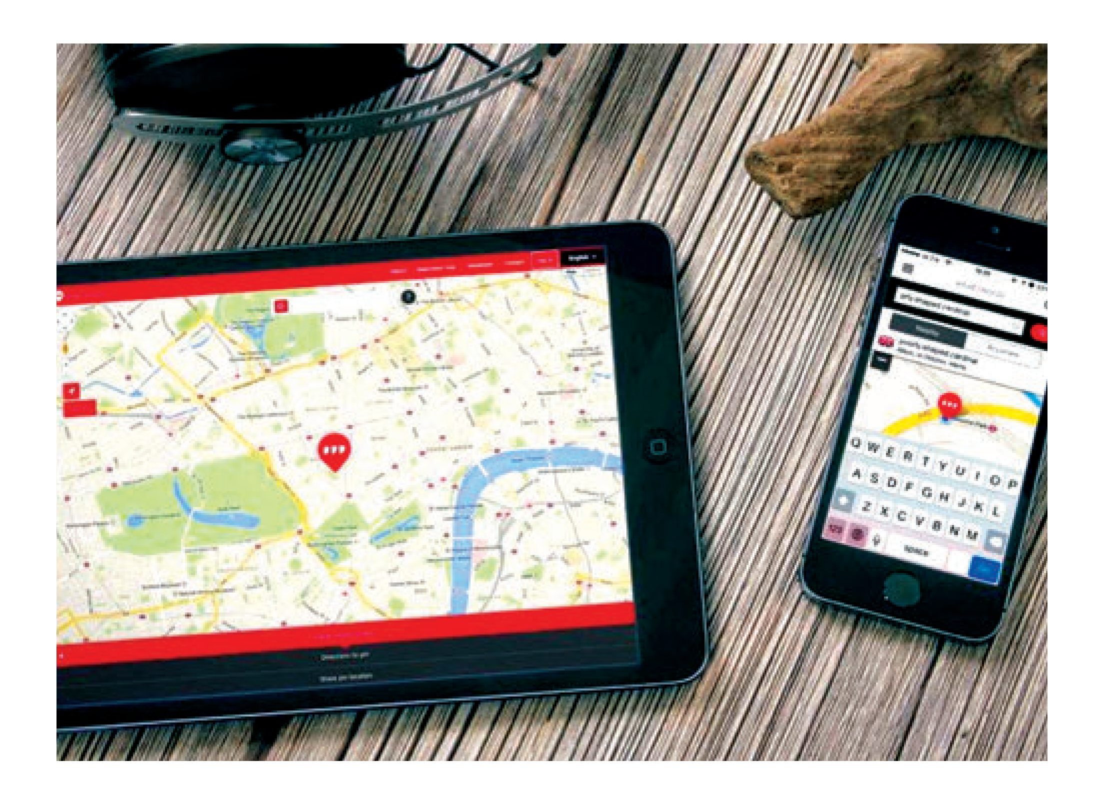
الطابق الذي توجد فيه الشقة أو المكتب مثلاً. بيد أن غيلز رايس مدير إدارة التسويق الخاصة بخرائط الكلمات الثلاث وتطبيق What3Words يرى أنه يمكن التغلب على هذا النقص بكتابة اسم الطابق أو الدور بجانب الكلمات الثلاث الخاصة بكل الموقع، موضحاً أنهم بصدد تطوير التطبيق ومحاولة إيجاد حل لهذه المشكلة.

لكن وبغض النظر عن هذا العيب، فإن نجاعة الفكرة وسهولة تطبيق واستخدام خرائط الكلمات الثلاث يمكن أن تحدثا نقلة حقيقية في تحديد المواقع والعناوين، ذلك أنها تقدم مفهوماً جديداً لمعنى الترميز الجغرافي وعناوين الأماكن.

أهمية التطبيق وآفاق الاستخدام

لا تقتصر أهمية نظام العنونة بالكلمات الثلاث على مجرد تسهيل عملية التعرف على العنوان أو مشاركته مع الآخرين، بل هناك مزايا كبيرة وأوجه عديدة للاستفادة من هذا النظام في أكثر من مجال عمل وتطبيق آخر، لاسيما في ظل رداءة نظام العنونة الحالي في أكثر من 135 دولة عبر العالم، وافتقار مناطق كثيرة، خاصة العشوائيات والقرى الصغيرة والمناطق النائية، إلى نظام عنونة ثابت. لذا يمكن أن يؤدي استخدام هذا النظام إلى اختصار الوقت والجهد، وذلك عن طريق تيسير عملية الوصول للمدارس أو التجمعات السكنية أو آبار المياه أو المقاصد الأخرى التي توجد في مثل هذه المناطق.

كما يمكن أن يسهل النظام لشركات الشحن وغيرها من شركات الخدمات مهمة تسليم الطلبات لأي عنوان في أقصر وقت، حيث تقدر شركة الشحن العملاقة (UPS) على سبيل المثال، بأن توفير كل سائق توصيل لديها لميل واحد، يمكن أن يوفر على الشركة 50 مليون دولار سنوياً. والأمر نفسه ينطبق على عمل منظمات الإغاثة وعون اللاجئين،



حيث يصعب عادة الوصول إلى معسكرات اللاجئين وإيصال الإعانات لمستحقيها، بسبب تجمعهم ووجودهم في مناطق نائية وبعيدة.

ونظراً لتنامي أهمية تطبيق نظام الخرائط الجديد، فقد أقدم عدد كبير من الشركات التجارية، بل والهيئات المعنية بالإغاثة وتقديم الخدمات والمعلومات المدنية وغيرها، على استخدامه بشكل رسمي وعملي. ومن أبرز تلك الهيئات على سبيل المثال، المتحف البريطاني The British Museum الذي أقدم على استخدام تطبيق خرائط الكلمات الثلاث من أجل تسجيل مواقع وبيانات القطع الأثرية التي جرى العثور عليها، وعددها يصل إلى مليون قطعة.

كما اعتمدت هيئة الخرائط النرويجية المعروفة باسم Kartverket أيضاً نظام العنونة الجديد في عملية تسجيل كل ما يخص العقارات الوطنية، وأبرزها بالطبع الموقع والمساحة والمواصفات الداخلية. وعلى الخطى نفسها، فإن تطبيق UN-Asign الخاص بهيئة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة، أدرج نظام خرائط الكلمات الثلاث في عملية التعرف على الأبنية المتضررة والمناطق المعرضة للكوارث أو الأزمات، وهذا من أجل تعزيز قدرة الجهات الأممية المعنية على الاستجابة لعمليات الإغاثة وتقديم العون.

والآن، وبعد كل هذا العرض... لتحكم بنفسك على جدوى النظام الجديد، وهذا من خلال الولوج إلى تطبيق What3Words على هاتفك الذكي أو الخرائط الخاصة به على الويب، ولا تنس الحصول على الكلمات الثلاث الدالة على عنوان سكنك أو عملك، التي يمكن أن تظل قرينة بك طول العمر، وهذا بالطبع إذا لم ترحل عنه أو تنتقل إلى عمل آخر! ■

طفولة قارئة لمجتمع قارئ

محمد شعطيط
كاتب من المغرب

يسَّر اللّه لي وأنا أعد هذا المقال حضور دورة تكوينية لإحدى الجامعات المغربية بشراكة مع إحدى المدارس الأجنبية بالمغرب. تناولت الدورة مجموعة من المواضيع المتعلقة بالإصلاح التعليمي الذي تعرفه البلاد. وكان ضمن هذه الورشات ورشة تتعلق ببيداغوجيا المشروع. وكان من بين أهم المشاريع التي اقترحها المؤطر القادم من هناك، من البلاد الأوربية: القراءة الممتعة، أو متعة القراءة.

تتمحور الفكرة حول قراءة قصص مختارة بعناية للتلميذ في نهاية الحصة الدراسية حتى تنمو علاقة صداقة ومحبة بين المتعلم والكتاب، وهذه العلاقة تبدأ في النمو مع الجنين في بطن أمه. فقد أشارت بعض الدراسات إلى أن الجنين في شهره السابع يتعرض لسماع معلومات منظمة تجعل تفتحه الذهني أفضل في المستقبل. ولذلك تجد النساء الحاملات في الغرب - كندا مثلاً - يقرأن لأطفالهن الأجنة بصوت مرتفع.

لقد آن الأوان لتصبح القراءة جزءاً من تربية وثقافة المجتمع. «إن الأطفال الذين يقرأون في البلاد المتقدمة ليس لأنهم يعرفون فضل العلم ودوره في الحياة، ولكن لأن الكبار يقرأون، وحين يقرأ الكبار والصغار فهذا يعني أن ممارسة القراءة صارت جزءاً من ثقافة المجتمع».

فهل من سبيل لجعل الطفل يتخذ الكتاب خير جليس في الأنام؟ وهل من دور للأسرة والمدرسة والمجتمع في هذا المجال؟

أهمية القراءة

لا يخفى على أحد ما للقراءة من أهمية، وجميع أفراد المجتمع لا ينكرون أهمية القراءة. وإذا كان لابد من كلمات في هذا المجال، فيمكن القول إن القراءة تعمل على:

- تنمية المعارف والخبرات ونقل القيم والأخلاق.
- تبعث في نفوس الأطفال الطموحات العالية وتجعلهم يحلمون بالأحلام الكبيرة.
- أشارت دراسة أسترالية حديثة إلى أن القراءة بصوت عالٍ تعد من الأنشطة الذهنية التي تغذي عقل الطفل، وتؤثر تأثيراً قوياً في تنمية مهاراته الإدراكية وتنمي التفكير الإيجابي لديه. كما تحفز الأطفال على الدراسة وترسخ

فيهم حب التعلُّم. وهذا غيض من فيض، فكل ما بلغته البشرية من تقدم معرفي وتقني إنما كان بفضل القراءة، وبالقراءة فقط، فالأمة التي لا تقرأ أمة على هامش التاريخ.

دور الأسرة

من الأسرة تبدأ الخطوات الأولى للقراءة، ففي دراسة أجرتها دراكن عام 1966 استمرت 6 سنوات لتتبع أثر قراءة الطفل منذ سن مبكرة -حوالي الثالثة من عمره - ومدى تطورها لديه، كان من بين أهم نتائجها أن الأطفال يستطيعون أن يقرأوا قبل دخولهم الصف الأول الابتدائي وقبل أن يتلقوا أي تعليم رسمي للقراءة إذا توافر جو أسري. ويقول الباحثان بوتلر وكلاي Butler and Clay 1982: إن هناك كماً هائلاً من البحوث العلمية التي تدعم وجهة النظر القائلة إن اتصال الطفل بالكتب والمواد المطبوعة في البيت قبل التحاقه بالمدرسة له تأثير كبير على نموه المعرفي بعد التحاقه بها. أما كراشن KRACHN 1993 فقد أشار إلى أن عدداً من البحوث يدعم وجهة النظر التي تشير إلى أنه عندما تتوافر الكتب وتتم إتاحتها للقراءة، وعندما تكون البيئة المنزلية ثرية بالمطبوعات بأشكالها المختلفة، فإن إقبال الأطفال على القراءة سيحدث بشكل أكبر واتجاهاتهم الإيجابية نحو القراءة ستنمو بشكل أفضل.

كما تشير الأبحاث إلى أن الأطفال الذين يقرأ لهم أهلهم باستمرار أو أفراد آخرون موجودون في المنزل يصبحون قراءً في وقت مبكر ويظهرون ميلاً طبيعياً للكتب. فالتعليم الأسري له دور كبير في التنشئة على استراتيجيات القراءة. وفي استطلاع للرابطة الأمريكية لمجالس الآباء تبين أن 82 في المائة من الأطفال الذين لا يحبون القراءة لم يحظوا بتشجيع آبائهم وأمهاتهم.

اقتراحات عملية

بعد هذا العرض النظري، نورد هنا مجموعة من الاقتراحات العملية لتحفيز الأطفال على القراءة:

- تخصيص مكان للقراءة في المنزل يكون مضاء بشكل جيد، فيه كراس مريحة ورفوف مرتبة بعناية. مع اعتياد رؤية الأطفال لآبائهم وهم يقرأون. وتهيئة المناخ المنزلي الذي يحيط بالطفل ويحمل رسائل واضحة ومحددة عن قيمة القراءة.

- مشاركة الأطفال لوالديهم في كتابة الرسائل والخطابات وقائمة المشتريات، كما أن كتابة أسماء الأطفال على ممتلكاتهم من غرفة وكتاب وحاسوب وغيرها تسهم في تركيز انتباه الطفل على الشيء المكتوب.

- شراء كتب من مختلف الأحجام مناسبة لشتى أعمار الأطفال ووضعها في جناح خاص في خزانة البيت، يعينان على ربط الأطفال مباشرة بالكتب.

- تأليف كتاب صغير بمعية الأبناء من صور مختلفة وقصاصات وألوان مما يعطي للطفل شعوراً بالفخر والاعتزاز لأنه ملك له ومؤلفه الخاص.

- القراءة للطفل بصوت معبر ومؤثر ومثير بطريقة تربوية وجذابة والتحاور معه ودفعه لإبداء رأيه وعواطفه ومشاعره وانفعالاته فتعلم القراءة يبدأ من الأذن: «الإدراك الصوتي».

- ترك الطفل يختار كتبه المفضلة مع توجيه لطيف ما أمكن، وتحفيزه على اختيار الرفيق قبل الطريق فالصديق القارئ يشجع القراءة وقديماً قيل: «الطباع تسرق الطباع، والصاحب ساحب».

- إشراك الأبناء في نوادي الكتب والمكتبات العامة والأندية الثقافية والجمعيات المعنية بنشر ثقافة القراءة والكتاب. والاشتراك في بعض المجلات التربوية الموجهة للأطفال باسم الطفل المشترك حتى يشعر بقيمته ومكانته.

- تضمين الهدايا المقدمة للأطفال في المناسبات الخاصة والعامة بعض الكتب حسب الأعمار والاهتمامات.



– اصطحاب بعض الكتب والقصص المشوقة أثناء السفر والرحلات الطبيعية مع ترك الوقت الكافي للأطفال للعب والاستمتاع بجمال الطبيعة حتى لا ينقلب حب الكتاب إلى بغض.

– تعويد الطفل على مشاهدة الكتب، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب كما يقال، وإعادة ترتيب المكتبة بين الفينة والأخرى وتزيينها بالورد وصور بعض الشخصيات الكرتونية الهادفة ووضع بعض اللعب الجميلة على رفوفها، ولا تخفى الغاية من ذلك.

– تأسيس نادي القراءة في المنزل، واستقبال أصدقاء الطفل لحصص خاصة بالقراءة يمكن أن تسبقها أو تتلوها حصة للعب لتشويق الأطفال وتحفيزهم.

– بدلاً من حكاية قصة بطريقة شفهية يستحسن قراءتها من الكتاب حتى يستأنس الطفل بالكتاب أولا ويتعود عليه، ثم ليعرف ثانياً أن ما يستمتع به من أحداث وقصص منبعها هذه الوريقات التي أمامه فتنتج بذلك صداقة خاصة بطريقة ضمنية بين الطفل والكتاب.

– اختيار الكتب المناسبة لعمر الطفل، ذات اللغة الراقية غير الصعبة، والعبارات الجميلة والقصص الجذابة المشوقة للخيال والمثيرة للتفكير، وقراءتها بصوت معبر جميل، ومشوق في جلسات عائلية، أو في نزهة أو قرب المدفأة في ليلة ممطرة، مع تجنب القصص المغرقة في الخيال، أو المخيفة والمرعبة، التي تروج لبعض الأساطير التي تملأ قلوب الأطفال رعباً.

– اختيار القصص المرحة والمضحكة، فالمرح هو قوت الروح، والطفل يشعر بالامتنان لمن يضحكه، إضافة إلى تقديم بعض الحلوى أثناء القراءة وزيارات المكتبات.

– إذا احتاج الأبوان إلى القراءة للطفل من الحاسوب أو القارئ اللوحي أو الهاتف الذكي، فليكن ذلك لوقت محدد ودون إفراط حتى يأمن الطفل من أضرار استخدام هذه الأجهزة التي تحذر الأبحاث من المبالغة في استعمالها يوما بعد يوم. ويشير المفكر د.عبدالكريم بكار إلى أن تحديد وقت مشاهدة الأطفال للتلفاز وبرامج الألعاب يجعل الطفل يفر من الفراغ الذي يواجهه إلى القراءة والكتاب والرسم.

– جلسات التسميع والقراءة يجب أن تحافظ على عاملي التشويق والإثارة وتبتعد عن الرتابة والملل مع تنويع النصوص القرائية ومواضيع الكتب بين شتى العلوم الإنسانية من قصص وحكايات وأدب وعلوم، مراعاة لسن الأطفال واهتماماتهم.

– يحدد الخبراء أهمية تحديث مكتبة الطفل بالكتب، ويحددون عدداً معيناً منها حسب السن: فالدراسات تحدد 5 إلى 8 كتب للأطفال من 3 إلى 4 سنوات.

دور المدرسة

لا يخفى ما للمدرسة من دور فاعل في تشجيع الأطفال على القراءة وتحفيزهم على الاهتمام بها. ولا شك أن دورها متمم لدور الأسرة ومصاحب له. وبالتفاعل بين هاتين المؤسستين والتنسيق نحصل على مخرجات فاعلة وجيدة، وذلك من خلال:

– تشجيع الطفل على تبادل القصص مع أصدقائه مع عرض درامي لمضمون القصة في نهاية الفصل ما أمكن.

– التواصل مع الطاقم الإداري والتربوي للمؤسسة لتقديم مجموعة من الكتب والقصص المناسبة لمكتبة القسم أو المدرسة، وتخصيص مكافآت مشجعة للأطفال الذين يقضون أوقات فراغهم في المكتبة المدرسية.

– الاهتمام بالمكتبة المدرسية نظافة وترتيباً وجمالاً حتى تكون ملاذاً وراحة ومتعة للطفل كما أطلق عليها في بعض الدول كالسويد والدنمارك «غرفة الراحة والمتعة».

– إحياء دور المكتبات المتنقلة خصوصا في البوادي والأماكن البعيدة عن المدن. وفي إحدى المؤسسات مع الأسف هدية من إحدى الدول الغربية وهي عبارة عن مكتبة متنقلة لكنها معطلة عن العمل. فما جدوى الشكوى من قلة

القراءة ونحن نعطل الإمكانات المتاحة؟
- مناقشة التلاميذ في ما قرأوه في الأسبوع أو خلال فترة زمنية معينة وتجاذب أطراف الحديث معهم، ودفعهم لإبداء آرائهم وتحديد بعض الفوائد التربوية، ومكافأتهم بعد كل إنجاز قرائي.
- توفير الكتاب الممتع المشوق. يقول أحد الناشرين: «كما أن الطفل لا يركض ويلعب من أجل تقوية عضلاته وإنما من أجل المتعة، فهو كذلك لا يقرأ من أجل الفائدة وإنما من أجل التسلية والمتعة». ومن هنا كانت أهمية توفير الكتاب الممتع.

دور المجتمع الرسمي والمدني ووسائل الإعلام

كلما تضافرت الجهود وتكاثفت استطاعت تجاوز العقبات. ومشكلة القراءة مشكلة مركبة فهي - كما يقول أحد المفكرين - تقتضي حلولاً مركبة. فاستنفار جميع الطاقات والفعاليات والكفاءات من شتى المجالات الرسمية والشعبية كفيل بإعادة مجد القراءة وثقافة البحث. ومن هذه الاقتراحات في هذا المجال:
- محاربة الأمية على الصعيدين الرسمي والأهلي (الشعبي) وتشجيع الجمعيات والمؤسسات الناشطة في هذا المجال.
- وضع ملصقات وصور وإعلانات تشجع على القراءة في مداخل المدن والمتنزهات والحدائق العمومية.
- عقد شراكات بين الدولة ممثلة في وزارة الثقافة والوزارات المعنية والجمعيات والأندية الثقافية لتقديم تخفيضات مناسبة للأطفال الذين يشترون الكتب بحيث تزداد نسبة التخفيض كلما اشترى الطفل كتاباً.
- في بعض الدول العربية هناك برامج موجهة للكبار بعنوان «كتاب قرأته»، يتم الحديث فيها مع المستجوب عن آخر كتاب قرأه فحبّذا لو يتم إنتاج حلقات خاصة بالأطفال أو وضع برنامج خاص بهذه الفئة العمرية.
- توفير كتب للمكفوفين بطريقة «برايل» وتعميمها على المكتبات العامة حتى يتسنى لهذه الفئة ولوج المكتبات والانتفاع منها.
- الاهتمام بالوظائف المتعلقة بالعلم والمعرفة وإمدادها بالإمكانات اللازمة لتأدية وظائفها حتى يهتم المجتمع بالقراءة والعلم.

ففي أوربا مثلا 40 في المائة من الوظائف على صلة بالعلم والبحث مما يجعل القراءة لدى الذين يشغلون تلك الوظائف جزءاً من سلوكهم اليومي.

وأخيراً نختم هذا المقال بهذه الأبيات الجميلة لشاعر إنجليزي من قصيدته «الأم القارئة»:

قد تكون لديك ثروة حقيقية مخفاة
علب جواهر وصناديق ذهب
لكنك لن تكون أبداً أغنى مني
لأن لي أماً تعلمني وتقرأ لي ■

طرائف عربية

موعوظ

قال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك.

مواجهة العدوانيّـة

د. كريستين نصار
أكاديمية من لبنان

حياة الإنسان مليئة بالصراعات (الكبرى والصغرى)، بعمليّات التنافس، بالوضعيات العدائيّة (المباشرة وغير المباشرة)، من شأنها، على الأقل، تشويه واقعه اليومي؛ وضمن هذا الإطار، هناك بعض المهن، ذات العلاقة التفاعليّة مع الآخرين، بشكل خاص، تعرّض أكثر من غيرها للسلوكيات العدوانيّة. لكنّ العدوانيّة ليست أمراً محتّماً (أي لا مفر منه)، إذ بإمكان الإنسان مواجهتها وإخمادها شرط توافر أدوات جيّدة لديه.

أكثر من ذلك نقول: يملك الإنسان، حين يواجه بشكل منتظم وضعيات عدوانيّة - صراعيّة في حياته (المهنيّة بوجه خاص)، صراعات كامنة أو مُعبّراً عنها (بين زملاء العمل، مع المسؤولين، استقبال جمهور عدواني... مثلاً)، عديداً من التقنيّات (الحلول) التي تساعده على مواجهة هذه الوضعيّات وحل الإشكاليّات الناجمة عنها؛ هذه الحلول هي قيّمة، أيضاً، على مستوى: الصراعات اليوميّة، العلاقات العائليّة، بين الأصدقاء، مع الجيران (الفنّيات التي سيتم عرضها تمّ تطبيقها ضمن إطار مختلف أنواع الوضعيات).

لكن، ليتمكّن الفرد من مواجهة الوضعيات العدائيّة، لا بد له من تأمين بعض المتطلّبات، مثل:

- فهم الوضعيّة (فهم أوليات نشوء الصراع وتداعي العلاقات بينه وبين من يناصبه العداء).
- إيجاد وسائل تمكّنه من إدارة الوضعيّة (أي من إجراء تواصل جيّد مع الآخرين). والمعلوم أنّ توافر ذلك يتطلّب، على الأقل، حدّاً أدنى من التدرّب عليها كي يتمكّن من استخدامها.
- هناك حلول تبدو أكثر تلاؤماً وإفادة من غيرها لإدارة هذا النوع أو ذاك من الوضعيّات الصراعيّة... إلخ.

وبما أنّ الناس غير متشابهين في مواجهة الصراع، فلا بد للفرد إذن من التعرّف على موقفه الفطري وعلى مواقف الآخرين؛ هذا، وبإمكانه، لدى مواجهته لوضعيّة خلافيّة معيّنة، تبنّي أحد أربعة مواقف أساسيّة: الهروب، المحاربة، التلاعب، تأكيد الذات. ولكلٍّ من هذه المواقف مظاهر إيجابيّة أو سلبيّة في وضعيّات معيّنة: على سبيل المثال، يبدو أنّ مواقف الهروب، المحاربة والتلاعب ترتبط بالدماغ البدائي le cerveau reptilien، حيث كان على الإنسان البدائي القيام بمواجهة فيزيقيّة لهجوم الحيوانات البرّية عليه، في حين يرتبط تأكيد الذات بدماغه العقلاني le néo-cortex، وهو موقف يتم تعلّمه؛ وبالتالي، يفرض التساؤل التالي نفسه: بين المحاربة، تأكيد الذات، الهروب



والتلاعب، كيف يستجيب الفرد للعدوانيّة؟

قبل الإجابة عن هذا التساؤل، لا بدّ من التنويه إلى اختلاف المخاطر التي يلتقيها إنسان اليوم عن تلك التي كان يلتقيها في بدايات تطوّره البشري، فهي، اليوم نفسيّة أكثر منها فيزيقيّة؛ يضاف إلى ذلك، ارتباط اختيار الفرد لأحد المواقف المذكورة أعلاه بطبيعة العلاقة القائمة بينه وبين الآخر وبميوله الفطريّة، حيث يبدو هذا الموقف أو ذاك أكثر تلاؤماً مع الوضعيّة المحيطة بالفرد ومع فرادته الشخصيّة. لكن هناك، بشكل عام، إطارين أساسيّين: إطار عقلاني تأكيديّ يرتبط بالنضج الواعي لدى الإنسان الذي يلجأ إليه بشكل واع ويتلاءم عموماً مع موقف تأكيد الذات كاستجابة، وإطار فطري يفرض نفسه عليه أحياناً في وضعيّات معيّنة، حين يحس بخطر أو بحالة إجهاد وضغط مثلاً.

ثمّ إنّ الاتّصال مع الواقع ومع الآخر لا يكون مباشراً، بل يتم ضبطه من قِبَل الفرد عبر مصاف ثلاث:

- مصاف عصبيّة filtres neurologiques هي الحواس الخمس، يحدّد الجهاز الحاسّي ما يمكن للإنسان إدراكه.

- مصاف ثقافيّة filtres culturels تشكّل انتماء الفرد إلى ثقافة وبلد معيّنين ورؤيته للعالم، فمثلاً، خفض النظر دلالة احترام في ثقافتنا الشرقيّة لكنّه دلالة على الخبث في الثقافة الأوربيّة، وللبيئة العائليّة الأساسيّة، هي أيضاً، دورها في بناء الفرد لرؤيته بخصوص العالم... إلخ.

- مصاف شخصيّة filtres personnels، هي المعتقدات التي طوّرها الفرد انطلاقاً من خبراته وتجاربه، حيث يستخلص عموماً قواعد واستنتاجات سلوكيّة تبعاً لطريقته الشخصيّة في تجاوز الوضعيّات، ويميل عموماً لإسقاط نموذجه الخاص بالعالم على الآخرين.

بالعودة إلى العدوانيّة وكيفيّة مواجهتها، نعيد القول بأنّ هناك عديداً من الطرق والتقنيات (الحلول) العلاجيّة؛ وسنعرض في ما يلي بانوراما للوسائل الفعّالة المتوافرة بمتناول الجميع كي لا يكونوا لعبة لعدوانيّة هذا أو ذاك، أو للتنكيد المنحرف من قِبَل الآخر، وسائل أو فنّيات مأخوذة من الالتماسات العلاجيّة الأكثر إنجازاً وفعاليّة والموجودة حاليّاً: إنّها سهلة التطبيق، وطبعاً يختلف استخدامها تبعاً لحاجة الفرد وشخصيته والوضعيّة التي يوجد بها ضمن إطارها. يضاف إلى ذلك، وجود قاسم مشترك يرتبط بتنمية التواصل الذي يرتكز، بشكل خاص، على: تأكيد الذات l'assertivité، الصدق/الأصالة l'authenticité، الحنو l'empathie واحترام حاجات كل فرد le respect des besoins de chacun.

لا بد من التنويه هنا إلى أنّ العدوانية والعنف قد يكونان السبب في نشوء عديد من الاضطرابات النفسيّة المختلفة، كالاكتئاب والقلق واضطراب ما بعد الصدمة والإدمان... إلخ، أو كنتاج لها؛ كما قد يكونان استجابة طبيعية عند بعض الأفراد، وتُلاحَظ بكثرة تحت شكل غضب وصراخ... إلخ. لذا، لتحقيق العلاج، لابد من أخذ كل ذلك بالاعتبار، حيث للتشخيص النفسي le psychodiagnostic دور أساسي في توضيح واقع الحال: من هو المعتدي أو المعتدى عليه؟ ما أنماط العدوان التي يتم تنشيطها (تفعيلها)؟ ما موضوع العدوان؟ ما هو الاضطراب الكامن وراءه؟ ما درجة الوعي؟ ما المظاهر التفاعليّة المميِّزة للانتقال إلى الاعتداء الفعلي le passage à l'acte ؟ لأي إطار يمكن إعادة العدوانيّة؟ ما العلاج المناسب؟ ... إلخ.

لنتذكّر دائماً أننا «لا نعالِج أعمال عنف» des violences أو حتى «أشخاصاً عنيفين» des violents بل نعالج أفراداً يتميّزون بتاريخ شخصي فريد من نوعه؛ يُستثنى من هذه الملاحظة النرجسي المنحرف le pervers narcissique ذو النمط الخاص على مستوى التواصل، إذ إنّه لا يعتبر الآخر شخصاً بل شيئاً يحق له السيطرة عليه، كما يحق له التلاعب بالوقائع وبمشاعر هذا الآخر كضحية يعمل على تجريدها من صفاتها كشخص؛ وهو مسؤول عن عديد من الانتهاكات بحق الآخرين بحيث يكون الصراع معه أمراً محتّماً. لذا، لا بد للضحيّة من التواصل معه

لحماية نفسها منه وعليها معرفة كيفيّة التعامل معه ومعرفة أيّ فنّيات يصلح استخدامها: عليها، مثلاً، أن تتجنّب البحث عن أنّها على حق ضدّه أو إقناعه بوجهة نظرها حول الوضعية أو محاولة تبديد عدوانيته عبر إرضائه أو تبرير نفسها، إذ من شأن كل ذلك زيادة متطلباته أكثر فأكثر... إلخ.

وبما أنّ الهدف من تواصل الضحية معه كمنحرف يقتصر على حماية نفسها منه لا ربح المعركة ضدّه، يكمن الموقف الأهم الذي بإمكانها تبنّيه إذن في توكيد الذات كاستراتيجية أساسيّة يتم تدعيمها بالمحافظة على هدوء الأعصاب وضبط الذات في عمليّة التفاعل معه، عدم الاعتراض على الحجج التي يعطيها خلال النقاش، لأنّه مستعد على فعل أي شيء كي يربح، خفض المعلومات التي تكشف عن حياتها الشخصية قدر الإمكان، عدم فقدان رباطة جأشها بمواجهة تحدياته (تحريضاته) مهما كثرت، قول كلا نافية حاسمة بالنسبة للأشياء الشخصية التي يتعرّض لها هذا النرجسي أو بالنسبة لإهاناته التي قد تشوّه كرامتها، عدم إظهار تأثّرها بأيّ ملاحظة يبديها، استخدام أدوات ما يسمّى «الإصغاء الناشط» مثل: الجمل النموذجية les tampons أي استخدام جمل صغيرة كـ «أنت على حق» «هذا رأيك»، «أفهم»... إلخ، ذات مفعول مماثل لمفعول ورق النشّاف وتهدف لإزالة العدوانيّة، البرج العاجي la tour d'ivoire أي التظاهر بعدم سماع الانتقاد، مع وضع محدّد للجسم ووجه عصيّ على الفهم إذ يصعب فك رموزه الانفعالية، كسر المزامنة la désynchronisation، تغيير نبرة الصوت أو موضوع النقاش أو طريقة الوقوف أو، حتى، ترك المكان إذا بلغ النقاش حدود الانتقاد والتحقير... إلخ. وللحصول على معلومات دقيقة أو إثباتات معينة، يمكن استخدام التساؤل التوضيحي le questionnement clarificatoire، دفع المخاطب لتحديد ما يريد قوله وتوضيح فكرته، الأمر الذي قد يكون في غاية الأهميّة لتبديد عديد من حالات سوء التفاهم بين المتخاطبين، مثال «حين تقول إنّ الجميع لديهم مآخذ عليك، من تقصد بالتحديد؟»، حيث ينبغي تجنّب استخدام السؤال «لماذا»... إلخ.

تجدر الإشارة إلى أنّ الأدوات المذكورة أعلاه (الجمل النموذجية، البرج العاجي، كسر المزامنة ... إلخ) هي جزء من الفنّيات التي تدخل ضمن إطار ما يسمّى بـ «تقنيات تأكيد الذات» techniques d'affirmation de soi؛ وهي بمنزلة وسائل مباشرة تساعد على:

1 - إدارة العدوانيّة gérer l'agressivité (أو العنف) لدى المخاطِب ولحماية الفرد نفسه حين يكون ضمن جمهور عدائي ينتهك إحدى أو عدداً من القيم المهمّة بالنسبة له، كانتهاك المدى الحيوي l'espace vital الخاص به كفرد أو الكشف عن أسراره أو عدم المحافظة على المسافة الاجتماعية التي يجب الإبقاء عليها بين الأفراد أو إظهار الاحتقار له أو إنكار هويّته أو خرق راحته الشخصيّة... إلخ. هذه الوسائل متنوّعة ومتعدّدة، منها ما يُستخدَم لاستباق العدوانيّة prévenir l'agressivité مثل:

- التساؤل le questionnement ويتضمّن:

● التساؤل الاستكشافي le questionnement exploratoire، حيث يتم استخدام أسئلة مفتوحة تبدأ بظرف adverbe: لمَ، كيف، ماذا؟ أسئلة مغلقة تبدأ بفعل وتثير إجابة: نعم أو كلا؛ لا يُنصَح باستخدام أسئلة موجّهة تحتوي على الإجابة التي نود سماعها «ألا تعتقد بأنّ...؟»، «لمَ لا تفعل...؟»، لأنّه تلاعبي جدّاً؛ فبمواجهة مخاطِب عدواني، من المفضّل اللجوء إلى الأسئلة المفتوحة تجنّباً لإذكاء عدوانيته عبر طرح أسئلة مغلقة حمقاء ولجذب اهتمام الدماغ العقلاني le néo-cortex لديه بدلاً من الدماغ البدائي le cerveau reptilien.

● التساؤل التوضيحي (سبق التركيز عليه أعلاه).

- إعادة الصياغة la reformulation (هي أداة جوهريّة في التواصل): يتعلّق الأمر بإعادة ما قاله المخاطِب بشكل موجز وباستخدام كلماته؛ يمكن التمهيد لها باستخدام العبارات

التالية «إن فهمت جيّداً....» أو «إذاً، تود قول....» أو «لتلخيص....» أو «لأتأكّد من أنني فهمت جيّداً....». من حسنات إعادة الصياغة هذه أنّها تُشعِر المخاطَب بأننا نصغي إليه، نهتم به ونفهمه، كما تساعد على تأمين مزيد من المعلومات حوله... إلخ.

– الحد الأدنى من الاستجابة les relances: هو استجابات بسيطة (إشارات صغيرة: لفظية أو غير لفظية) تترجم اهتمامنا بما يقوله أو يفعله الآخر ودعوته للاستمرار في التعبير كـ «هز الرأس»، «تكرار كلمة قالها الفرد»، محاكيات صوتيّة onomatopées (هم hum، نعم oui...)، ابتسامة، نظرة تساؤل... إلخ.

– التزامن la synchronisation: ويعني نقل تفهّمنا للمخاطَب عن طريق القيام بانعكاس لسلوكه ولرؤيته للعالم؛ ومن شأن ذلك تعميقُ العلاقة معه.

قد يتم ذلك بشكل لفظي كاستخدام تعابير مثل «يبدو لي أنّك غاضباً من والدك في هذا الموقف..» أو «معنى ذلك أنّك كنت متضايقاً لمقابلتك هذا الشخص» أو يتم بإعادة الصياغة؛ وقد يتم بشكل غير لفظي (استخدام وضع محدّد للجسم posture مثلاً أو إظهار تعبيرات في الوجه أو إشارات gestes معيّنة ذات معنى...).

2 – تحييد العدوانيّة أو إزالة تهديدها لحماية الذات désamorcer l'agressivité et se protéger: لابد من التمييز بين العدوانيّة l'agressivité، فمهما تدنّى مستوى الاتّصال ضمن إطارها، تبقى العلاقة قائمة، والعنف la violence الذي يهدف لجرح الآخر، بل لتحطيمه، حيث يكون هذا الآخر عبارة عن شيء لإطلاق الشخص العنيف مكبوتاته ضدّه. حين يرتفع الصوت، يتعلّق الأمر بالبقاء ضمن إطار العلاقة، وما أمكن إعادة الحوار والتوازن إليها. ولتأمين ذلك، هناك مبادئ عدّة ينبغي احترامها:

– التركيز على الآخر، على دوافعه، على حاجاته... إلخ.

– فهم القيمة la valeur التي تمّ اغتصابها وهي سبب العدوانيّة، بدلاً من محاولة إظهار وجهة نظرنا.

– تبنّي موقف توكيدي بدلاً من تبنّي موقف صراعي قد يثير الانزلاق نحو العدوانيّة.

– محاولة إيجاد حلول مع الآخر بدلاً من تبرير الذات.

– حتى إن بدا الآخر مخطئاً بالظهور تحت شكل عدواني، من المهم إظهار احترامنا له.

باختصار نقول، لتجنّب الانزلاق باتّجاه العنف، من المناسب التركيز على المخاطِب بدلاً من القيام برد فعل مشابه للطريقة التي يحدّثنا بها؛ ومن ثمّ، يُفضّل تبنّي موقف توكيدي للبحث مع الآخر عن حلول. ومن المهم، أيضاً، إظهار أنّنا نصغي إليه ونفهمه، وإظهار الاحترام له.

3 – استعادة الأنفاس بعد التعرّض للعدوانيّة: من المهم جدّاً هنا إعطاء الذات فترة استراحة (10 دقائق)، ثمّ تصوّر مكان آمن (مكان طبيعي أو خيالي يثير مشاعر الارتياح والطمأنينة بداخلنا).

ومن المهم، أيضاً، استعراض الفرد للعناصر المرئيّة visuels (أي ما يراه)، السمعية auditifs (ما يسمعه)، الأحاسيس الحركيّة kinesthésiques، الشمّية olfactifs... إلخ، في أثناء تركيزه على مشاعر الاستجمام détente ورغد العيش التي يحس بها.

وهناك، إلى جانب التقنيات المذكورة أعلاه، عدد آخر من التقنيات الشديدة الفعالية في علاج السلوك العدواني، سنكتفي بذكر عدد معيّن منها فحسب كمثال من شأنه المساعدة على تكوين فكرة واضحة بخصوص التقنيات التي لم يتم ذكرها (وهي عديدة جدّاً):

– الاسترخاء la relaxation: لتهدئة الذات، إذ يستحيل الإحساس بالقلق والاسترخاء في الوقت نفسه؛ ويمكننا، بالتالي، محاربة القلق بكل بساطة عن طريق الاسترخاء. وهو مفيد جدّاً للشخص حين يود خفض توتّره لدى مواجهة وضعيات عدائيّة، وهو على أنواع متعدّدة يمكن للفرد اختيار ما يناسبه منها.

– توكيد الذات التعاطفي l'affirmation de

soi empathique: يكمن أساساً في الإصغاء، وهو ليس بالأمر السهل، إذ يُقصَد هنا الإصغاء إلى ما يقوله الآخر الذي قد يكون على حق، مع أسبقية الشك الإيجابي بخصوصه كمخاطب؛ مع وضع النفس مكان الآخر لتفهّم وضعه بشكل جيّد، حيث تساعد تمارين الاسترخاء على تهدئة الانفعال.

- الأسطوانة المشروخة le disque rayé: معرفة المثابرة على التعبير عن فكرة أو عن شعور أو عن حاجة معيّنة مع تجاهل العناصر الثانويّة، عدم التحوّل عن مجرى الحديث وعدم التبرير من جهة، عدم الابتعاد عن النقطة المرغوب بالتعبير عنها، عدم الاسترسال في التفسير مع تجنّب إمكان التلاعب من قِبَل الآخر، من جهة أخرى.

- معرفة إيجاد تسوية savoir trouver un compromis (لا بد أن تختلف آراؤنا وأذواقنا وأفكارنا واهتماماتنا عن آراء وأذواق الآخرين، فتصبح التسوية، عندئذ، حاجة ماسّة وإلا لاستحال العيش المشترك).

- تجريد الذات من الغضب savoir désarmer sa propre colère: هو إجراء صعب، لكن يمكن تحقيقه عبر القيام باسترخاء سريع يُتبَع من ثمّ بتحليل وضعيّة الآخر مع أسبقيّة الشك الإيجابي. ومن الأفضل تأجيل مناقشة معيّنة على القيام بها تحت تأثير الغضب.

- تجريد الآخر من غضبه: بعد تجريد الذات من الغضب، يمتنع الفرد عن مقاطعة المخاطَب وهو في قمّة غضبه؛ وحين يهدأ هذا الأخير يصبح بالإمكان استخدام توكيد الذات التعاطفي معه: القول له، مثلاً، «أنت على حق بأن تغضب» لكن دون سخرية أو لهجة عدائية؛ الأمر الذي يؤدّي إلى خفض رد الفعل عند هذا الشخص... إلخ.

خلاصة القول، إن السلوك العدواني هو ظاهرة طبيعيّة ترافق الإنسان في جميع مراحل تطوّره، ويمكن تحديده كونه سلوكاً يُحدث أذى للآخر أو للذات؛ وهو شديد التنوّع لدرجة القول، في النهاية، إنّه ليس هناك سوى عدد قليل من السلوكيّات البشريّة التي قد تخلو من العدوان.

إنّه سلوك تختلف مظاهره والتعبير عنه باختلاف عوامل متعدّدة، كالوراثة وأسلوب التنشئة الأسريّة والمستوى الثقافي والاقتصادي والاجتماعي... إلخ، كما يختلف على مستوى الاتّجاه (مُوجّه نحو الذات، نحو الآخرين)، على مستوى الشكل (عدوان مادّي جسدي، عدوان معنوي لفظي... إلخ.

ويمكن، أخيراً، القول بأنّ هذا العدوان ليس كلّه سلبياً، إذ هناك نوع إيجابي قد يتمثّل بالمنافسة ويساهم بإثبات الفرد لشخصيّته، في حين يتمثّل النوع السلبي (وهو المقصود غالباً لدى التحدّث عن السلوك العدواني) بالرغبة في إلحاق الأذى بالآخرين أو بالذات ويُقصَد به التخريب والتدمير.

أخيراً، من غير الممكن تحديد السلوك العدواني دون ذكر التفاعل المعقّد الذي يربط بين: المعتدي والبيئة والضحيّة وطبيعة هذا التفاعل المسؤول عن ديناميّة انتقال الفرد إلى فعل الاعتداء (العنف) le passage à l'acte ■

طرائف عربية

لا يبلغ مكروهاً

كلم معاوية بن أبي سفيان الأحنف بن قيس في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف فقال له معاوية: أبلغني الثقة، فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروها.

برامج تتبنى الفن والموسيقى والدراما للأطفال

فالانتينا ميرا: العلاج بالفنون مهم لذوي الاحتياجات الخاصة في العالم

حوار: إبراهيم فرغلي



لا يزال العلاج بالفنون أو ما يطلق عليه Art Therapy مجالاً جديداً نسبياً في العالم العربي، مقارنة بمدى انتشاره والتوسع في استخدامه في الغرب، ومع ذلك فهناك اليوم تجارب عديدة في عدد من الدول العربية، بينها مصر والبحرين مثلاً، وغيرهما من دول العالم العربي، التي بدأت تهتم بهذا المجال. وهو مجال يختص بعلاج الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة بامتلاك مهارات التعبير عن الذات ومواجهة مشاكل عدم النمو العقلي أو الإصابة بأمراض مزمنة، مثل التوحد على سبيل المثال، وأنواع من متلازمة داون سيندروم وسواها من أوجه الإصابة بأمراض جينية أو وراثية.

الباحثة والفنانة الإيطالية فالانتينا ميرا، واحدة من المهتمات والمختصات بهذا الموضوع، وقد قطعت شوطاً كبيراً في الدراسة الأكاديمية في هذا المجال الذي يجمع بين الدراسة الفنية المتخصصة والتأهيل التعليمي والتربوي، وكذلك في علم النفس والطب، كما أنها قامت بتصميم عدد من البرامج العلاجية بالفنون وقامت بها في كل من البحرين ومصر. وفي هذا الحوار نتعرف على هذا الميدان المهم والجديد في علاج الأطفال وطبيعة هذا التخصص، كما نتعرف على مستقبل هذا النوع من العلاج في العالم العربي في المستقبل القريب، وطبيعة برامج العلاج التي تتم الآن ونجحت في خدمة آلاف الأطفال في المعاهد الطبية وبعض المدارس ودور رعاية الأيتام وغيرها.

● أود أن أبدأ الحوار معك حول طبيعة دراستك وتخصصك في مجال الفنون، وصولاً لبداية الاهتمام بمجال العلاج بالفنون؟

- كان عمري 13 عاماً حين التحقت بمدرسة الفنون بالمعهد العالي للفنون في تشيرينيولا بإيطاليا، وحصلت على دبلوم في الدراسات الفنية من معهد تشيريونيولا، وتخرجت في أكاديمية الفنون لاحقاً في مدينة فودجا، بقسم التصوير، ثم التحقت بالدراسات العليا في قسم تصميم الجرافيك، وكان موضوع الدراسة مشروعاً للرسم للأطفال كعلاج نفسي باستخدام الفنون والفيديو آرت والمسرح.

● متى بدأ اهتمامك فعليا بهذا الشأن؟

- بدأ اهتمامي جدياً بموضوع العلاج بالفن للأطفال منذ العام 2013، وفي العام 2014 أنجزت ورقة بحثية حول الموضوع. وشاركت في مهرجان صيفي لفنون الأطفال في دولة البحرين في العام نفسه تحت رعاية وزارة الثقافة بالبحرين، كما شاركت في مشروعات عدة للعلاج بالفنون في عدد من المدارس الإيطالية.

● هل العلاج بالفنون تخصص علمي؟ وكيف هو وضعه كتخصص في إيطاليا؟ وإلى أي مدى منتشر؟ وهل هناك مؤسسات أكاديمية متخصصة في هذا الأمر؟

- العلاج بالفنون أصبح اليوم موضوعاً علمياً يشترك فيه متخصصون في الفنون وفي علم النفس والطب. وفي السنوات الأخيرة ساعدني شقيقي أنطونيو ميرا في أحد الأبحاث العلمية حول كيفية علاج الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة، وهو ما وفر لي اكتساب الخبرة في التعامل مع الأطفال الذين يعانون مشاكل صحية ونفسية خطيرة ويتم علاجهم في المستشفيات المتخصصة. وفي إيطاليا يوجد عدد من الأكاديميات التي تتضمن أقساماً للعلاج بالفنون، وفيها تتمحور الدراسة حول سبل علاج الأطفال في المستشفيات باستخدام الفنون والألوان وعدد من الدراسات المتخصصة الأخرى المتعلقة بالموضوع.

● كيف يمكن المزج هنا بين مجالين يبدوان بعيدين عن بعضهما البعض نسبياً وهما الفن والطب؟ وما المؤهلات التي ينبغي أن يتمتع بها من يخوض هذه التجربة؟

- بالنسبة لي فإنني متخصصة في علاج الأطفال الذين يعانون صعوبات نفسية وخصوصاً من ذوي الاحتياجات الخاصة. في مشروعاتي العلاجية أستخدم عددا من الوسائل الفنية المختلفة، مثل الرسم، والكتب المصورة باعتبارها من الوسائل المهمة لتطور النمو الذاتي لكل طفل، والمسرح وفن الجرافيك وأخيراً فيديوهات الرسوم المتحركة. وكل مشروع يتم تصميمه وفقاً للظروف الخاصة بكل طفل وطبيعة المشكلات التي يعانيها. وبالنسبة للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة فلكل منهم مشروعات علاج خاصة باستخدام ورش وأدوات تمنح كلاً منهم الفرصة للتعبير عن نفسه.

● لماذا وقع اختيارك على مصر لكي تقومي بالعمل فيها ببرامج علاج الأطفال بالفنون؟

- لم يكن اختياري للعمل في مصر عشوائيا في الحقيقة، فقد أردت أن أسهم في تنفيذ مشروع علاجي للأطفال في هذا البلد الجميل. فقبل سنوات عدة حين كنت في القاهرة، وبالتحديد في منطقة عين شمس في شرق القاهرة، شاهدت عدداً من الأطفال الذين كانوا يلعبون في الشارع. وفي أحد الأيام التقيت بأم لطفلة من ذوي الاحتياجات الخاصة، وصدمني أنها كانت تعتقد أنه لا أمل لطفلتها الصغيرة في الحياة. ومنذ تلك اللحظة أخذت على عاتقي الدراسة بتوسع ومزيد من التخصص في مجال الطفولة، وفي كيفية علاج الأطفال باستخدام الفن، وقد ولد مشروعي للعلاج بالفن بهدف توسيع أفق الأطفال

الذين يحتاجون للمساعدة العلاجية وللآباء والأمهات بشكل خاص، لتأكيد أن أطفالهم لا يحتاجون إلا إلى بعض الدعم العلاجي والتعليمي. وكان تركيزي ينصب على منح مساحة للطفل من خلال الفن: خلال الورش العلاجية للأطفال كنت أسأل الأطفال عن أحلامهم، فكل إنسان يجب أن يكون لديه حلم. أسألهم عما يريدون أن يحققونه في حياتهم، وعما يحبونه بشكل عام. وباستخدام الألوان أو أي أشكال فنية أخرى نقوم بمساعدتهم على رسم ما يحلمون به أو تفسير ما يقومون برسمه.

وقبل أشهر عدة وافقت مكتبة الإسكندرية على دعم مشروع تقدمت به لهم بعنوان «ألعاب خيال الظل»، وهو مشروع يتكون من ثلاث ورش تتم إقامة كل منها في المدارس والمستشفيات ودور الأيتام وغيرها.

● ما أوجه الاختلاف بين أوربا والعالم العربي في حقل العلاج بالفن؟

- توجد في أوربا مراكز متخصصة في متابعة هذا الهدف، بالإضافة إلى مؤسسات أهلية غير حكومية متخصصة في العلاج بالفنون المختلفة، بينها مؤسسات علاج بالموسيقى، ومراكز للعلاج بفن الرقص، وأخرى للعلاج باستخدام الدراما، وكل منها يستخدم أشكالاً عديدة للتعبير، بينها الرسم، وغيره من الوسائل.

أما في ما يتعلق بالعالم العربي، ففي بعض الدول العربية هناك مجموعات من الفنانين الذين يقومون بعمل ورش للعلاج بالفن، لكني لست مطلعة على طبيعة البرامج العلاجية التي يستخدمونها.

والآن توجد في مستشفيات عدة مختصة بعلاج الأطفال أقسام خاصة بالعلاج بالفنون، مثل «مستشفى طنطا لعلاج سرطان الأطفال 57357» أو «مستشفى مجدي يعقوب لعلاج وجراحة القلب» في أسوان.

وبالنسبة لي فإنني أستغل فرصة المحاضرات التي أشارك فيها، وبينها مثلاً محاضرة قدمتها في كلية الفنون الجميلة بجامعة الإسكندرية قبل فترة، حيث أركز دائما على مشاركة خبراتي في مجال العلاج بالفنون، وتوضيح الكيفية التي يسهم بها الفن في علاج الأطفال، كما أؤكد للفنانين وطلبة الفنون أن هذا العمل يحتاج إلى كثير من الدراسة المتخصصة، وكثير من الصبر، ويحتاج إلى طاقة صبر هائلة في الحقيقة. فكل مشروع علاجي يحتاج إلى دراسة الأهداف المتوخاة منه بحرص وتركيز، ومراعاة طبيعة



اللون والشكل والمهارة تعين الطفل على تجاوز الإعاقة



العلاج بالفن يشمل المراحل العمرية كافة

الأطفال الموجه لهم المشروع واحتياجاتهم ومتوسط أعمارهم. فكل مشروع علاجي بالفن لابد أن يتضمن ثلاثة عناصر رئيسة:

- العلاج بالفن.
- الجانب التعليمي في المشروع.
- الجانب الإنساني.

فكل طفل من حقه أن يحصل على وسيلة للعلاج بالفن، وامتلاك أدوات تتيح له التعبير عن نفسه.

وأتمنى أن تقوم الجامعات الأكاديمية في الدول العربية بتبني إنشاء أقسام متخصصة للعلاج بالفن في الكليات المختلفة لإعداد الدارسين والفنانين للحصول على الخبرة في التعامل مع الأطفال المحتاجين للرعاية العلاجية والطبية بهذه الوسائل.

• هل تتوافر لكل طفل يتلقى ورشة علاجية فرصة الحصول على النتائج العلاجية نفسها التي تحقق له الشفاء مما يعانيه أم أنها تختلف من طفل لآخر؟

- البرنامج العلاجي يختلف في الحقيقة باختلاف عمر الطفل، وباختلاف الهدف المحدد من العلاج، كما سبق أن وضحت لك. كما أن درجة إصابة الطفل بالإعاقة الذهنية مثلا قد تحدد طبيعة البرنامج العلاجي الذي يتم تصميمه من أجله، وهكذا. والمهم أن تتوافر في كل برنامج علاجي فرص كبيرة تتيح للطفل المستهدف أن يعبر عن نفسه بشكل جيد فهذه من أهم الأهداف لأنها تيسر علاج المشاكل التي يعانيها. وقد منحتني هذه الخبرات شعوراً عاطفياً قوياً، خصوصا خلال الورش التي يشارك فيها الآباء معنا للتفاعل وفهم طريقة عمل البرنامج العلاجي.

• ما الفئات الاجتماعية الأكثر تقبلاً وتفهماً لهذا النوع من العلاج؟

- خلال عملي في مصر، تعاملت مع أطفال من الطبقات الموسرة، لكني أيضا تعاملت مع الفقراء أكثر بكثير. أذكر أطفالاً لم يكونوا سمعوا أبداً عن «مسرح خيال الظل» مثلاً، أو حتى مسرح العرائس. ولم يكن لديهم في منازلهم ألوان أو حتى أقلام لأنها تعتبر مكلفة بالنسبة لأوضاع أهلهم الاقتصادية. لكن الطيبة



الفنون تفتح الطريق للصحة النفسية

والبساطة اللتين يتمتع بهما هؤلاء الناس كانتا تتضحان من خلال انفعالاتهم ومشاعرهم، في رسومهم، وفي السعادة التي يشعرون بها وهم يرون ابتسامات ذويهم المشجعة وفي محاولاتهم لإسعاد أطفالهم بمشاركتهم التلوين أو اللعب بالدمى والعرائس.

• كيف تتعاملين مع الأطفال العرب خلال البرامج العلاجية؟ وبأي لغة؟

- الحقيقة لغتي العربية ليست جيدة، ولذلك أستخدم الإنجليزية البسيطة، ويقوم فريق رائع من المساعدين والمتطوعين والفنانين بترجمة ما أقول للأطفال، ولكن أهم طريقة للحوار والتفاعل بيني وبين الأطفال هي لغة الفن، وهي لغة عالمية يستطيع الجميع فهمها بسهولة، خصوصاً حين أستخدم الدمى والعرائس، أو الرسم والألوان.

• في تقديرك إذا بدأ الاهتمام العربي أكاديمياً بمثل هذا التخصص، فهل يجب أن يكون تابعاً لكليات الفنون أم يلحق بالكليات الطبية المتخصصة؟

- أعتقد أن أي كلية مختصة بدراسة العلوم الإنسانية والفنون والآداب يجب أن يكون بها قسم متخصص في العلاج بالفنون. الجانب الطبي الأكاديمي مختلف، وأكثر تخصصاً علمياً خصوصاً وفقاً لتشخيص كل مرض.

والهدف النهائي للعلاج بالفن Art Therapy، أن يعمل على اكتشاف الطفل لذاته وقدراته التي قد يكون غير قادر على اكتشافها بنفسه. وذلك من خلال فعاليات النشاط الفنية المختلفة، أما الجانب العلاجي فيتوقف على قدرات ومهارات المتخصصين لقيادة الأطفال في طريق العلاج والتعبير عن ذواتهم.

• كيف ترين مستقبل هذا التخصص في العالم العربي؟

- هناك في الواقع مؤشرات عديدة تدل على ارتفاع الاهتمام بهذه المقاربة العلاجية في العالم العربي، ما يؤكد أنها ستلقى اهتماماً أكبر في السنوات المقبلة. لكن لا بد من التأكيد أن العلاج بالفن يحتاج إلى دراسة مكثفة، وخصوصاً في باب إعداد وتأهيل وتدريب الطلبة والمتطوعين للعمل في هذا المجال، ولعلنا سنشهد في القريب برامج متخصصة لتدريب وتعليم الخبرات الخاصة بالعلاج بالفنون. وهناك حماس متزايد من الجهات المسؤولة في التعليم والحكومات والأطباء والآباء بتبني هذه المسألة واستثمارها في مواجهة المتاعب النفسية والمشكلات الصحية التي يعانيها بعض الأطفال ■

الأدب الروسي



رواية كتبها ميخائيل شولوخوف الذي لم يحصل على شهادة المدرسة الابتدائية، ولكنه رغم ذلك نال جائزة نوبل عام 1965.

أ – الدون الهادئ.

ب- الإخوة كرامازوف.

ج – آنا كارنينا.



رواية كتبها فيودور دوستويفسكي حول موضوع الجريمة وضمير القاتل الذي يفكر في معنى مفهوم العدالة والقانون.

أ- الآباء والبنون.

ب – الجريمة والعقاب.

ج – الدكتور جيفاجو.



رواية يحكي فيها ليو تولستوي قصة اجتياح نابليون بونابارت للأراضي الروسية، ثم انسحابه منها، نتيجة عجزه عن تحمل شتاء روسيا القارص.

أ- المعلم ومارجريتا.

ب- أرواح ميتة.

ج – الحرب والسلام.



رواية يحكي فيها مكسيم غوركي عن أم فقيرة مسالمة، يقوم أولادها بتعليمها في سن الكبر عن السياسة وحقوق المظلومين، ويقول فيها: «بعض الناس تعمى عيونهم من شدة الجوع، وبعضهم تعمى عيونهم من كثرة الذهب».

أ – الأم.

ب- الجريمة والعقاب.

ج- الدون الهادئ.



رواية يحكي فيها نيقولاي غوغول عن محتال يتعامل بالبيع والرهونات على أرواح الناس. ويقول فيها: «إن بعض الناس يعيشون في هذا الوجود كمجرد بقع ولطخات على شخصيات الآخرين».

أ- المعلم ومارجريتا.

ب- أرواح ميتة.

ج- الإخوة كارامازوف.

٦

رواية يحكي فيها إيفان تورغينيف عن الصراعات العائلية التي تدور حول تنافس جيل الشباب ضد الأجيال الأكبر سنا في روسيا عام 1860.

أ- الجريمة والعقاب.

ب- آنا كارنينا.

ج- الآباء و البنون.



٧

رواية يحكي فيها ميخائيل ليرمنتوف قصة شخص يعتبره الناس بطلا، ويقول فيها: «لطالما تغذى الناس بالحلوى حتى فسدت معدهُم، وينبغي عليهم الآن أن يتعاطوا العقاقير المُرة حتى تشفى معدهم».

أ- بطل من هذا الزمان.

ب- الدون الهادئ.

ج- الحرب والسلام.



رواية يتناول فيها ليو تولستوي قضية الزواج، من خلال حياة زوجة رجل أرستقراطي يهملها زوجها، ويفتتح تولستوي روايته بالجملة المشهورة: «كل العائلات السعيدة تتشابه، لكن لكل عائلة تعيسة طريقتها الخاصة في التعاسة».

أ- آنا كارنينا.

ب- الجريمة والعقاب.

ج- الدون الهادئ.



رواية يحكي فيها بوريس باسترناك قصة طبيب وشاعر يكافح وسط اضطرابات الثورة الروسية في سبيل الحب والحياة.

أ- الإخوة كرامازوف.

ب- الدكتور جيفاجو.

ج- الحرب والسلام.



رواية يطور فيها ميخائيل بولغاكوف مسرحية غوتة الشهيرة «فاوست»، حيث يكتب عن شيطان يلحق الدمار بموسكو.

أ- الدكتور جيفاجو.

ب- بطل من هذا الزمان.

ج- المعلم ومارجريتا.





جوائز المسابقة

الجائزة الأولى ١٠٠ دينار

الجائزة الثانية ٧٥ دينارًا

الجائزة الثالثة ٥٠ دينارًا

بالإضافة إلى ٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ٤٠ دينارًا.

شروط المسابقة

الإجابة عن تسعة أسئلة على الأقل من الأسئلة المنشورة، يكتب على الظرف مجلة العربي «مسابقة العربي العدد 693». آخر موعد لوصول الإجابات هو أول نوفمبر 2016م. **على أن يكون الاسم ثلاثياً (وباللغتين العربية والإنجليزية)** والعنوان البريدي واضحين، ورقم الهاتف، وأن يرسل المشاركون من داخل الكويت صورة البطاقة المدنية.

ولن تقبل الإجابات التي ترد إلى المجلة بواسطة البريد الإلكتروني.

حل مسابقة العدد ٦٩٠ مايو ٢٠١٦

١ من أشهر كتب الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر، وقد صدره بإهداء لصديقه إدموند هوسرل في عام 1927: الوجود والزمان.

٢ مقالة كتبها الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط في سبتمبر عام 1784م، لمناقشة سؤال طرحته إحدى المسابقات الفكرية المهمة في كونسبرج في بروسيا: ما التنوير؟

٣ كتاب صدر في عام 1762، للفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو، وحظر وأُحرق في العام نفسه، ويحكى أن الفيلسوف الألماني كانط كان يترقبه بشغف كبير اضطره إلى مخالفة روتين حياته الاعتيادي الثابت الذي اشتهر به ليكمل قراءته: إميل أو التربية.

٤ هو الكتاب الأشهر للفيلسوف الألماني شوبنهاور، وقد صدر في عام 1818، وأثر بشكل كبير في أفكار الفيلسوف الألماني نيتشه: العالم إرادة وتمثلاً.

٥ من كتب أرسطو التي صدرت في القرن الرابع قبل الميلاد، ويلخص فيه هدف الإنسان بأنه السعي لتحقيق السعادة والنجاح من خلال التوسط بين أمرين متطرفين، حيث الشجاعة هي التوسط بين تطرف الجبن وتطرف التهور: الأخلاق النيقوماخية.

٦ هو ثمرة تعاون مشترك بين الفيلسوف البريطاني برتراند راسل مع زميله ألفرد نورث هوايتهيد، صدر عام 1910: مبادئ الرياضيات.

٧ كتاب وضعه فيلسوف العصور الوسطى المشهور أوغسطينوس لتفسير ما جرى من سقوط لمدينة روما على يد القوط سنة 410 ميلادية، ويعد أحد أطول المؤلفات الفلسفية التي جمعت بين الخواطر الذاتية والتفلسف المدرسي: مدينة الله.

٨ كتاب للفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، صدر في عام 1943، يتضح فيه تأثر سارتر الشديد بأفكار الفيلسوف مارتن هايدجر، وقد ترجمه المفكر العربي عبدالرحمن بدوي عام 1966: الوجود والزمان.

٩ في عام 1740م، صدر كتاب الفيلسوف الأسكتلندي ديفيد هيوم والذي قال عنه الفيلسوف الألماني كانط إنه كان السبب في إفاقته من سباته الدوغمائي، إلا أن استقبال القراء للكتاب كان فاتراً، مما اضطر هيوم إلى تنقيحه وتعديل عنوانه وإعادة نشره مرات عدة من دون جدوى: بحث في الطبيعة البشرية.

١٠ كتاب يصف فيه الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت طريقته في ممارسة التفلسف من موقع الذات المفكرة، وصدر في عام 1636م، ويعده كثيرون فاتحة الفلسفة الحديثة: مقال في المنهج.

أسماء الفائزين

الفائز الأول:
حسن مكي حسن/ مدينة حمد - مملكة البحرين.

الفائز الثاني:
سعود بن علي بن حمدان/ ولاية السيب - سلطنة عُمان.

الفائز الثالث
محمد حسن الشيبة/ الدوحة - قطر.

الفائزون بالجوائز التشجيعية

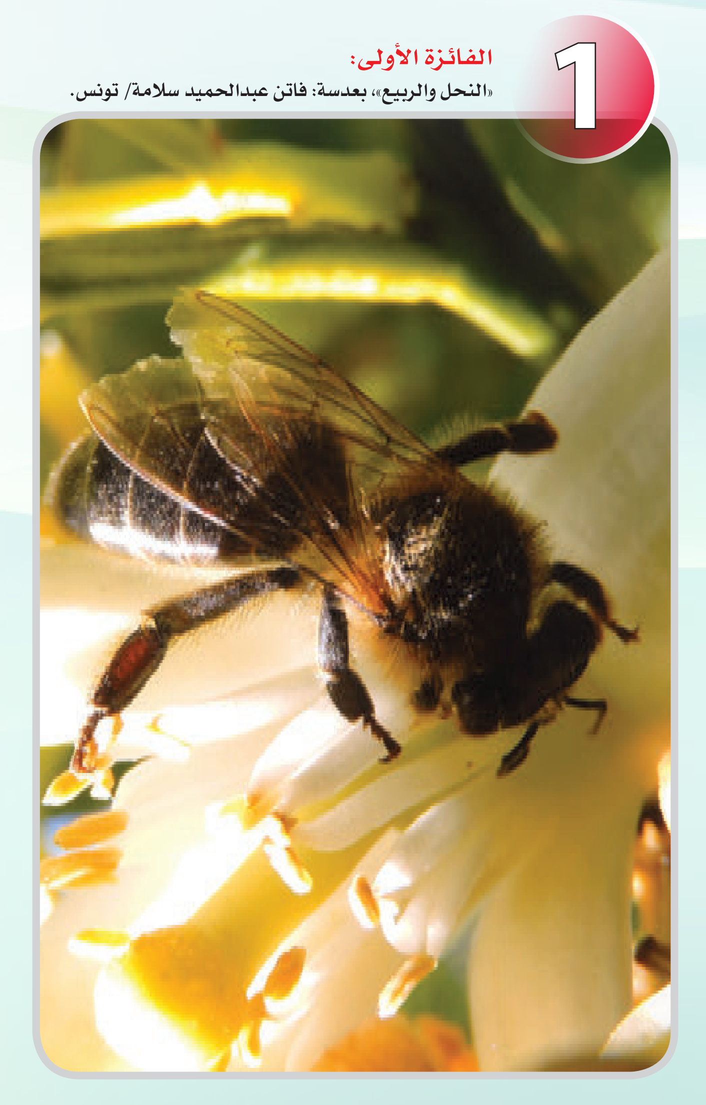
1 - ياسر السيد سويلم - محافظة دمياط/ مصر.
2 - آندي محمد حسن حجازي - جدة/ المملكة العربية السعودية.
3 - عنايات راغب علي الشرفا - محافظة الفروانية/ الكويت.
4 - صابر محمد صميدة - المنستير/ تونس.
5 - سمية عبدالكريم محمد - المحرق/ مملكة البحرين.
6 - محمد مصطفى محمد الخطيب - محافظة قنا/ مصر.
7 - عبدالله أحمد محمد العلي - الهفوف/ المملكة العربية السعودية.

مسابقة العربي للتصوير الفوتوغرافي

1

الفائزة الأولى:

«النحل والربيع»، بعدسة: فاتن عبدالحميد سلامة/ تونس.



ضمن سعيها لاكتشاف طاقات إبداعية عربية، تنشر «العربي» نتائج مسابقتها الشهرية لأفضل الصور الفوتوغرافية. المسابقة مفتوحة لكل المصورين في الوطن العربي. وتختار لجنة تحكيم في «العربي» ثلاث صور للحصول على ثلاث جوائز شهرية. على أن يمنح الفائزون التالون اشتراكات مجانية بمجلة العربي كجوائز تشجيعية لمدة عام كامل، كما تنشر الصور الفائزة بالمراكز الأولى.

المشاركون في المسابقات الثقافية والفوتوغرافية والعربي الصغير من داخل دولة الكويت، يجب أن ترفق رسائلهم بصور البطاقة المدنية والهاتف، والمشاركون القصر يرسلون صور البطاقة المدنية لأحد الأبوين.

شروط المسابقة

● المجالات التي يتم التنافس فيها هي فنون الصور الشخصية، جماليات الطبيعة الخلابة ورصد الحياة البرية، المدن والطرقات وحركة المجتمع في سعيه لبناء الحياة، التصوير في الإضاءة المتاحة وتباين الأبيض والأسود، توثيق العمارة العربية والإسلامية والتراث العالمي، ويحق لكل متنافس الاشتراك في هذه المجالات. ● الأعمال الفائزة تصبح ملكاً لمجلة العربي، ويجوز لها نشرها بأي وسيلة إلكترونية أو طباعية مع الاحتفاظ بالملكية المعنوية للمصور، ولا يحق للمشارك المطالبة باسترجاع الصور غير الفائزة. ● على المشاركين مراعاة المعايير الأخلاقية والقانونية في الصور المقدمة، وبمشاركة المتسابق يتعهد بتحمله حقوق الملكية الفكرية والخصوصية للصور. ● تكون الصور الأصلية المطبوعة بحجم مناسب لا يقل عن 5x7 (أقصر ضلع 12 سم)، مع ضرورة تسجيل جميع البيانات الخاصة بالموضوع (مثل مكان التصوير، وتاريخ التصوير وموضوع الصورة)، وعنوان المتسابق، واسمه الثلاثي (باللغة الإنجليزية)، ورقم هاتفه. ● الصور الرقمية المرسلة بالبريد الإلكتروني، لا يقل طول (أقصر ضلع) في الصورة عن 1900 بكسل، (تعادل 5 ميجا بكسل تقريباً) ويجب أن تكون صيغتها jpg ، مع ذكر جميع البيانات السابقة. ● لن تقبل الصور التي تحتوي على إطارات إضافية أو توقيع أو تاريخ أو عبارات مطبوعة. ● ترسل الصور إلى عنوان «العربي»: صندوق بريد 748، الرمز البريدي، 13008، الصفاة، دولة الكويت. ويكتب على المغلف بخط واضح: مسابقة «العربي» الشهرية للتصوير الفوتوغرافي، أو على البريد الإلكتروني alarabi@alarabi.info

الجائزة الأولى	الجائزة الثانية	الجائزة الثالثة
١٠٠ د.ك	٧٥ د.ك	٥٠ د.ك



2

الفائز الثاني:
«وجه من الريف»
بعدسة: محمد إبراهيم حسن عويس/ مصر.



3

الفائز الثالث:
«هدوء البحيرة - بحيرة قارون»، بعدسة: إبراهيم حسين مصطفى/ مصر.

الفائزون باشتراكات مجانية في مجلة العربي:

• بوملطة عبدالملك بن علي/ الجزائر. • إبراهيم مختار محمد/ مصر. • سارة نبيه محمد عبدالرزاق/ مصر.

«أسرار عمَّان...
تحقيقات في ذاكرة المدينة»

تأليف: محمد أبوعريضة كاتب من الأردن

عرض: محمد شريف الجيوسي كاتب ومحلل سياسي من الأردن



تناول الباحث الأردني الاستقصائي محمد أبوعريضة مسائل كثيرة في كتابه الصادر حديثاً بعنوان «أسرار عمَّان... تحقيقات في ذاكرة المدينة»، جاء على رأسها الأحياء التاريخية للعاصمة الأردنية عمَّان، وقد أطلق أبو عريضة على هذه الأحياء أسماء معبرة تتساوق مع طبيعتها وتاريخها ودورها، فكان الحي الآسيوي الذي يقطنه آسيويون وآسيويات قدمن للخدمة في المنازل، وما يستتبع من علاقات ومشكلات اجتماعية وخصوصيات رسمت الحي بطابعه؛ إلى حد أن تطلّق أسرة ابنتها لمجرد أن الخطيب أو الزوج يقطن ذلك الحي.

من أحياء عمان حي جبل القلعة، الذي قطنته في فترة عائلات تولى أفراد منها مسؤوليات جساماً في سلم الدولة الأردنية ومنها عائلة أبوالراغب، ويشرف الحي على أجزاء من وسط عمَّان والمدرج الروماني والساحة الهاشمية ومجمع رغدان، مشيراً إلى رواية زياد القاسم «أبناء القلعة»، التي سجل فيها تفاصيل حياة الناس في الجبل على نحو مميز. وقد بدأت الحياة تعود إلى هذا الحي مع وصول أفواج المهاجرين الشراكسة إلى عمَّان، من بينهم الحاج يعقوب الذي عمل طاهياً لدى الملك عبدالله الأول، ومربية الملك حسين واسمها مؤنسات، وكان الملك دائم الزيارة لهما قبل أن يتوفيا.

وقد أعادت الفورة النفطية للحي التجاري،الواقع في وسط البلد ألقه، والذي كان يعج بأسواق الأحذية والإلكترونيات والمحامص والصيدليات وعيادات الأطباء، وقد سجل أبوعريضة ملامح التغيرات

الطارئة على الحي وانتقال أهميته لاحقاً إلى الأطراف، مشيراً إلى القبطي صانع أحذية الملك حسين، والتأثير السلبي للاستيراد على صناعة الأحذية في عمَّان، وتطور اقتناء وسائل الإعلام ونوعية الحاصلين عليها وتراجع دور وأهمية دُور السينما، وحركة فتح التي كانت تطبع جريدتها في مطبعة قرب درج يؤدي إلى شارع قبرطاي، فيما اتخذت شخصيات سياسية من وسط العاصمة عيادات لها مثل منيف الرزاز وعبدالرحمن شقير.

وحظي الحي السياسي باهتمام أكثر من خاص لدى المؤلف أبو عريضة، وهو الحي الواقع على شوارع يمين ويسار شارع الرينبو (ما قبل الدوار الأول)، وهو المربع الذي قطنه صنَّاع تاريخ الأردن الحديث، متحدثاً عن أن مفردة الرينبو (Rainbow قوس قزح) الذي تكنّى الشارع بها تعني ألوان الطيف، حيث إن قاطنيه كانوا يمثلون مختلف ألوان الطيف السياسي الأردني بتناقضاته المختلفة إلى منتصف الربع الثالث من القرن الماضي، وكان لبلدية عمَّان دور في نشوء هذا الحي وبدايات جبل اللويبدة، عندما بدأت بضخ المياه إلى سفحيّ جبلي عمان واللويبدة.

ويعود الباحث إلى موسوعة محمد رفيع بأجزائها الثلاثة «ذاكرة مدينة» وكتاب «سيرة مدينة» لعبدالرحمن منيف، الذي أشار إلى أن ذهاب الأولاد إلى ملعب «كوبان» الواقع خلف غرفة صناعة عمان، الآن، كان يعتبر مغامرة يعاقبون عليها من الأهل.

وسجل الباحث مفارقة غريبة، أن عبدالرحمن أرشيدات، الذي قطن منزل المعتمد البريطاني في الحي السياسي، كان أحد أعضاء لجنة الوصاية على عرش الملك حسين، فيما كان ابنه نبيه أرشيدات، من أكثر الشيوعيين الأردنيين تشدداً، ومكث شهوراً من خمسينيات القرن الماضي في قبو مظلم لطباعة جريدة الحزب، وقد خلّد الروائي العربي السوري اليساري حنا مينة واقعة نبيه أرشيدات في روايته «الثلج يأتي من النافذة» حيث أوحت تجربة أرشيدات بفكرة الرواية لحنا مينة وأهداها له.

ومن المفارقات التي سجلها أبو عريضة، أن



الحي السياسي والحي الصناعي وأحياء النبلاء والآسيويين

في «الرينبو» كانت تصاغ السياسات

تحولات سلبية وإيجابية في «الحي الصناعي»

حي النبلاء، هادئ أرستقراطي... يوشك تجار العقار أن يأتوا عليه



تحرياً لجأ إلى بيت العودات في الحي السياسي، عندما بدا له أن جمهور المتظاهرين في أعقاب حل مجلس النواب في 7 يناير 1956؛ اكتشفوا هويته، فتوجه المتظاهرون إلى منزل العودات للقبض على التحري، التي كان ابنها نعيم شيوعياً، لكن أسرة العودات حمت التحري ولم تسمح للمتظاهرين بالقبض عليه، حيث أصبح التحري وفق العادات العشائرية في حمايتهم، لكن ذلك لم يحل في اليوم التالي دون أن يدعي التحري على المتظاهرين ومنهم نعيم العودات الشيوعي الذي حماه!

ومن المفارقات التي ساقها الباحث، أن أفراداً

من الشرطة كانوا يبلغون أسرة آل نفاع الشيوعية مسبقاً (من مواطني الحي السياسي) بمواعيد حملات المداهمة التي نفذتها المخابرات عشرات المرات في الخمسينيات، وكان من سكان الحي بعض الشيوعيين، من بينهم عيسى مدانات.

وممن قطن الحي أيضاً رئيس الوزراء الأسبق الشريف عبدالحميد شرف وعلاوي الكباريتي والد رئيس الوزراء الأسبق عبدالكريم الكباريتي وقائد الجيش الجنرال الإنجليزي غلوب باشا قبل طرده والمعتمد البريطاني، كما قطنه قوميون عرب من بينهم كمال وعلي منكو ونزار جردانة. كما سكنه سعيد المفتي وتوفيق أبوالهدى وإبراهيم هاشم (رؤساء وزارات سابقون)، بالإضافة إلى عمر حكمت والرأسمالي الكبير رياض المفلح وخليل شقير (الذي تحول منزله إلى دار شقير للثقافة والتراث).

كما قطن الحي د. عبدالرحمن شقير (الأمين العام للجبهة الوطنية في الخمسينيات قبل أن يغادر إلى سورية)، وعائلة العسلي الحجازية التي تنتمي إليها والدة عبدالله الأول، وصالح منصور الصايغ الذي كان أول من أدخل الخزنة الحديدية إلى الأردن، وفتح محلات لبيع التمور والسمن الحجازي، وكان يطيب للملكين عبدالله الأول وطلال تناول القهوة ووجبات السليق عنده.

كما قطن شارع الرينبو أيضاً الملك طلال قبل أن يصبح ملكاً مقابل منزل العودات (وهو المنزل الذي ولد فيه الأمراء حسين ومحمد وحسن وبسمة) على مقربة من بيت الشيوعيين.

يقول أبو عريضة إن مربع الحي السياسي يتكون من 4 شوارع متوازية تقريباً، تتقاطع معها أكثر من 10 شوارع وأزقة، وسكن ذاك المربع في الخمسينيات، مزيج متباين من الناس: شيوعيون وبعثيون وقوميون عرب ورجال حكم وتجار كبار وغيرهم، ومزيج متناقض من ألوان الطيف السياسي في الأردن وقتذاك، في وقت كان الأردن يعيش فيه تحولات عميقة، وأكسبوا المربع تناقضاتهم، ولعبوا أدواراً مهمة في تاريخ الأردن ومصير البلد.

وأطلق أبو عريضة على بقية جبل اللويبدة مسمى حي النبلاء، الذي استتكر في حديثه عنه فلسفته عن المكان، مستعرضا مفاصل ومزايا وخصوصيات هذا الحي، الهادئ الأرستقراطي الثقافي والفني التعبيري والتشكيلي والإعلامي والسياسي والأدبي، والدراجات والنادي الأولمبي، مبرزاً كمثال، أن أكثر من 30 فناناً تشكيليا يعيشون اليوم في اللويبدة، بأدق تفاصيله، لكن هذا الحي/ الجبل بات يُخشى عليه من هجوم تجار العقار؛ الذين يتحركون لطمس معالمه، وإغراق الحلم بالمشاريع الإسكانية ومبان مسطحة تفتقر إلى نكهة المكان القديم.

ودعا الكاتب بلسان الفنان التشكيلي عصام طنطاوي في نطاق حديثه عن قصة عشقه لجبل اللويبدة، إلى تأسيس هيئة مستقلة غايتها الحفاظ على معالم وملامح جبل اللويبدة، ومنع أي تغيير فيه، بل ترميم المباني القديمة. ويشاطره في ذلك الفهم المحاسب القانوني علاء الدين الحسيني، الذي بدأ يشعر أن تحولات عميقة تعصف بالمكان بدأت تفقده بعضاً من جوهره. ويرى أبو عريضة أن هذا قد يكون السبب الذي دفع بعض الأسر لمغادرة المكان.

وإذ يطلق أبو عريضة على اللويبدة وصف «الجبل الحي»، فيرى أنه يحمل في كل ذرة تراب فيه ذاكرة عظيمة، ولأن المكان مرتبط ابتداءً ببداية نشأة الدولة الأردنية، فإن حمايته واجب وطني، ويكفي الحي إضافة إلى كل ما ورد آنفاً أنه الحي الوحيد في الأردن، الذي تحظى شوارعه بأسماء شعراء وأدباء، كان لهم الأثر الكبير في حياة شعوبهم، مثل: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم طوقان والفرزدق وجرير والأخطل ومحمد إقبال ومحمد بيرم التونسي ومؤنس الرزاز وحسني فريز وغيرهم.

ومن أحياء عمّان؛ الحي الصناعي، حيث عرض أبوعريضة للتحولات السلبية لذلك (فلا رائحة الخبز وطعمه، كما كانا في السابق، ولا الوجوه دافئة حميمة، كما كانت تقف بالقرب من «بيت نار» المخبز الوطني في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي).

وفي المقابل، كانت هناك تحولات أخرى إيجابية في وادي النصر، حيث لم تعد الحيوانات المفترسة كما كانت الحال عام 1948، أي قبل أن يتم استئناسه.

تحدث أبو عريضة عن مصنع الشماع وعن المهاجرين الفلسطينيين الذين قطنوا وادي النصر، وعن صالون أبي سليم، وعيادات الاتحاد اللوثري، التي كانت تقدم خدمات طبية مجانية بعد عام 1967، وعن شخصية درويش الحشاش المختلفة الكريمة البسيطة المزاجية المتعثرة، التي كانت تلثغ.

يروي المغترب علي؛ القادم من ذاكرة النسيان، ذكرى طالما بقيت راسخة في ذاكرته مذ كان صبياً، عندما اقترب من كشك مشاوي الحشاش مستمتعاً برائحة المشاوي، وهو يمصمص شفتيه، فما كان من الحشاش إلا أن ألقى القبض عليه، وبعد أن استوعب الأمر، منحه ساندويتش كباب وشقف «متكل»، كما يلفظها، طارداً حرف الشين من الكلمة!

من عائلات وادي النصر الكيالي والحلتة وأبو هاشم وأبو عمارة والعمري وسكجها والزميلي والمسلماني والخليلي والطرشا والعبودي وأبو عارف الحلاق والكردي وغيرها، وجميعها من العائلات الفلسطينية المهاجرة.

وقد اختفت الآن معالم مصنع الشماع وصناعة الأثاث ومركز وكالة الغوث ومقاهي وبقالات وادي النصر القديمة، وحلت مكانها محلات تجارة الجملة.

وعرض الباحث مفصلاً لأحياء أبناء المحافظات في عمَّان، المعانيين والطفايلة والكركية والعبداللات والمصاروة، ولمشاعرهم بأن الدولة تتخلى عنهم منذ سنوات غير بعيدة، بشكل غير لائق، فحالهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، هربوا من فقر مدقع في محافظاتهم، من جراء فشل الدولة في تنمية مناطقهم الأصلية، إلى فقر أكثر قسوة في المدينة، حيث يحتاجون إلى أكثر من إيجاد فرصة عمل ومكان سكن، إلى الاندماج في المجتمع المديني الجديد. ويحمل الأبناء والأحفاد منهم في دواخلهم حنيناً جارفاً إلى حياة لم يعيشوها في مناطقهم الأصلية.

فجدب الطبيعة وظلم الدولة وارتفاع أسعار الأعلاف دفعت أبناء المحافظات لهجر أراضيهم وقطعان ماشيتهم، ما دفعهم للعمل في جهاز الدولة البيروقراطي، وفي آن لم تتح لهم المدينة الولوج إلى عالمها، معتبراً أن الحراك الأردني كشف مقدار الغبن التاريخي الواقع عليهم.

ولفت أبو عريضة إلى أن عدد سكان عمَّان عند تأسيس الإمارة عام 1922 لم يكن ليتجاوز 7 آلاف نسمة، وبتأسيسها كانت الحاجة ملحة لعمال وموظفين، من داخل الإمارة وخارجها، فشهدت قدوماً منظماً بدءاً من الثلاثينيات من المتعلمين وعائلاتهم من فلسطين وسورية ولبنان والعراق والحجاز، ومع تمدد العمران وانتقاله إلى سفوح جبال عمَّان واللويبدة والحسين، برزت الحاجة لعمال عاديين للعمل في البناء والتحميل والتنزيل في الأسواق.

وأدت موجات الجراد وجدب الأرض في السنوات من 1929 إلى 1938 إلى بحث أبناء المحافظات وبخاصة الطفيلة عن بدائل في العاصمة عمَّان.

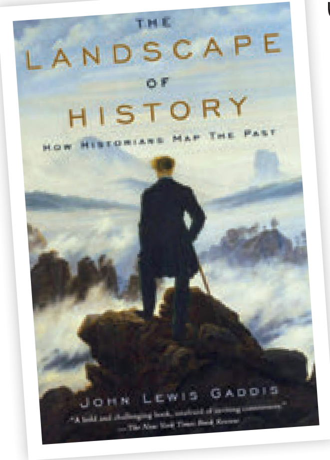
واقتبس المؤلف أبو عريضة رؤية للباحث في التاريخ د. طارق التل، حيث يرى أن كل عشيرة تشكل مجتمعاً متكاملاً، فقد نقلت هذه العشائر علاقاتها القرابية معها، واستمر أفرادها يعيشون بأنساق العلاقات التي كانوا يعيشونها في بلداتهم وقراهم، وهكذا لم تبن العلاقات في عمَّان على أساس الإنتاج، ولم يتشكل نسق طبقي، وبقيت الدولة هي المُشغل الرئيس للمواطنين، وبقيت العلاقات مبنية على اعتبارات عشائرية وجهوية وعلى أساس «الزبائنية» السياسية، وليس على اعتبارات طبقية، ولم تتكون تشكيلات اجتماعية طبيعية ومؤسسات مجتمع مدني مستقلة.

يذكر أن الكتاب صدر بطبعته الأولى عن دار فضاءات للنشر والتوزيع في عمَّان، بدعم من وزارة الثقافة الأردنية، في نحو 400 صفحة من القطع الكبير، غلافه من تصميم بهاء سليمان، رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (الأردنية) 2013/ 7/2305 ■

مشهـــد التاريـــخ

تأليف: جون لويس غاديس
عرض: محمد عبدالرءوف كاتب من مصر

ما التاريخ؟ وما الوعي التاريخي؟ وما طبيعة عمل المؤرخ؟ هل توجد حقيقة تاريخية؟ هل التاريخ علم؟ ما أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية؟ يناقش جون لويس غاديس في كتاب «مشهد التاريخ» هذه الأسئلة إلى جانب أسئلة وقضايا أخرى، تتعلق بمناهج البحث التاريخي والزمان والمكان وإمكان وجود نظرة موضوعية إلى الماضي، وأثر النظريات العلمية الحديثة على البحث التاريخي، وغيرها من القضايا والإشكاليات. ومن ثم، فهو كتاب عن مناهج دراسة التاريخ وروايته، عن عمل المؤرخ ووظيفته، عن طرق الرؤية والنظر، لا عن مجرد المعرفة والمعلومات التاريخية. ومن هنا تأتي أهمية الكتاب وميزته الأساسية؛ حيث يجد القارئ نفسه مدفوعاً إلى مزيد من التفكير والتأمل في الموضوعات التي يطرحها الكتاب ويناقشها.



يقع كتاب «مشهـد التاريخ» الصادر عن دار نشر جامعة أكسفورد في 192 صفحة، ويضم مقدمة وثمانية فصول. الفصل الأول بمنزلة مدخل عام عن دراسة التاريخ والوعي التاريخي، ويشير الفصل الثاني إلى موقع التاريخ والمؤرخين بين الفن والعلم وضرورة حفاظ المؤرخين على الموازنة بينهما من حيث معالجة الزمان والمكان. أما الفصول من الثالث إلى السادس، فيناقش المؤلف فيها القضية المحورية: هل التاريخ علم أم لا؟ وذلك من منظورات مختلفة؛ فيبدأ بمفهومي البنية والصيرورة واختلاف صورتيهما بين كل من التاريخ والعلوم الطبيعية، ويتابع مقارنة التاريخ بالعلوم الاجتماعية وأيهما أقرب إلى العلوم الطبيعية، ثم يناقش بعض المفاهيم والنظريات العلمية الحديثة مثل الفوضى وعدم التحديد والنسبية والاحتمال والسببية والحتمية والوقائع المضادة ومدى صلة الفكر التاريخي بهذه المفاهيم. أما الفصل السابع، فيؤكد أهمية معايشة المؤرخ لموضوعه، وتزداد أهمية هذا الأمر في حالة كتابة سيرة الأشخاص والترجمة

لهـم، إذ ترقى هذه المعايشة إلى درجة تقمص الشخصية والتعاطف معها.

ويختتم الكتاب بالفصل الثامن، الذي يعود إلى ما جاء في بداية الكتاب عن الوعي التاريخي، فيشير إلى فكرة النظر بعين المؤرخ التي تسعى إلى تمثيل الواقع وتصويره، وهي في ذلك تتسم بالاشتباك مع الحدث والابتعاد عنه في الوقت ذاته، كما أنها عين ناقدة تسعى إلى تحرير الحاضر مما يتركه الماضي من قيود وأخطاء وأفكار قطعية صارمة.

مؤلف الكتاب هو المؤرخ جون لويس غاديس، أستاذ التاريخ بجامعة ييل في الولايات المتحدة الأمريكية، ويُعد أبرز مؤرخي الحرب الباردة، حيث صدرت له كتب عدة عن الحرب الباردة واستراتيجية الاحتواء التي طبقتها الولايات المتحدة إزاء الاتحاد السوفييتي، ومن هذه الكتب: «الولايات المتحدة وجذور الحرب الباردة» 1972، «روسيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة» 1978، «استراتيجيات الاحتواء» 1982، «السلام الطويل» 1987، «الولايات المتحدة ونهاية الحرب الباردة» 1992، و«الحرب الباردة: تاريخ جديد» 2005.

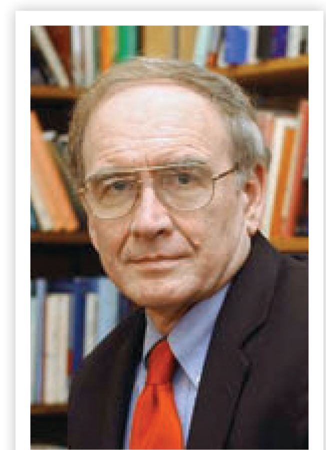
كذلك كتب غاديس سيرة السياسي الأمريكي الشهير جورج كينان، وحصل بها على جائزة بوليتزر لأفضل سيرة حياة عام 2012. ومن ثم، يمكن القول إن كتاب «مشهد التاريخ» يمثل حلقة جديدة في سلسلة الكتب التي يضعها مؤرخون بارزون يضمنونها خلاصة خبراتهم بعد ممارستهم للتدوين التاريخي، وهي كتب تتناول طبيعة التاريخ ومهنة المؤرخ والقضايا المنهجية والفلسفية المتعلقة بالتاريخ وتدوينه. وهذا ما سبق أن قدمه، على سبيل المثال، مارك بلوخ في كتابه «دفاعا عن التاريخ أو مهنة المؤرخ» 1949، وروبين كولنغوود في «فكرة التاريخ» 1956، وجوفري إلتون في «ممارسة التاريخ» 1967، وإدوارد كار في «ما التاريخ؟» 1961.

الوعي التاريخي... المؤرخون وتصوير الماضي

يستلهم غاديس في كتابه هذا كلا من مارك بلوخ وإدوارد كار، ويشير إليهما باستمرار على امتداد الكتاب، موضحا أنه يقدم تطويراً لأطروحتيهما من خلال ما استجد من نظريات علمية، ويحاول تبسيط وتوضيح بعض الأمور المعقدة والغامضة في مناهج البحث التاريخي بطريقة تعليمية. ومن أجل توضيح رؤيته لماهية الوعي التاريخي ونظرة المؤرخ إلى الماضي، يستخدم المؤلف لوحة من أعمال الرسَّام الألماني كاسبر ديفيد فريدريك، وهي لوحة «متجوِّل فوق بحر من الضباب» التي يرجع تاريخها إلى عام 1818. يصف غاديس اللوحة قائلا: «رجل شاب يقف حاسر الرأس مرتدياً معطفاً داكناً فوق حافة صخرية مرتفعة. يولينا الرجل ظهره، ويثبت نفسه بعصا مشي في مواجهة الرياح التي تعصف بشعره الملبّد. يمتد أمامه مشهد يغلفه الضباب، وفيه تلوح جزئياً الأشكال العجيبة لنتوءات صخرية على مسافة أبعد. كما يكشف الأفق البعيد عن جبال جهة اليسار، وأرض منبسطة جهة اليمين، وربما يظهر بعيداً جداً - لا يمكن للمرء تأكيد ذلك - أحد المحيطات. إلا أنه قد لا يكون سوى مزيد من الضباب وقد اندمج مع السحب بصورة دقيقة غير محسوسة... تترك اللوحة انطباعًا متناقضًا؛ حيث توحي بسيادة شخص ما على المشهد، وتوحي في الوقت ذاته بعدم أهميته داخله. لا نرى أي وجه في اللوحة، ومن ثم فمن المستحيل معرفة ما إذا كان المنظر المواجه للرجل الشاب مبهجاً أو مرعباً أو كليهما معاً». إن الوعي بمشهد التاريخ يشبه ما تصوره اللوحة، الابتعاد عن المشهد بمسافة ما وعدم الانغماس فيه، التوتر القائم بين شعور الشخص بالضخامة والسيطرة على المشهد وشعوره في الوقت ذاته بالتفاهة والصغر مقارنة بما يتجلى له، التوتر بين التجريد والتعميم من ناحية والتخصيص والتمثيل الحرفي من ناحية أخرى، الإحساس بالفضول الممتزج بالرهبة والتصميم على اكتشاف الأشياء ووصفها وتصويرها.

وهكذا، يعمل التاريخ على توسيع الأفق واتساع الرؤية، فإذا كان الماضي بمنزلة المشهد، فإن التاريخ هو طريقة رؤيتنا وتمثلنا لهذا

المشـهد، وهو ما يرفعنا ويرتقي بنا فوق العـادي والدارج لندرك مـا لا يمكننـا رؤيته مباشـرة وعن قرب. إن الخبرة المباشـرة بالأحـداث والافتقار إلى الوعي التاريخي ليسا بالضرورة أفضل طريقة لفهمها واستيعابها، حيث لا يتعـدى مجال رؤية الإنسـان وإدراكه حدود حواسـه المباشرة ومـا يصل إليـه مـن جزئيات ومعلومـات آنيـة متفرقـة، إنه يفتقـد مـا يمنحـه التاريخ من اتسـاع الرؤية والأفق وملاحظة الأنمـاط المتكـررة والقـدرة علـى المقارنة بين الأحـداث من خـلال خبرات تمتد فـي الزمان والمـكان. بل يؤكد المؤلـف أن المؤرخ أفضل فهماً واسـتيعاباً للحاضر من المشاركين فيه مباشرة، وذلك انطلاقاً من حقيقة بسـيطة هي أنه لديه أفق ورؤية أوسع.



كذلك، يُشبِّه المؤلف ما يقوم به المؤرخون من تجريد وتمثيل بعلم أو فن رسـم الخرائط، فكما أن الخرائط ليسـت هي الطبيعـة والتضاريس ذاتهـا، وإنما تمثيل وتصوير لها، فكذلك التاريخ هو طريقة تمثلنا لمشهد الماضي وتصويره. ويزيد غاديس هذه النقطة توضيحاً بقوله إنه كما يقوم واضعـو الخرائط ومصمموها بتصوير ورسـم البلاد والطـرق والسـمات الجيولوجية للمكان ومحاكاتها، فكذلك على المؤرخين تمثيل الماضي ومحاكاته وليس إعادة إنتاجه حرفياً.

وهنا تبرز براعة المـؤرخ في معالجة الزمان والمـكان والتلاعب بهما اقتراباً وابتعاداً من أجل تكويـن صورة كليـة للحـدث التاريخي. وخلال ملاحظته ورصده لمشـهد الماضي، يقوم المؤلف بعمليـات انتقـاء واختيار وتركيـز على أحداث بعينها أو أماكن وأوقـات دون غيرها، وهنا فإن موقـع الملاحظة والرصد يؤثر فـي رؤية المؤرخ للأحداث والموضوعات التي يلاحظها، مما ينشأ عنه القـول بصعوبة وجود الموضوعية والحقيقة التاريخية، وهذا يشـبه إلى حد كبير مبدأ «عدم التحديد» في الفيزياء الحديثة، الذي صاغـه الفيزيائي الألماني هيزنبرج.

هل التاريخ علم؟

للإجابـة عن هذا السـؤال ومحاولـة توضيـح العلاقة بين التاريـخ والعلم، يسـلك المؤلف مسـاراً عكسـياً من العلم إلى التاريخ، حيث يستدعي نظريات ومفاهيـم علميـة حديثة ليقيم الدليل علـى أن التاريخ، خلافاً للتصور الشائع، يستخدم المناهج ذاتها الموجودة في العلوم الطبيعية.

وتفسير ذلك ليس أن التاريخ قد تغير بمرور السنين ليأخذ طابعاً علمياً أكثر، وإنما العلم هو الذي تغير ليقترب أكثـر من الطابع التاريخي. لقد غيّرت الفيزياء الحديثة طبيعة العلم، حيث تخلـى عن طابعه الخطي الحتمي الذي اتسـم به فـي الماضي مـع فيزياء نيوتـن، ليصبح ذا طبيعة مختلفة تسـودها مفاهيم مثل النسـبية والاحتمال وعدم التحديد والفوضى والتعقيد. فنجد علمـاء الفيزياء النظرية مثل أينشـتاين وعلمـاء الفلك مثلاً يعتمدون فـي المقام الأول علـى ما يطلـق عليه غاديس «تجـارب الفكر» وليس تجارب المعمل، وتجارب الفكر هذه تشبه الحكاية التاريخية، وكلاهمـا يقوم على العمل الذهنـي والسـرد من أجل الفحـص وتوضيح كيفية حدوث الأشياء، وبالتالي تحديد أسبابها وعللها.

مـن ناحية أخرى، يلتقـي التاريخ مع العلم الطبيعي في آلية حدوث الاكتشافات الجديدة، حيـث يسـتلزم الاكتشـاف الجديـد المقارنة مـع ما هو قائـم بالفعل، وخلال هـذه المقارنة يلجأ الباحث، سـواء في التاريـخ أو في العلوم الطبيعية، إلى استخدام منهج الاستنباط ومنهج الاسـتقراء. إن دراسـة التاريخ ينبغي أن تحذو حـذو العلـوم الطبيعية ومناهجها، سـواء في الخطوات والإجراءات النظرية أو العملية.

من ناحية أخرى، يؤكد غاديس أن المناهج التي يستخدمها المؤرخون أقرب إلى مناهج العلوم الطبيعية الصارمة منها إلى مناهج العلوم الاجتماعية، فالباحثون في مجال العلوم الاجتماعية يركزون على انفصال المتغيرات واستقلال بعضها عن بعض، ما يؤدي بهم إلى الوقوع في عمليات اختزال وتسطيح للمجتمعات الإنسانية ومشكلاتها، التي تنطوي على علاقات وظواهر مركبة يتداخل فيها السياسي والاقتصادي والديني. هذا الاختزال للظواهر الإنسانية وردها إلى عوامل مستقلة بعضها عن بعض، مهما تعددت تلك العوامل، يبتعد بمناهج العلوم الاجتماعية عن مناهج العلوم الطبيعية.

أما المؤرخون فيفترضون ارتباط المتغيرات والعوامل المؤثرة وتشابكها، وأن المجتمع الإنساني أكبر من مجموع أجزائه، وأن ما يبدو خطياً وقابلاً للتنبؤ به يدخل، عند البحث والتحقيق، في دائرة الاحتمال وعدم التنبؤ؛ وهم في ذلك أقرب إلى نظريات علمية مثل نظريات الفوضى (الشواش) والتركيب التي تبحث في سلوك الأنظمة الديناميكية والظواهر المركبة.

أما عن السببية وعلاقة الأسباب بالنتائج والتحقق من دقتها، فبالإضافة إلى الربط بين الأسباب المباشرة والمتوسطة والبعيدة، أي البدء بالبنية ومحاولة استخلاص العمليات التي أنتجتها، فهناك أسلوب إضافي يسلكه المؤرخون لعدم إمكان عرض الأحداث التاريخية، وهو التفكير عن طريق الوقائع المضادة، أي افتراض عكس ما حدث بالفعل واستخلاص نتائج مختلفة، وهو ما يطلق عليه أسلوب «ماذا لو؟»، وذلك في محاولة للوصول إلى أقرب تفسير عقلي مقبول وتعميمات مقنعة ودروس مستفادة.

أما عند التأريخ لحياة شخص ما، فإن غاديس يؤكد أهمية تقمص المؤرخ شخصية مَن يؤرخ له، أن يدخل عقله وروحه ويتعاطف معه ليفهم دوافعه ويفسر سلوكه. فهناك أنماط من السلوك الإنساني تمتد وتتكرر مع اختلاف الزمان والمكان، وهو ما يجب على المؤرخ الانتباه إليه وهو يكتب عن شخص بعينه. إن المؤرخ بإمكانه إصدار حكم أخلاقي نهائي على شخص بعينه، ورغم أنه ينبغي أن يكون حكما غير متحيز، فإنه غالبا ما يكون كذلك.

أخيراً، يمكن القول إن هذا الكتاب بمنزلة مشهد يصور للقارئ عمل المؤرخين ونظرتهم إلى الماضي ومناهج البحث التاريخي وعلاقة التاريخ بالعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، ومن ثم فإنه يكتسب أهمية خاصة لدى الباحثين في التاريخ والطلاب الذين يدرسون التاريخ، وكذلك القارئ العام غير المتخصص، وذلك لتميزه بالوضوح والشمول والبساطة والإيجاز ■

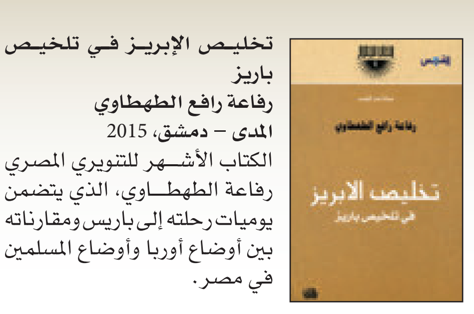
طرائف عربية

تباً له

قال الجارم في ثقيل:

تبـاً لـه مـن ثقيـل
دمـاً وروحـاً وطينـة
لـو كـان مـن قـوم نـوح
لمـا ركبـتُ السـفينـة!

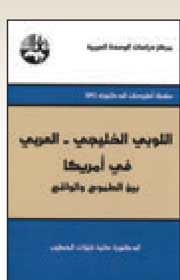
كتب مختارة

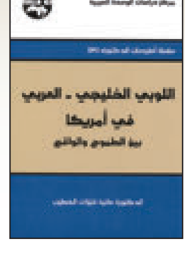


تخليص الإبريز في تلخيص باريز
رفاعة رافع الطهطاوي
المدى - دمشق، 2015
الكتاب الأشـهر للتنويري المصري رفاعة الطهطـاوي، الذي يتضمن يوميات رحلته إلى باريس ومقارناته بين أوضاع أوربا وأوضاع المسلمين في مصر.



بمَ يفكر الأدب؟
تطبيقات في الفلسفة الأدبية
بيار ماشيري، ت: د.جوزيف شريم
المنظمة العربية للترجمة - بيروت، 2009
دراسة حول الطريقة التي ينتج بها النـص الأدبي الأفـكار، وتأملات حول الطريقة غير المباشـرة التي تتكـون بها التجـارب الفكرية في النصوص الروائية والسردية.





اللوبي الخليجي - العربي في أمريكا
بين الطموح والواقع
د. دانـيـة قـليلات الخطيب،
ت: د. محمد شيا
مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة - بيروت، 2016
يتـناول الكتـاب محـاولات الدول الخليجيـة - العربية تشـكيل لوبي مؤثر في سياسات الإدارة الأمريكية، ويتأمل عوامل النجاح والفشـل في تحقيق الأهداف المرجوة.

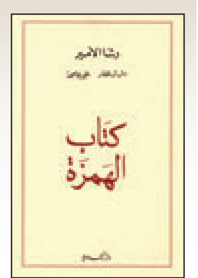
زهرة الصمت
رءوف مسعد
دار العين للنشر - القاهرة، 2016
روايـة جديدة تتناول بشـكل فني وتجريبـي تاريخ التمييـز الديني فـي مصـر، ويقوم النـص بمزج وثائق تاريخية مع التخييل وأجزاء من روايـات أخرى للكاتب تناولت الموضوع.



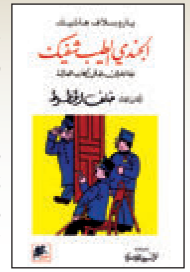
في ظل العنف (السياسة والاقتصاد ومشكلات التنمية)
تحرير: مجموعة من الباحثين - ترجمة: كمال المصري
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - سلسلة عالم المعرفة - الكويت، 2016
يقـدم الكتـاب عبـر تجـارب الباحثين المشـاركين فيه بالتطبيق على تسـع دول نامية، كيفية استخدام السيطرة السياسية على الامتيـازات الاقتصاديـة للحد من العنف داخل النظام الاجتماعي.



السـينما والمجتمـع فـي الوطـن العربي
إبراهيم العريس
مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة - بيروت، 2015
المجلد الأول من موسوعة سينمائية قاموسـية - تحليلية ترصد الإنتاج السـينمائي في العالم العربي من زوايا متنوعة عديدة، تتناول الأفلام والممثلين والمخرجين والتقنيات.



كتاب الهمزة
تأليف: رشـا الأمير، رسوم: دانيال قطار، خطوط: علي عاصي
دار الجديد - بيروت، 2012
تجربـة أدبيـة تقـدم للفتيـان والناشـئة كل مـا يتعلـق بحرف الهمـزة فـي اللغـة العربية، من خلال أسسـه المعجمية والتعامل مع حـرف الألف نحوياً في جميع الجمل العربية بطريقة ممتعة.



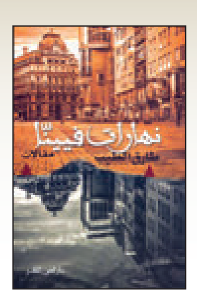
الجندي الطبيب شفيك
ياروسلاف هاشيك، ت: توفيق الأسدي
دار الخيال للطباعة والنشـر - بيروت، 2008
الجزء الأول من ثلاثية روائية بالعنوان نفسه للروائي التشيكي هاشيك، تقدم تجربة سـردية سـاخرة عـن جندي تشـيكي خلال الحرب العالمية راصداً للأحداث الرهيبة بحس ساخر.



الركض فوق الماء
محمود قاسم
دار وعد للنشر - القاهرة، 2012
رواية يتناول فيها الكاتب عدداً من الشخصيات التي تقدم نماذج لصور مزيفة شوهت نفسياً بسبب تغيرات اجتماعية وقيمية، وخصوصاً في الوسط الإعلامي والصحفي.



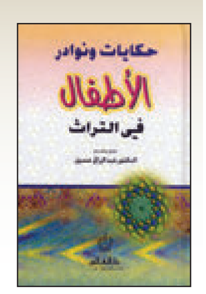
شعر قريش في الجاهلية
د. مختار الغوث
مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت، 2015
دراسة لشعر قريش في الجاهلية، من حيث مصادره وقيمته العلمية، ونشأته وتدوينه وجمعه قديماً وحديثاً وجمع ما يغلب على الظن أنه صحيح منه.



نهارات فيينا (مقالات)
طارق الطيب
دار العين للنشر - القاهرة، 2015
مجموعة من المقالات التي يتأمل فيها الروائي النمساوي- السوداني طارق الطيب مجموعة من الظواهر الثقافية العربية مقارنة بأوضاع الثقافة في النمسا.



امرأة خرساء
شمسة العنزي
آفاق للنشر- الكويت، 2016
مجموعة من النصوص التي تنتمي للبوح والتعبير الذاتي من حيث المضمون وللشعر من حيث الشكل الأدبي والفني، تقدم فيها الشاعرة نقداً اجتماعياً وأسئلة وجودية وذاتية.



حكايات ونوادر الأطفال في التراث
تقديم: د. عبدالرازق حسين
دار النفائس للنشر والتوزيع - عمان
مجموعة من النصوص الأدبية مختارة من ذخيرة واسعة من التراث العربي، تجتمع على الاهتمام بالأطفال من الشعر والسرد والمواقف التاريخية المختلفة.



عصفور الماء
صبحي شحاتة
رسوم: مجدي الكفراوي
دار شجرة للنشر، 2015
مجموعة قصصية للأطفال تتناول قصة عصفور لم يتمكن من النوم، وأراد أن يتأمل العالم خلال الليل، فيتسلل من عشه ليحلق فوق الأشجار بادئاً رحلته.



ديدمونة الصغيرة
لطيفة بطي
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - سلسلة نوافذ المعرفة، 2016
مجموعة من المسرحيات المكتوبة للناشئة، أو بالأحرى عدد من اللوحات المسرحية التي تقدم أفكاراً مختلفة للناشئة في قالب مسرحي مشوق، وخيالي.



الاحتلال وإعادة بناء الدولة
د. محمد فايز فرحات
مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، 2015
محاولة لتقديم إطار نظري لفهم ظاهرة إعادة بناء الدولة تحت الاحتلال العسكري من خلال دراسة مقارنة لثلاث تجارب في كل من اليابان وأفغانستان والعراق.

مشروع أوربي ينقب عن تاريخ العرب والمسلمين في أوربا بين الحربين العالميتين

د.عبد الرحمن أبو المجد
مصر

جمعني حوار مع البروفيسور عمرو رياض، الأستاذ في جامعة أوتريخت الهولندية بمعهد البحوث للدراسات الفلسفية والدينية (OFR) - قسم الفلسفة والدراسات الدينية، تخصص الإسلام واللغة العربية. وبصفته رئيساً لمشروع بحثي في تاريخ العرب والمسلمين في أوربا فترة ما بين الحربين العالميتين (MIE)، ومدة المشروع خمس سنوات: 2014-2019 وبتمويل من مجلس البحوث الأوربي (ERC)، انعطف بنا الحوار إلى الحديث عن تاريخ العرب في أوربا والشخصيات العربية التي لعبت دوراً كبيراً بين الشرق والغرب بما لا يمكن أن يختزل باعتبارهم غرباء سلبيين تجاه ما يدور في أوربا والمناقشات الغربية الشرقية.

شخصيات كثيرة اختلف كثير حولها، وأنا أتذكر فلسفة بيتر هولوارد بأن إعادة التفكير في البحوث والدراسات التاريخية عادة ما تفصح عن جديد يجب أن يظل في صورة جديدة مؤقتة تظل أكثر توضيحاً وتحقيقاً حول أحداث الماضي وتساعد على فهم الماضي بصورة أوسع وأرحب إلى أن يستجد جديد آخر، فيضيف لهذه الصورة ما يزيد بريقها أو ما يطفئها.

من الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً بين الشرق والغرب، زكي كرام (1886-1947)، الذي ولد في دمشق وبدأ حياته في دراسة العلوم العسكرية، ثم انتقل إلى اسطنبول ليكمل دراسته العسكرية، والتحق بالجيش العثماني قائداً لإحدى الكتائب العثمانية، ثم عين قائداً لقوات البدو في شبه جزيرة سيناء، وكانت مهمته مواجهة القوات البريطانية التي كانت تخطط للزحف على فلسطين، وأصيب في إحدى المواجهات العسكرية بطلق ناري في ساقه اليسرى نقل على إثره إلى برلين عام 1917، ليستكمل علاجه، وتم بتر ساقه اليسرى من القدم إلى ما فوق الركبة في أكتوبر 1919، ثم خرج من الخدمة العسكرية وأقام في برلين وتزوج واستقر بها، إلى أن وافته المنية في أحد المستشفى الأمريكية العسكرية في برلين سنة 1946.

نشاط ثقافي متنوع

تزوجه من ألمانية واستقراره في ألمانيا جعلاه ينفتح على الجانب الثقافي ويحتك به احتكاكاً كبيراً، وكتب زكي مقالات عدة في المجلات الألمانية المتخصصة واحتك ببعض المستشرقين وكاتب وهو في ألمانيا بعض الصحف العربية، وأهمها مجلة «المنار» التي كان يرأس تحريرها الشيخ رشيد رضا، وكان على علاقة وطيدة بكثير من الأعضاء المؤسسين للمؤتمر الإسلامي الأوربي الذي عقد بجنيف في سبتمبر سنة 1935 تحت رئاسة الأمير شكيب أرسلان، وإنتاجه الصحفي في الصحف الألمانية لا يمكن أن يختزل باعتباره غريباً سلبياً تجاه ما يدور في ألمانيا وأوربا والمناقشات الشرقية العامة. تأملت رسالته لرشيد رضا وعمق بلاغته ورصانة أسلوبه بما يدلل على أنه مثقف وأديب أريب لا يقل أسلوبه عن أسلوب المنفلوطي أو المازني وغيرهما ■

Dr. ZEKI KIRAM
Berlin NW6, Karlstraße 10

برلين ١٤ نوفمبر ٩٩٢٩ Berlin, d

أستاذ الاساتذة وسنام الجهابذة منار الاسلام ومرشد المسلمين سيدي السيد رشيد رضا حفظه الله آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعده مرسل لفضيلتكم طيه نبذة عن احتجاج ثان من اليهود الالمان ضد الحركة الصهيونية . وهذه الاحتجاجات هي سلاح يهودي نستعمله ضد الصهيونية المطلوبة لدينا . واظن ان به نفع كبير لدعايتنا لكونه من اقوال اليهود انفسهم وخير السلاح هو سلاح العدو نفسه . والاسبوع القادم سأقدم لكم كلمات مفيدة لليهود انفسهم وقد استطعت جمعها منهم الليبرال الذين يحاربون الصهيونية . والاسبوع القادم الامل ان يكون لي موقف عندهم برفع الرأس . وانني وضعت كتاب بشأن السياسة الاوربية الشرقية وخصوصا الفلسطينية والصهيونية وانني انتظر اليوم نتائج طرز اعتر تحقيقها مع الهيئة التحقيقية المرسلة من لوندون لادرجها بالكتاب ليكون كاملا . ولا شك لي بأن الله حليف الحق والحق حليف الاتحاد والاتحاد حليف النصر . واتحادنا الذي ظهر على أثر اعتداء الصهيونيين سيتوج ان شاء الله بالنصر وهو المعين لنصرة دينه القويم .

سيدي . ان اطلاعي الواسع وصلاتي تدعوني المبنية على العلم والمعرفة يخولوني بالقيام بحركة قوية في سبيل الاسلام والشعوب الاسلامية والعربية وانني اعلم اعظم حرب عوان تقوم به لقتل دعايات الصهيونية والمسيحية . والجزويتية . والماسون . هي نقل كتب منتخبة من الالمانية هذه الطرق لنسائلها التي هي السلاح الماضي لمحاربة العدو وقتله به ويوجد كتب سهام مسمومة قتالة وهذه الكتب دفعت عليها هذه الجمعيات ملايين لترفعها من بين ايدي القراء وتمنع طبعها لما بها من السموم القتالة ولكن حالتي تطابق المثل العامي " العين بصيرة واليد قصيرة " . والله لو كان لي ثروة لصرفتها في سبيل الدفاع عن حقوقنا ولكن أن لي هذا ودريهماتي القليلة لا يسمحون لذلك ووقتي الذي يخطر ان اصرفه الكثير لاكتساب لمعاشي لسد باب الاحتياج . الامل من الله ان يقوي جمعياتنا ويرشدنا للطريق القويم لنقوم بالاعمال التي لابد منها والتي هي لباب الحركة الاسلامية .

هذا وارجوكم ان تتفضلوا بقبول هذا الاخ الاصغر الذي يحترمكم اجل الاحترام وادامكم الله

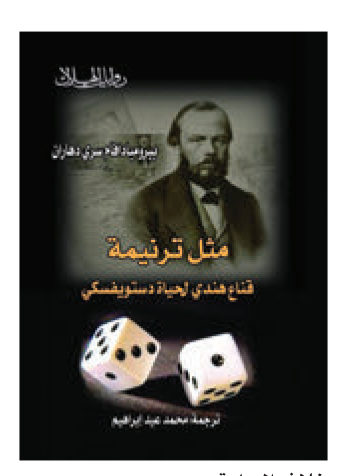
المخلص

صورة عن رسالة زكي كرام إلى الشيخ رشيد رضا

«مثل ترنيمة»... رواية هندية عن دستويفسكي تترجم للعربية

نشاد الوافي باحث من الهند

كتب بيرومبادافام سري دهاران هذه الرواية الأنيقة على ضوء حياة الأديب الشهير الروسي دستويفسكي ، ولاسيما حياته بعدما اضطر لكتابة رواية «المقامر». وكما هو معروف أن دستويفسكي كان يمارس المقامرة، ومن ثم استدان من الناس مالا طائلا حتى غدا مدينا لكثير ومن بينهم ستيلوفسكي ناشر الكتب. وهو من عرف أن ثروة دستويفسكي في موهبته، فأرغمه على أن يوقع وثيقة تجيز له جميع حقوق ما يكتبه لمدة تسع سنوات تالية على الرغم من إتمام رواية تشتمل على 160 صفحة قبل الأول من نوفمبر عام 1866م. ولسوء الحظ باءت محاولات دستويفسكي لكتابة صفحة واحدة بالفشل وأسدى له أصدقاؤه النصيحة بتعيين كاتبة آلة لتساعده في العمل. فاختار



غلاف الرواية

آنا التي أصبحت زوجته.

يقول دهاران «حاولت معالجة حياة دي ستويفي سكي من جانب معاكس لما يبدو في سيرته الذاتية، ففيها نجده مدمن الخمر والمقامرة وسيئ الخلق يعيش كما يرى، وهذه هي الصورة التي يقدمها إلينا مؤرخو سيرته. ولكن هذه الرواية تبذل الجهد في اكتشاف أبعاد حياة دستويفسكي الأخلاقية، فقد أقلقتني انقلابات قلبه والفقر القاتل والأمراض التي عانى منها. ورأيت في دستويفسكي إنسانا أخلاقياً زكته المعاناة المعذِّبة. وفي نظرتي أنه رجل شديد الأخلاقية فكيف يكتب رجل مسيء رواية مثل «الجريمة والعقاب» و«الإخوة كارامازوف» و«الأبله»؟! ونرى هذا بين الأسطر حين يسأل دستويفسكي زوجته عن المقاييس التي نعتمد عليها في اختيار شخص حسن وسيئ «أنا ولدت في الطبقة السفلى هل هي جريمة ارتكبتها؟ هل نختار ولادتنا؟ وهل لنا حرية كاملة لاختيار أب وأم وأسرة نحبها؟ أنا فقير وما اخترت الفقر،... وما هو سر الكرماء هل هم كرماء في الحقيقة؟ وكم من دنيء بينهم؟! وكم من شريف

«مثل ترنيمة»

الكاتب والمترجم المصري يزف ببشرى للهنود عامة والكيراليين خاصة بترجمة رواية مليالمية، وهي رواية شهيرة كتبها بيرومبادافام سري دهاران، رئيس أكاديمية الأدب الكيرالي، نشرت طبعتها الثانية سلسلة «روايات الهلال، شهر فبراير 2015م» والتي حازت جائزة وَيَلار الأدبية لعام 1996م. وصدرت باللغة المليالمية عام 1993م وأعيدت طباعتها على الأقل أربع وخمسينٍ مرة وبيع خلال 12 عاماً مليون نسخة. اجتازت هذه الرواية حدود الدولة في المرة الأولى لتصبح جزءاً من عالم الأدب العربي بعد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية حين صممت هيئة أبوظبي للثقافة والتراث عام 2010م على نشرها.

بين الأدنياء الذين طبع عليهم المجتمع طبعة الدناءة؟... رأيت بين الكرماء القاتلين والمجنونين والمسيئين، ورأيت بين المنبوذين الأتقياء والشرفاء، هل تظنين أن جميع من يجلس على الكراسي المحترمة أشخاص أذكياء؟، هل لهم حق لذلك؟... أحياناً أفكر أن الفقر والدناءة شيء محترم».

ومرة أخرى يقول عن المقامرة «يقول الناس إنني مدمن مقامرة، هل يدرون أن الحياة من الألف إلى الياء مقامرة يلعبها الناس، فالبعض يفوز والبعض الآخر يخسر؟».

يقول المترجم محمد عيد إبراهيم عن هذا العمل «واجهت في ترجمة الرواية الهندية، (مثل ترنيمة)، كلمات هندية، ذللها لي الأستاذ قدسي، إضافة إلى مقاطع من الكتاب المقدس، أتيت بمثيلاتها من الترجمة العربية الشائعة في الكنائس المصرية، مع ترجمة مقاطع أخرى من الأشعار التي كان يتمثّلها دستويفسكي، ما وهبني سعادة فائقة، حيث إن رواية الكاتب الكبير سري دهاران تعدّ علامة فارقة ونموذجاً باهراً في كيفية وضع قناع من كاتب أجنبيّ بسيرة مختلفة عن الكاتب والخوض في تفاصيلها، فكأن كاتبها هو الشخص المكتوب عنه، وقد لاقت الترجمة العربية حظاً كبيراً في انتشارها، وأجمعت عليها الصحف المصرية والعربية، وباعت آلافاً من النسخ في مؤسسة كلمة في أبوظبي وفي مؤسسة دار الهلال في القاهرة» ■

الكاتب بيرومبادافام سري دهاران

ولد بيرومبادافام سري دهاران في قرية بيرومبادافام بمنطقة موواتبوزا Movatupuzha يوم 12 فبراير 1938م. وقد ترعرع على حب الأدب العارم منذ نعومة أظفاره، وبدأ مسيرته الأدبية بقرض الشعر ثم تحول إلى كتابة القصص والروايات، وكتب السيناريو لنحو 12 فيلماً. بالرغم من أنه ألف 12 قصة قصيرة، فإنه ترك روايات عديدة ذات قيمة يبلغ عددها حوالي الثلاثين. وحصل على جوائز أدبية ونقدية عدة، منها جائزة كيرالا للفيلم، وجائزة النقد السينمائي، وجائزة هيئة أدب الأطفال وجائزة أكاديمية الأدب الكيرالي، وجائزة صوت الكيرالا. أما روايته «مثل ترنيمة»، فحصلت على جوائز مرموقة عدة، منها: جائزة وَيَلار، وجائزة نادي الأدب المليالمي في أبوظبي، وجائزة شاكتى أبوظبي، وجائزة ثقافية كيرالية، وجائزة نادي الأدب المليالمي بمسقط، وجائزة كاويا مندالام، وجائزة الشاعر الأعظم جي التذكارية، وجائزة وي دي بادياتيريباد الأدبية التذكارية. وعمل سري دهاران عضوا في أكاديمية الأدب الكيرالي وهيئة رقابة السينما وهيئة إدارية في جمعية تعاون الأدب الكيرالي، ويعمل حاليا رئيس أكاديمية الأدب الكيرالي. وترجمت مجموعة من أعماله إلى اللغات الأجنبية ولغات الهند المختلفة.

المترجم محمد عيد إبراهيم

ولد في حي حدائق القبة بالقاهرة في 12 مايو 1955م. تخرج في كلية الإعلام - قسم الصحافة بجامعة القاهرة سنة 1978م. وصدر له 13 ديوانا و14 ديوانا مترجما وترجم نحو 25 رواية و7 مجموعات قصصية، بالإضافة إلى خمس مسرحيات وسبعة كتب نقدية وخمس قصص أطفال، وتمت ترجمة كثير من أشعاره إلى اللغات العالمية. وهو من الأدباء النوادر الذين ترجموا الأعمال إلى اللغة الإنجليزية، وأنشأ محمد عيد إبراهيم «أصوات» الشعرية عام 1978م ومجلة السوداء عام 1980م. وأشرف على تحرير سلسلة «آفاق الترجمة» في هيئة قصور الثقافة بالقاهرة وعمل مديراً لتحريرها من عام 1996م إلى عام 1998م. ثم عمل مديراً تنفيذياً على «المشروع القومي للترجمة» بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة بين عامي 1998و1999. وعمل محمد عيد إبراهيم محررا ومترجما في عدد من الصحف العربية في دولة الإمارات.

غربة الروح والجسد في «أطفال بلا دموع»

نسرين البخشونجي مصر

هل الغربة عن الوطن هي سبب شعورنا بالوحدة أم نشعر بالوحدة لغربتنا عن أنفسنا؟ أسئلة يطرحها الكاتب علاء الديب، الذي رحل عن عالمنا في فبراير الماضي، في روايته الأولى «أطفال بلا دموع»، من خلال قصة د. منير فكار، أستاذ الأدب المعار إلى إحدى دول الخليج منذ عشر سنوات. البطل يحكي في تدفق سردي معاناته مع الحياة ومحاولاته أن ينجح في جمع المال الوفير، وأن يظل محافظاً على الصورة الخارجية التي رسمها لنفسه. لكنه في وسط دوامة جمع المال والغربة، تاهت منه معانٍ كثيرة للحياة، أهمها أن يكونَ إنساناً.

بين مشهد المحطة في بلدته الصغيرة «كفر شوق» وذاكرته علاقة غرامية، فالصورة التي لا يحاول أن يتذكرها تستدعي نفسها تلقائياً بمناسبة ومن دون مناسبة. ربما لتؤكد شعوره النفسي بالغربة، والرغبة في العودة إلى حيث ينتمي على الرغم من أنه، هو نفسه، يريد أن يبتعد، أن يفر من ماضيه وطفولته، أن يفر من علاقته برجب الذي



كان يبيع قطع حلوى وأشياء

علاء الديب

بسيطة يشتريها العابرون في المحطة. كان رجب يحكي لمنير، الطفل الصغير، عن الذهب الذي خطف بصر ابنته حين دخلت الكهف بحثاً عن أمها، التي ماتت داخله وتمزق جسدها. حكى له عن الساحر المغربي الذي مشت خلفه ابنته الضريرة ولم تعد، وعن الديك الذي يرقص مذبوحاً ويتناثر دمه على المارين.

تعثرت حياة د. منير الزوجية وانهارت، فهو يكره زوجته سناء الأستاذة الجامعية، ففي أثناء السرد سينطق بالحقيقة. مشكلتها الوحيدة أنها تريد أن تعيش حياتها، أن تنفق المال الذي تجنيه، أن تتمتع، بينما هو يعكف على جمع المال وتلك هي مهمته الوحيدة. لهذا استنكر أفعالها، البغيضة من وجهة نظره، إذ كانت تشتري لطفليهما لعباً وملابس، لذا صارت الحياة بينهما مستحيلة.

«انتهت شهور الإجازة كأنها سيجارة قديمة، بلا مذاق»... يشعر منير أنه عائد لوطنه الثاني من دون أن ينجز أشياء مهمة، وكأن الوقت ابتلع إجازته ولم يمهله فرصة. فلم يزر والده الضرير بكفر شوق، ولم يرَ طفليه، وبالتالي لم يعطهما الهدايا التي اشتراها لهما. هذا ما يراه بينما الحقيقة أنه ظل يكتب المقالات التي سينشرها في الجرائد القاهرية في ذلك «البانسيون» الرخيص بوسط البلد. وبضعة أيام قضاها في الإسكندرية في محاولة للبحث عن رجب. حين توشك الرواية على الانتهاء، يقول د.منير «لم أصرف في هذه الرحلة نصف ما قدرت، الدولارات في جيبي صحيحة،

ونقود مصرية كثيرة وهم جميعاً هنا يشتكون من الغلاء والفقر»، في إشارة لبخله. ولهذا السبب أيضا ارتكب د.منير بعض الآثام، لكنه لم يلعب القمار أبداً، لأنه يحترم المال.

«أطفال بلا دموع» رواية مكتوبة في حقبة أواخر سبعينيات القرن الماضي، مع بداية سفر المصريين للعمل بالخارج، الذي ترتب عليه تغيير الأفكار والمستويات المجتمعية، وظهور شركات توظيف الأموال على سبيل المثال. في الوقت ذاته انتشرت صورة الطفل الباكي في البيوت المصرية، تلك الصورة المرسومة لطفل تسيل من عينه دمعة واحدة. الغريب أن أصدقاءه المغتربين طلبوا منه أن يحضر لهم من مصر نسخاً من هذه الصورة.

عناء الرغبة في الكتابة الإبداعية دون أن يتمخض عمل حقيقي كان أحد عذابات



د.منير، لطالما حلم بأن يكون كاتباً ومبدعاً، لكن الأبحاث والمقالات المتخصصة خطفته من حلمه، وظل يحاول بقدر ما يستطيع أن ينهي مجموعة قصصية أراد أن يكتب آخر قصة فيها عن الغربة، لكنه لم ينجح. في مكاشفة بديعة، سرد د. منير أنه اعتاد كتابة المقالات الباهرة التي تتكون من مقدمة مختلفة ونهاية بديعة، بينما القلب مجرد مضغ كلام، مجرد كلام فارغ بلا قيمة حقيقية. لكن هذه المقالات تعجب زملاءه وتجلب له مالاً إضافياً.

الرواية ممتلئة بمشاعر الحزن والفقد، ومحاولات للبحث عن ذات مفقودة بفعل الزمن والغربة. ومكتوبة بلغة شعرية شفيفة وكأنها «مونودراما». «أطفال بلا دموع» رواية ضمن ثلاثية، يحكي د.منير القصة من وجهة نظره، ثم «قمر على المستنقع»، حيث تروي الزوجة الأحداث، ثم «عيون البنفسج» التي يرويها تامر ابن منير الذي صار شاعراً. تم تجميع الروايات الثلاث في كتاب واحد عام 2009 صدر عن دار الشروق المصرية.

ولد علاء الدين حسب الله الديب بالقاهرة عام 1939، وهو كاتب صحفي، مترجم وأديب. اشتهر بعموده الثقافي «عصير الكتب»، وحصل الراحل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2001 ■

عسل النون...
أسئلة عن الوجود والإنسان

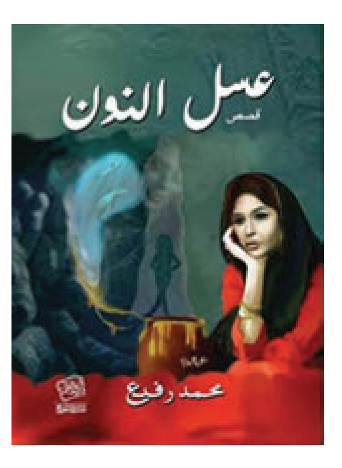
يحتفي الكاتب محمد رفيع في مجموعته القصصية الأحدث «عسل النون» بالأنثى، بداية من الإهداء/الولوج، ثم المفتتح «يا نون، يا حبلى بنقطة التكوين»، حتى إهداء الخروج. إحدى وعشرون قصة قصيرة تختلف في طريقة السرد وطرح الفكرة، ولكن يبقى «السؤال» السمة الأساسية الغالبة في النصوص. فرفيع لا يكتفي أبداً بسرد الحكايات ليمتّع القارئ، بل يدفعه دائما نحو فوهة الأسئلة التي يطرحها داخل النص، مثل قصة مكاشفة «هل خجل نزيف الدم في رأس الولد من الدماء الهاربة في عروق الأم؟» و«هل تظنون أن كل ما سألت عنه لم يكن هناك؟».

تظل القراءة لمحمد رفيع تعني أننا أمام نص ذي مستويات عدة،

أهمها البعد الفلسفي والصوفي، علاوة على اللغة وتناول الفكرة من زاوية مختلفة وجذابة، وهو الأسلوب الذي يعتمده رفيع في كتاباته بشكل عام، على سبيل المثال مجموعته القصصية «أبهة الماء».

«ما قاله حكائيل لي» عبارة عن متتالية تتكون من سبع قصص علاوة على المفتتح «ما قبل الحكاية» والختام «غيبوبة الجنة»، يتناول فيها الكاتب فكرة الموت والحياة، الجنة والنار، خيارات الحياة ومساراتها «إن كان النوم موتاً مؤقتاً، فالغيبوبة موت مؤجل». فمثلا في الحكاية الثالثة كتب رفيع، «كيف أصف الأرض؟ هل أقول لها إنها مثل الجنة حين يحل السلام؟ وكالسعير حين تمتلئ بالحروب والجوع؟، مددت يدي نحو التفاحة، هل أعود للأرض ثانية وأعرى وأشقى؟ أين إبليس ليخدعني؟ أين الخضر ليرشدني؟».

استخدم رفيع الأسطورة اليونانية الشهيرة نرسيس في قصة بعنوان «نرسيس الجديد»، تناول فيها قصة الدكتور آدم النابغة الذي يجري اختبارات وأبحاثاً غيّرت وجه العالم، حتى بدأ في إجراء عمليات التحول الجنسي لبعض المواطنين فامتلأت ساحات المحاكم بالقضايا الخاصة بالنسب والإرث. ولكنه (الدكتور آدم) لم يتوقف عند ذلك، بل صار يجري هذا التحول على نفسه عن طريق محلول، ينام بعدها ثلاثة



أيام فيتحول لأنثى والعكس، رغبة منه في دراسة تأثير التحول الجنسي على المشاعر، التذوق وغيرهما. وسمى الفتاة التي يكونها «ليليت». ظل «آدم يفعل ذلك ويصور ما يحدث بكاميرا الفيديو كي يدوّن كل شيء. لكنه وقع في حب «ليليت» التي يراها الأنثى المكتملة. «ترك آدم البحث في الحقائق وتفرغ للحب» ووقعت «ليليت» كذلك في حب «آدم». «والغريب أنها كانت تسأل نفسها: هل آدم في الضفة الأخرى ينتظر؟ هل يتعذب مثلي؟». وفي النهاية مات وعلى قبره كتبت عبارة «هنا يرقد آدم وليليت».

في جزء آخر مكون من ثلاث قصص يحمل عنوانا فرعيا «كلل الكاف»، نجد قصة «زمن الهولو» التي تتحدث عن قصة حب نمت وانتهت عبر أسلاك الحاسوب، فالهولو تقنية حولت الدنيا إلى عالم افتراضي. عمر البطل ذو العشرين عاما يمثل دور نابليون بونابرت في برنامج تعليمي في المدارس، من خلال الهولو يبدو للأطفال أن بونابرت هو الذي يروي لهم قصته، بينما عمر «الممثل» نائم بالبيت. كان البطل مستقراً ولكن حياته تغيرت حين دخلت عليه جدته الغرفة وهو في وضع جنسي افتراضي، ماتت الجدة من هول الصدمة، فتحول الشاب إلى مجرم افتراضي.

يظل رفيع قادرا على إدهاش القارئ والمدهش ليس فقط تكنيك الكتابة ولا حتى اللغة التي يعتني بها الكاتب بشكل بالغ، ولكن في طرح الفكرة نفسها. فالحدث البسيط «سقوط البطل على الأرض» هو الحدث الرئيس في القصة، ولكن طريقة التناول هي التي أعطت للنص خصوصيته وبهاءه. «قمت من وقيعتي، وأحسست بحلاوة تصعد إلى فمي، ونظرت لعيني القطة التي أطلت برأسها من داخل كيس السمك كي تودعني، وسرت راضيا لأن كلمني بصوت العصافير وعيني القطة الناعسة ورضا الناس ودموع البنت الملتاعة حين جفت، واختفت البنت».

خصص الكاتب الجزء الأخير من مجموعته «عسل النون» لباب يحمل العنوان نفسه، يحتوي على أربع قصص مؤلمة «الهاتف»، «عشاءات»، «الآنسة كيوبيد» و«في أنوثة كهرباء». ترتبط القصص الأربع بفكرة واحدة هي الأنثى الوحيدة المحرومة من الأمومة. فبين راهبة رغبت في ابن فطردت من الدير وعاشت ما بقي من حياتها وحيدة. وثلاث عجائز ينتظرن الموت فيأكلن كل



يوم عشاءهن الأخير ويحكين الحكاية ذاتها يوميا. وأنثى تتمنى أن تعثر على نصفها الآخر ولم تجده مع أنها كانت سببًا في قصص حب كثيرة نتج عنها أكثر من خمسين طفلاً، وأخرى حركتها إنسانيتها حين ارتدت معطفاً من الفرو الحقيقي فاكتشفت أن الصياد كان عديم الإنسانية «هل أحست المرأة في تلك اللحظة التي ارتدت فيها المعطف بلهفتها على الجراء وكأنها أولادها الذين لم يأتوا؟ هل تمنت أن ترضعها؟ هل حكى الفراء لكتفيها قصة الأنثى المغدورة؟».

إهداء الخروج من المجموعة القصصية «عسل النون» للكاتب محمد رفيع، كان إلى نساء كثيرات، منهن سعاد حسني، فيروز الرحبانية، فاتن حمامة، أم كلثوم وفايزة أحمد.

محمد رفيع كاتب مصري، صدرت له رواية واحدة بعنوان «ساحل الغواية» وأربع مجموعات قصصية. صدرت مجموعته القصصية «عسل النون» أخيراً عن دار روافد للنشر والتوزيع بالقاهرة، وتقع في 99 صفحة من القطع المتوسط ■

لست أقدر على المنع

قال ابن خالويه (النحوي خَصم المتنبي في مجلس سيف الدولة) يوماً مخاطباً المتنبي: لولا ابن أخي جاهل لما رضي أن يُدعى بالمتنبي، لأن معنى المتنبي الكاذب، ومن رضي أن يُدعى بالكذب، فهو جاهل. فقال له المتنبي: لست أرضى أن أُدعى بذلك، وإنما يدعوني من يريد الغضّ مني، ولست أقدر على المنع.

أسنانها تطحن الحجر:

قال شاعر يهجو زوجته:

لي عجوز كأنها الـ ... ـبدرُ في ليلة المطرْ
ناطق عن جميع أعـ ... ـضائها شاهد الكبرْ
غير أضراسها ففيـ ... ـها لذي اللب مُعتبرْ
أعْظُم غير أنها ... أعظم تطحن الحجرْ

حجة داحضة

كان أصحاب أبي علي الثقفي الفقيه إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حُجة، فعرضت لهم امرأة قبيحة فقالوا: داحضة.

سقف

قيل لأعرابي: أتعرف النجوم؟ قال: وهل يجهل أحد سقف بيته.

تشبهاً بالعرب

يذكر صاحب معجم الأدباء عن محمد بن أحمد أبو الندي الغندجاني اللغوي، أنه غاب عن أهله مدة، وأقام في البادية سنين عدة، وعاد يروي ويخبر، وكان له ابن، فأخذ يطليه بالزيت، ويوقفه في شمس القيظ بالغندجان (بلدة في فارس) وهي حارة جداً، ولم يزل يفعل به ذلك، ليكون أسمر اللون كالعرب، حتى مات ذلك المسكين.

في مديح الرغيف

يقول شاعر طفيلي مادحاً الرغيف:

دع عنك لومي يا عذول ... فلست أفهم ما تقول
إن الرغيف محبب ... في الناس مطلبه جميل
لاسيما إن كان وسط ... حروفه عرق نبيل.

لقد شككتني

قال أشعب: دخلت على سالم بن عبدالله بن عمر، فقال: حُملت إلينا هريسة، وأنا صائم، فاقعد كُلّ، فأمعنت، فقال: أرفق فما بقي يُحمل معك، فرجعت إلى بيتي ومعي ما تبقى من الهريسة، فقالت المرأة: يا مشؤوم بعث عبدالله بن عمرو بن عثمان يطلبك، وقلت: إنك مريض. فقلت: أحسنت. فدخلت حماماً وتموجت بدهن وصفرة، وعصبت رأسي، وأخذت قصبي أتوكأ عليها وأتيته، فقال

عبدالله: لماذا تأخرت علينا؟ قلت: جُعلت فداك ما قمت منذ شهرين، وعنده سالم بن عبدالله بن عمر صاحب الهريسة، ولم أشعر، فقال: ويحك يا أشعب، وغضب وخرج، فقال عبدالله: ما غضب خالي سالم إلاّ من شيء، فاعترفت له، فضحك هو وجلساؤه، فخرجت، فلقيت سالماً، فقال: ويحك ألم تأكل عندي الهريسة؟! قلت بلى، فقال: والله لقد شككتني.

حيلة

ذكر أبو محمد القرعاني في تاريخه، أن المأمون أصاب بخراسان كانونا من الذهب مرصعا بالجواهر قيل إنه ليزدجر بن شهريار الفارسي، فقال ذو الرئاستين (الفضل بن سهيل بن الصولت): يا أمير المؤمنين، الرأي أن تجعله في الكعبة يوقد فيه العود (البخور) بالليل والنهار، فقال المأمون أفعل، وأمر بحمل الكانون إلى مكة المكرمة واتصل الخبر بيزيد ابن هارون المُحَدِّث فأمر مستمليه (كاتبه) أن يقف يوم الخميس عند اجتماع الناس وأصحاب الحديث فيشكر المأمون ويدعو له ويخبر بخبر الكانون ففعل ذلك. فلما سمع يزيد كلامه صاح وانتهره وقال له: ويلك اسكت إن أمير المؤمنين أجل قدرا وأعلم بالله عز وجل من أن يجعل بيته تعالى بيت نار (كالمجوس) فكتب أصحاب البريد بذلك إلى المأمون فأمر بكسر الكانون وبطل ما دبره ذو الرئاستين!

راكب البحر

قيل لأعرابي ركب البحر: ما أعجب ما رأيت؟ قال: سلامتي.

فرسان ورجالة

قال الأصمعي: مررت بأعرابي في البادية، فرأيته يفلي ثوبه، فيلتقط البراغيث ويدع القمل، فقلتُ له في ذلك. فقال: أبدأ بالفرسان ثم أثني بالرجَّالة.



كيف؟

ذهب رجل للإمام الشافعي وقال: كيف يكون إبليس من نار ويعذبه الله بالنار؟ فأحضر قطعة من الطين وقذفه بها، ثم قال: كيف تكون مخلوقاً من طين ويؤلمك؟

لئيم

كان العرب يعتبرون اللبن كالماء لا يباع، وقد حدث أن مر رجل بامرأة من العرب في بادية، فقال لها: هل من لبن يباع؟ فقالت له: إنك لئيم أو قريب عهد بقوم لئام!

الكتاب الطائر

يروى أن المستنصر باللَّه، أحد ملوك الأندلس، لما سمع بعكوف أبي الفرج الأصفهاني وهو ببغداد على تأليف بعض كتبه في تاريخ الأدب وفنونه، بعث إليه بألف دينار على أن يوجه له نسخة من الكتاب فور تأليفه، يقول المقري: فطار الكتاب إلى الأندلس قبل أن تتلقفه أيدي الوراقين ببغداد ■





تأمين على العرش

لعل الملك الوحيد في العالم الذي أمّن على «عرشه» هو براخاد هيبوك، الذي حكم دولة سيام بجنوب شرقي آسيا قبل أن يتغير اسمها، حيث اتفق مع شركتين للتأمين على دفع أقساط معينة، طالما ظل محتفظاً بكرسي الحكم، فإذا أبعد عن الحكم لسبب من الأسباب، دفعت له الشركتان تعويضاً اتفق عليه.

وقد ظل الملك براخاد يحكم مملكة سيام لنحو عشر سنوات من 1925 حتى 1935 حين أرغم على التنازل عن عرشه، فقبض مبلغاً كبيراً من المال، مكّنه من العيش في يسر وبذخ حتى توفي سنة 1941.

بين الشاعر والأمير

كان الشاعر الفرنسي لافونتين كثير النسيان، وحدث أن نسي مرة دعوة كان الأمير «كونديه» وجهها إليه لتناول العشاء معه، فغضب الأمير غضباً شديداً، ولما ذهب الشاعر إلى قصره كي يعتذر إليه، رفض الأمير مصافحته، وأدار له ظهره.

وهنا ضحك لافونتين وقال له: «شكراً لك يا مولاي، لقد أيقنت الآن أنك راض عني، ومازلت تعاملني معاملة الأصدقاء، إذ لم يُعرف عنك أنك تدير ظهرك للأعداء!».

وهنا لم يسع الأمير إلا أن يصافح الشاعر وهو يبتسم.

البحث عن عنوان!

طلب أحد الأدباء الشبان إلى الروائي الأسكتلندي الشهير «ج.م.باري» أن يرشده إلى عنوان جذاب لكتاب جديد انتهى من تأليفه. فسأله باري: «هل ذكرت في الكتاب شيئاً عن الطبول أو المزامير؟». ولما أجاب الأديب الشاب بالنفي، قال له باري: إذن، فليكن اسم كتابك: «لا طبول ولا مزامير».

قصائد حب

ألَّف أحد الشعراء الروس كتاباً، في عهد ستالين، يتضمن مجموعة قصائد غرامية، يناجي فيها الشاعر حبيبته، وأهدى الناشر - كالمعتاد - نسخة منه إلى ستالين، فقال ستالين للناشر بعد أن اطلع على الكتاب:



«مثل هذه الكتب لا يصح أن يطبع منها أكثر من نسختين... نسخة للعاشق، وأخرى للعشيقة».

وسرعان ما سُحب الكتاب من المكتبات.

قرأت كتابك

قالت سيدة لبرنارد شو مرة:

«لقد قرأت كتابك الأخير ثلاث مرات».

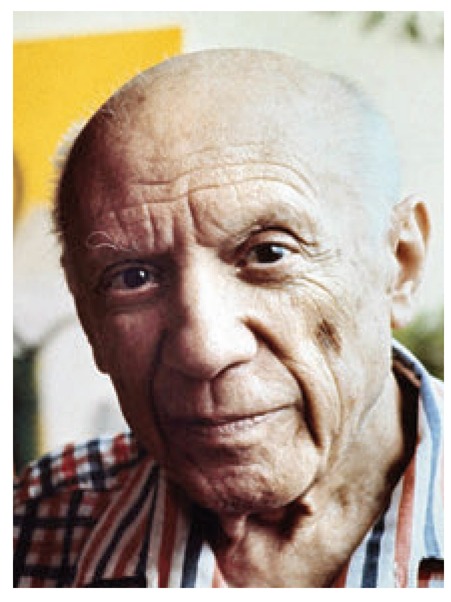
فقال لها برنارد شو:

«كنت أفضِّل أن تشتريه ثلاث مرات!».

باخرة تحترق

حدث أن اشتعلت النار ذات ليلة في باخرة إنجليزية كان يقودها الضابط البحار الإنجليزي ماكريجور عام 1825م، فلما تحقق ألا سبيل إلى النجاة، كتب رسالة ألقى بها إلى البحر في زجاجة مغلقة وقال فيها: «إن السفينة تحترق بالقرب من الساحل الفرنسي، إليزابيث وجوانا - زوجته وأخته - وأنا نسلم أرواحنا الآن وديعة في يد الخالق الذي نرجو أن يغفر لنا آثامنا ويمحو معاصينا ويقبلنا في الفردوس».

وبعد ساعتين نجا ماكريجور وأسرته بأعجوبة، وعادوا سالمين إلى إنجلترا. وبعد مرور ثمانية عشر شهراً عثر أحد المستحمين على الشاطئ الفرنسي على تلك الزجاجة فبعث بها إلى المسؤولين بإنجلترا. واعترف ماكريجور بأن الرسالة هي رسالته نفسها، وقد أهداها للشركة التي كانت تملك السفينة.



بيكاسو يقلد نفسه

أراد أحد أصدقاء الفنان العبقري بابلو بيكاسو أن يداعبه، فطلب منه أن يفحص ثلاث لوحات كان قد أهداها له بيكاسو من قبل، ليؤكد له إن كانت حقاً من عمله، ولم ينتبه الفنان، بل شرع يفحص اللوحات، وأخيرا قال:

- من الواضح أن هذه اللوحات مقلدة.

فقال صديقه في ثقة:

ولكنك أنت الذي أعطيتنيها منذ فترة طويلة، وأنا أردت أن أختبر ذاكرتك فقط.

أعاد بيكاسو فحص اللوحات، ثم قال بهدوء:

- حقاً إن الإنسان يقلد نفسه أحياناً! ■



مع الإسلام الصحيح وضد السلوك الخاطئ



«الإسلاموفوبيا»
المخاوف الجديدة من الإسلام في فرنسا

تأليف: فنسان جيسير
عرض: د. نزار العاني

هذا الكتاب جاء متأخراً جداً وخير أنه جاء، وكقارئ وكاتب تعود بي الذاكرة إلى خمسينيات القرن الماضي، وما ظهر حينذاك من كتب عربية ومترجمة لمستشرقين كبار تعيد النظر في موقع الإسلام وفكره وعقائده في عصر شديد الاضطراب بعد الحربين العالميتين وانهيار الإمبراطورية العثمانية التي تدثرت وتحصنت بالإسلام، وترك انهيارها فراغاً استجرّ قوى وأفكاراً وعوامل تحت عنوان «الحداثة» و«العصرنة» أفضت إلى مشاعية سياسية وفكرية واجتماعية لم تضبط أمورها في أنساق حضارية ومعرفية منتجة حتى يومنا هذا.

السيّد رئيس تحرير مجلّة «العربي» الغرّاء، تحيّة طيبة وبعد، تعليقاً على الإيجاز الوافي المنشور في العدد 692 (يوليو 2016) بعنوان «قراءة في كتاب الإسلاموفوبيا.... المخاوف الجديدة من الإسلام في فرنسا»، بقلم د. نزار العاني، أود الإشارة إلى ما يلي:

لم تعد ظاهرة الإسلاموفوبيا مقتصرةً على العالم الغربي الذي يقيم فيه المهاجرون المسلمون ويفجرون، بقدر ما باتت ظاهرةً واضحة داخل دول العالم الإسلامي ذاته، من بنغلاديش حتى المغرب. وهي في الحالتين لا تمثّل موقفاً ضد الإسلام كديانة يعتنقها ملايين البشر، وإنّما ضد سلوكيّات وممارسات لشرائح كبيرة من المسلمين، حيث وُجدوا، إنّ في بلدانهم أو في بلاد مهاجرهم، انتشرت واستفحلت في العقدين الأخيرين، تقوم على التأويل والفهم المشوّه للدين، الذي جرى التأسيس له وفرضه منذ القرن الثاني عشر الميلادي على يد أبي حامد الغزالي ومَن تبعه من «فقهاء وعلماء»، الذي أدخل الأمّة مذّاك في سبات كرّس تخلّفها عن سائر أمم الأرض، واستفاق اليوم ليجهز ربّما على آخر أنفاسها... ولعلّ القراءة المعمّقة لوقائع الأمور وسيرورتها، تفصح أنّ هذه «الفوبيا» ليس مصدرها أهل الإسلام عموماً، بطوائفهم ومللهم وتفرّعاتهم، بقدر ما أنّ مصدرَها هو أهل الإسلام الأشعري تحديداً، الذي بات هو «الإسلام السائد» في الجزء الأكبر من العالم الإسلامي خلال القرون التسعة الفائتة. في العالم الغربي، ومع الإقرار بدور أصحاب المصالح الذين أشار إليهم الكاتب في تكريس واستثمار ظاهرة الإسلاموفوبيا، فإنّ المسلمين المهاجرين قدّموا من المسوغات والمبرّرات ما لا يُحتاج معه للنفخ فيه، في الوقت ذاته الذي قدّم فيه إخوانهم المقيمون في بلدانهم الأصلية ما هو أبشع. يصل أغلب المهاجرين إلى بلدان نزوحهم حاملين معهم مفاهيم ومعتقدات تربّوا عليها في بلدانهم، تقوم بشكل أساسي على

تأويلات الأشعريّة ومفاهيمها.

وغالباً ما تشكّل هذه المفاهيم أوّل العوائق أمام الاندماج والتعايش في ومع المجتمعات الحاضنة لهم، وتعمّق الإحساس بالعزلة والانكفاء، بحيث يصبح بيت العائلة الحصن المنيع في بيئة مُكفّرة سلفاً، والموجّه الرئيس للأبناء والصائغ لمفاهيمهم، ليتدخّل المسجد بعدها في تأصيل العدوانيّة تجاه «الكفّار» المجاورين، وفي تكريس «الجهاد» تجاه هؤلاء كمدخل حصري لجنّة موعودة.

وإذا كان بالإمكان، من الناحية النظريّة، أن يتخلّص الغرب من هذه المشكلة، أو أن ينجح في معالجتها، كون البيئة رافضة لها، والسلطات تضع الخطط لمواجهتها، فإنّ الأمر أكثر صعوبة في بلدان العالم الإسلامي، حيث البيئة والسلطة والمؤسّسات حاضنة على الغالب لها، ومعيقة فاعلة لمشاريع التنوير التي تجهد لخلق وعي صحيح وسليم للإسلام الحقيقي الذي جاء به سيدنا محمّد بن عبدالله ﷺ.

كلّي أمل أن تتابع مجلّة «العربي» دورَها الرائد والفاعل، مع إيلاء المساحة الأكبر لأطروحات التنوير.

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام ■

وضّاح صائب - سورية

تنويه

ترد استفسارات من كثير من قراء «العربي» (محمود أحمد الورداني، عبدالرحمن محمد، د. هواش نصر الصالح، سعيد حمادة) ومن أكثر من بلد، مصر، سورية والسعودية... حول توزيع أعداد مجلة العربي ووصولها إلى أكشاك البيع، وهم غيورون فعلاً بهذه اللهفة على بقاء المجلة في مقدم الركب الثقافي والمعرفي، والمجلة إذ تعتذر لقرائها وكتابها ومتابعيها عن هذا الطارئ الذي لا تستطيع ضبط مفاصله، لتَعِد المحبين أنها ستتلافى هذا الطارئ وتتابع البحث عن الحلول المكنة.

رواء الروح في وادي الحياة

لـما تفتـتَ فـي الظـلام وجيب
قلبك ما بكيتْ
أتراكَ عانقتَ الركوع
رسـمتَ للصمـتِ المهيمـنِ في
العراء ظلالَ بيتٌ
أتراكَ خاصمتَ البكاء
أم ارتعدتَ؟
وحين ساءلك الأنين عن البكاء
هتفت في أسفٍ:
نسيتْ!

***

يا ويل قلبي من دجاه
ومن سرابِ ألتقيه
على رباه
ظمآن
يبحث عن رواء الروح
في وادي الحياة
ما نال بعضاً من مناه
وما ارتويت!

***

تبـدو السـفيـنـة والضـبـاب
وقبضة الليل العنيدْ
الشمس تشرق من جديد
لكن كف الموج قيد
قد أحاط جدار روحك عاتياً
مهما نأيتْ!

***

ولقـد نظرت إلـى الأمور بعين
خوف
فاكتَويتْ
وهـبّ ليـلٌ مـن حريـق الوهم
يصبغ ما رأيتْ
فهتفت وحدي
والمدى بحر المتاهة والأنين
أنا انتهيتْ
ثم انتبهت لصوت صبح
قد تدفق في الفؤاد مبشِّراً
فسجدت للرحمن شكراً
أنني قد عدت حياً من جديد
لقد حييتْ! ■

محمد عباس علي داود- مصر

ضع علامة ✓ أمام المطبوعة المطلوب الاشتراك فيها

(١) قيمة الاشتراك السنوي لـ «العربي» للمشتركين من الوطن العربي:
٨ دنانير أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي.
باقي دول العالم ١٠ دنانير أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي أو اليورو الأوربي.

(٢) قيمة الاشتراك السنوي لـ «العربي الصغير» للمشتركين من الوطن العربي:
٦ دنانير أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي.
باقي دول العالم ٨ دنانير أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي أو اليورو الأوربي.

(٣) قيمة الاشتراك في كتاب العربي: ٥ دنانير أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي
باقي دول العالم ١٦ دولارًا أمريكيًا.

توقيع طالب الاشتراك:

ترسل قيمة الاشتراك بموجب **حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام**
مع القسيمة على العنوان التالي:
مجلة العربي - قسم الاشتراكات

دولة الكويت - ص.ب: ٧٤٨ - الصفاة - الرمز البريدي ١٣٠٠٨ - بدالة: ٢٢٥١٢٠٨٦/٨٢/٨١ (٠٠٩٦٥) - فاكس: ٢٢٥١٢٠٤٤ (٠٠٩٦٥)
State of Kuwait - P.O. Box: 748 Safat 13008-Tel.: (00965) 22512086/82/81-Fax: (00965) 22512044

مدينةٌ بعطرِ امرأةٍ لأبي تمّامَ

لكِ ضحكةٌ كالبحرِ تُحيا عندَهُ
غرفُ البيوتِ وتستلذُ الأعينُ
فيكِ المعاني الغافياتُ يرومُها
جيشُ الحروفِ وداءُ حبّك مزمنُ
فيكِ الفَراشُ إلى الشفاهِ يدلُّنا
حتى دنوْنا فاستحالَ الممكنُ
ثعبانُ خدِّكِ مستطابٌ سمُّهُ
ولأنّ عينَكِ غابةٌ تتلوّنُ
أعيا عقولَ الناظرينَ بريقُها
فتلعثموا وتأوّلوا وتكهّنُوا
فالبعضُ قالَ: نقوشُ ضوءٍ كُحّلَتْ
والبعضُ قالَ: جواهرٌ تتبطّنُ
رشفَتْ طيورُ الماءِ دمعَ قصائدي
ومضَتْ تغرّدُها ففاحَ السوسنُ
حاولْتُ أن أصلَ النهايةَ قبلَهم
فقرأْتُها: أنْ يا «جميلُ» ستُطعَنُ
طعنَ المنارةِ، نبضُها متورّدٌ
وعلى الفنارِ كمنجةٌ وتدندنُ
عذراً «حبيبُ» سيوفُنا محمومةٌ
أحلامُها تغلي فذابَ المعدنُ



عذراً «حبيبُ» فـ «مَوْصِلي» قد راعَها
أنّ الأعاجمَ في الضفافِ ستسكنُ
أنّ الجوامعَ والكنائسَ هُدّمَتْ
أمّا الربيعُ بقلبِنا يتحصّنُ
تمثالُكَ الفضيُّ ليسَ حجارةً
بل نجمةٌ بشروقِ شمسٍ تؤمنُ
تمثالُكَ المشهودُ نزفُ سحابةٍ
أو قبلةٌ تهمي عليها الأعينُ
نامَتْ عيونُ الليلِ عن همساتنا
إنّ البدايةَ في النهايةِ تُمعنُ

• «موصلي»: مدينتي الموصل ■

عبدالله سرمد الجميل - العراق



محمد الناصري/ العراق، مظفر حيدر/ سورية، مصطفى حسين/ مصر، عزيز العرباوي/ المغرب، زكريا حمايتي/ الجزائر، موسى أحمد/ سورية، قائد أحمد/ اليمن، محمد أيمن/ مصر، مها حداد/ المملكة العربية السعودية، محمد القماطي/ طرابلس، زبير مهداد/ المغرب.

إلى أن نلتقي

فاطمة حسين العيسى
كاتبة من الكويت

وطن ومواطن

بعد شهور تسعة - قصرت قليلاً أو طالت - من الإقامة وسط ملاذ آمن بالغ الدفء كريم العطاء.

تتأهب الروح البشرية الجديدة لاختراق الشرنقة، وتجد نفسها محاطة بلفافة دفء آخر وأصوات تكبّر في الآذان مرات ثلاث وكأنها تبدأ بإقامة صلاة مرحبة بالقادم الجديد.

هذا الذي تم فصله عن رحم أمه للتو بقطع حبله السري ليطلق الصرخة الأولى احتجاجاً على ترحيله من وطنه الصغير إلى العالم الأكبر.

يبدأ درسه الأول في التأقلم بوضع قدميه الصغيرتين على أول عتبات «المواطنة»، وهو الاسم الجديد لصلته بالأرض.

وتبدأ رحلة الوصل لهذا المواطن الصغير بهذا الوطن الكبير، الذي نسميه «الانتماء»، ذاك الدرس الأول لربط الإنسان بوطنه رباطاً له صفات النمو والاستمرارية بإرادة الخالق على المخلوق.

لذا يقال إن المواطنة حق له صفة الديمومة - إلا ما كتب الله - أما الانتماء فهو واجب مستمر ما دامت العلاقة سوية بين الإنسان وموقع قدميه.

الوطن... نعرفه بمجرد فتح أعيننا، لكن الانتماء ليس مجرد ملصق إعلاني، إنما هو درس مهم يعطينا إياه الأهل أولاً، ثم المدرسة رغم اختلاف اللغة والموقع. والانتماء، مطلوب من الاثنين (الوطن والمواطن) ممارسته بحرفية عالية، فلا تتكامل المواطنة إلا بإنجاز الانتماء، الذي نترجمه في حياتنا الخاصة أو العامة، رغم تقدم العامة عن الخاصة. إن الجدية في ممارسة سلوك الانتماء هي التي تصوغ المواطن الحق وليس مجرد عابر السبيل، لأن للأوطان حرمات، ولها قواعد وقوانين، ونظم تبدأ من احترام علم البلاد وتنتهي عند إماطة الأذى عن الطريق، فالسلوك العام هو الصوت المسموع للانتماء الحق.

للأوطان إدارات عليا في مجالات السياسة والاقتصاد والعلم والاجتماع، وللمجتمع أخلاقيات عامة راقية مطلوب من الأفراد ممارستها بكم كبير من الطاعة.

تلك حقوق الأوطان على مواطنيها وزوارها، وما على الإنسان إلا أن يدرك أن حريته ذاتية فقط لا يمارسها في الأجواء العامة، لأن ما يخرج منه عن إطار منزله الخاص هو للعموم وليس له خصوصية به.

اعذروني إن آمنت بأن الوطن العربي قد أدركته الجودة عند صناعته لأوطانه، ولكنه مازال في الدرجات الدنيا في تشكيل وصوغ مواطنيه، أقول صوغاً ولا أقول صناعة والفرق بينهما كبير.

فالعربي يحب وطن ولكنه لا يمارس انتماءه بحرفية يستحقها الوطن ■

